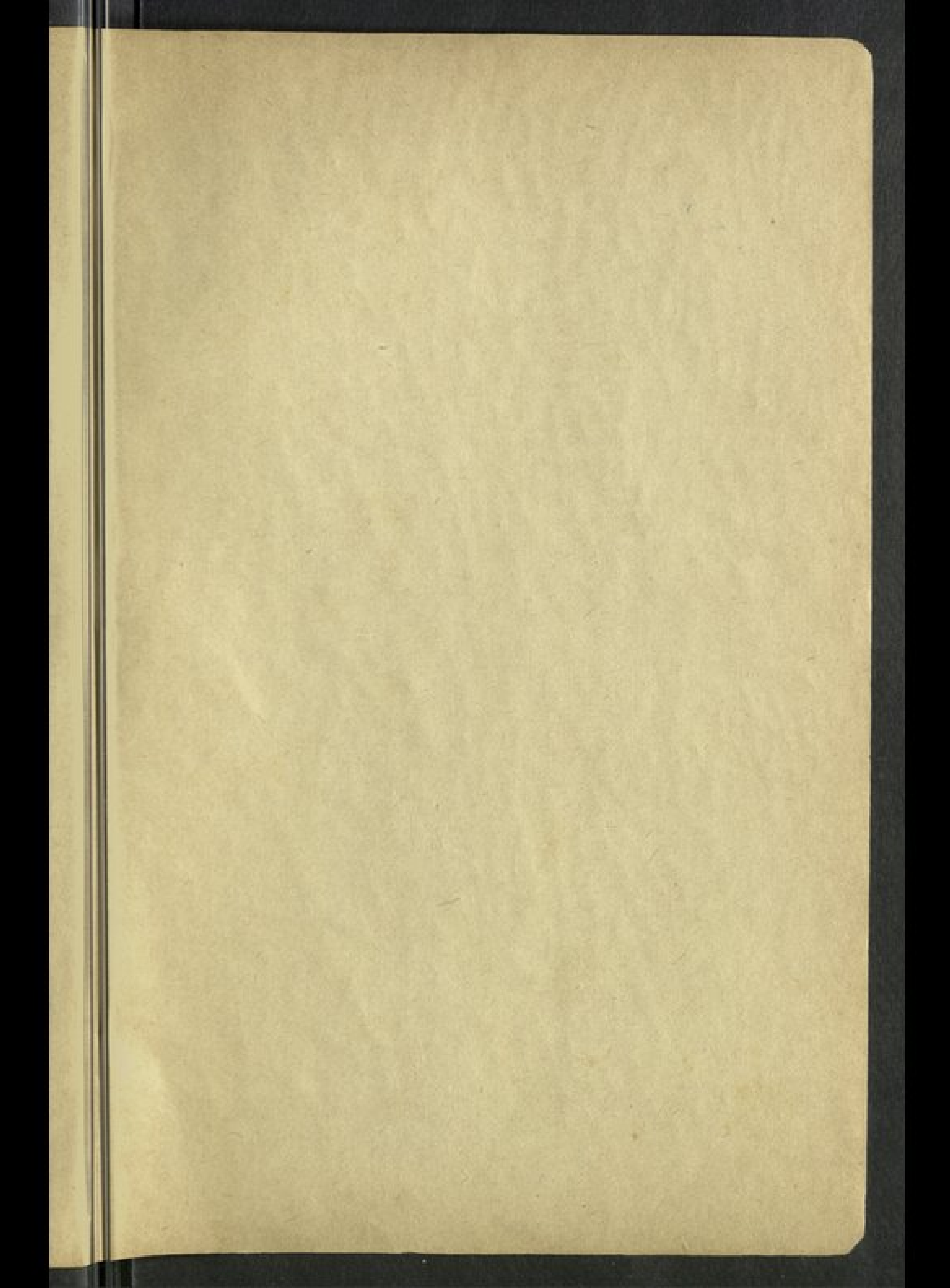
يوسف يونس

سبحة الراهب

قصة

١٩٥٣





يوسف يونس

مسبحة الراهب

قصة

١٥ / ١٢ / ١٩٥٣

لمن اقدم كتابي ؟

الى اليد التي شقت طريق قلمي
الى القلم الذي الهب الوطنية في نفسي
الى النفس التي جوهرت المحبة في قلبي
الى القلب الذي زرع التسامح في روحي
الى الروح التي نورت انفاق العالم في مسيري
اليكِ وحدكِ يا روح يوسف اسكندر نصر اقدم كتابي !...

يوسف يونس

القديس

أملأت القنينة زيتاً يا حنا ؟

- ملأتها ، وهيأت لك الشموع ، ولففت علب الكبريت ، وتراني مستعداً لكل خدمة في سبيل هذا القديس !..

- عافاك الله يا حنا ! ان شفاعة القديسين تسهل لك طرق النجاح . كم بلغ الثمن ؟.

- خمسة وسبعين قرشاً .

- فقط ؟! ان بركة القديسين بين يديك !..

- انا اتساهل جداً في طريق البر .

●

لقد دفع الشاري ، وجمع ما اشترى في «سلة» صغيرة ، وذهب . اما حنا صاحب الدكان ، فظل واقفاً يراقبه حتى توارى ..

وكان حنا ساخراً ، وسخرية حنا تبدو بليغة في هذه الابتسامة المنحرفة المرتسمة على فمه . بل تبدو في نظراته الغريبة التي رافق بها الشاري ، فمن يكون هذا الشاري ؟

لم استغرب حنا ساخراً،فالشاري غريب الشكل شاذ الطباع، وغرابته ليست بالفقر البادي على ثيابه ، ولا بالبله ، الناطق في اساريره ، ولا في نظراته الكثيرة الفضول ، الجريئة الاتجاه . بل غرابته بهذه القلادة المدلاة من عنقه حتى وسطه، وقد وصفت رصفاً بالايقونات والتماثيل الصغيرة التي تمثل القديسين ، فمن يكون هذا؟ ومن هو القديس الذي ذكر في الحوار ؟.. ولمن الزيت والشموع والكبريت ؟..

ورأيت نفسي فضولياً خلافاً لعادتي ، أأسأل صاحب الدكان؟ أاركض وراء الابله الغريب الشكل ، الشاذ الطباع ؟ ولكن ما الغرض من هذه «الحشرية» المستهجنة ؟ وماذا يهمني من ابله ثرثار؟. ورضيت عن هذه النهاية . وسرت مع الجماهير المحتشدة .

نحن في عام ١٩٣٩ .

كان الصباح جميلاً ، وساحات «بشري» تغص بالوفود ، من بيروت وطرابلس ، ومن انحاء الشمال كلها . ومن يدري ؟ فقد يكون السوري والفلسطيني والعراقي والمصري بين هذه الجماهير ، فالصباح صباح عيد ، وصاحب العيد ليس قديساً من قديسي الكنيسة ، ولا شهيداً من شهداء «السنكسار» ، وانما هو رجل من الرجال الذين يقدسون كل مذهب لانهم يقدسون الدين !. بل اديب عالمي كبير ،ترك لبنان غلاماً مجهولاً ، وحل في اميركا بلاد السحر الحلال ، فصار ساحراً .

قد يستعيذ القارىء بالله ، وينكر وجود السحر في لبنان بقعة

الايمان الحي ، ولكنني استميح قارئي عذراً ، واسأله اصغاءً ، لاحلل له سحر الرجل الذي يدعى اليوم نبياً ..

ليس السحر يا اخي في ان يتحول التراب ذهباً بين يديك ثم يعود تراباً ، بل السحر في ان ترى العالم كله في مثل ، وتلمس غرائب الحياة في رسم .

وليس السحر في ان ترى «طاولة» خشبية تتحرك كأن فيها حياة ، وانما السحر كل السحر ان تجد حركة النواميس الخفية في نفسك ، كأنك كل المخلوقات :

اذن فالاول تدجيل العلم على البسطاء ، اما الثاني فوحي الله على العباقرة الموهوبين ..

وصاحب العيد عبقري موهوب .

صاحب العيد ساحر الروح والقلب والوجدان .

واني افضل الف مرة ان يدعى ساحراً ، على ان يدعى نبياً ، وذلك خوفاً من ان يكون من اولئك الذين تحدث عنهم الناصري ، الذي الهمه روح السحر الروحي !..

•

ان المناسك والصوامع المسيحية في الشرق تماثيل خالدة تعترض ملتقى الجيل بالجيل ، فتودع الذاهب بعبرة ، وتستقبل الآتي بعظة ، وتجمع بين العابرين ايمانها البكر الذي كان يلهب نفوس ابناء الصوامع ، فتتقد بحرارة الدين !.. وقد نثرت هذه المناسك في اعماق الاودية ، وفي سفوح الجبال ، وعلى قمم الروابي ، وقلما وجدنا

منسكاً في سهل ، او صومعة في قرية . فكأن رجال الزهد اختاروا الوحدة القصية ليسلموا اليها قيادة نفوسهم فتبلغهم وجه الحق ، ومن عرف الحق ، رأى الله وجهاً لوجه ..

ومن هذه المناسك دير قديم ، قامت دعائمه الطبيعية على رابية خضراء ، في السفح الشمالي الشرقي المطل على بشري . ولهذا الدير كهف مستطيل ، نحته الزمن بمرور الاجيال ، فجاء الانسان وتمم ما عجز عنه الزمن ، اذ جعل من الكهف معبداً صغيراً يوحي الخشوع لانه بعيد عن الزخرف شأن الذين ارادوه مرجعاً لنجوى نفوسهم ، وهيكلاً لفروضهم الروحية !. ولسر في التاريخ ، تفرق ساكنو هذا الدير ، وظل هذا المنسك مهجوراً الا من الرهبة والخشوع المرفرفين في هاتيك الغابة السحرية المحيطة به .

وفي هذا الدير تمنى جبران ان يقيم لو عاد الى لبنان حياً ، على ان جبران عاد ميتاً ، فاين يقيم ؟.

« كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح . »

والروح التي اشتاقت هذا الدير قد بلغته ، وهذا ضريح جبران يتألق بخشبه المصقول . ويشع ببلوره الصافي . وهذا تابوته الرصاصي يعرض في هذه الواجهة الوهاجة ! وعلى هذه الواجهة وضع مقدسو جبران شموعهم ، واناروا سرجهم المتدفقة بالزيت . أيكون جبران ذلك القديس الذي تحدث عنه صاحب الدكان ؟ أيكون الابله ناذراً زيته وشمعه لجبران ؟.

وهززت برأسي متأسفاً ، كأنني لم ارضَ بأن يكون عبد

جبران العبقري ، عبداً وشحه الوهم بوشاح الاساطير ، واضفى عليه التشبث الاناني ، جلال القداسة !.

نعم لم ارضَ. لان الذي تحتفل بشري بعيده هو مصلح انساني زرع في العالم نواة المحبة البريئة التي لا تسكن في سوى اكواخ الفقراء ، ولا ترافق الا خطوات البائسين !.

انتهت الحفلة الادبية وانفضت الجماهير . وتحدثت الى اصدقائي عما سمعت وعما رأيت . فتأسف الاصدقاء ايضاً على ان تجمع عبقرية جبران – رسماً وشعراً وفلسفة – في كلمة قديس... وكان بين الذين حدثتهم صديق بشراوي حاذق اللب والقشور ، فضحك هذا الصديق وقال : اتبعني ! ومشى امامي . ولما وصلنا الى دكان حنا سأله : من اشترى منك في هذا الصباح زيتاً وشموعاً وكبريتاً ؟

فقال : قزحيا .

– قزحيا ؟! ذلك الابله الذي لا يتحدث الا عن الثواب والعقاب ، وعن القديسين والنساك ، والرهبان والكهنة ؟..

– هو نفسه .

– ولمن اشترى ذلك ؟

– للحبيس الذي يسكن الدير الكبير في الوادي .

– الاب رفائيل ؟

– نعم صاحب العجائب والمعجزات . ولكن لماذا تسألني هكذا ، أفي ذلك غرابة ؟

ـ لا وانا وجدت على قبر جبران شموعاً وزيتاً ، وهذه تحدث اوساخاً على الخشب اللماع المصقول .

●

تركنا حنا ، وصديقي يربت كتفي قائلاً : اطمئن بالاً فجبران ليس قديساً !.. ثم سألني أتذهب الى الارز ؟

فقلت : لا .

ـ لماذا؟ انك تشرف من قمة الارز على هذه الاعماق الساحرة، وتملأ صدرك بالنسيم المعطر ، وروحك بالخشوع الذائب هينمة بين اجنحة الارز !..

قلت : بل اريد ان اشرف من هذه الاعماق على الاعالي . واملأ صدري بغبطة بليغة ، وروحي بالخشوع الصامت في ظلمات المناسك والصوامع .

ـ واين تجد هذا ؟

ـ في الوادي ،حيث ارى الاب رفائيل الفرد، عالماً في وحدته!

ـ لا بأس بها زيارة . انك ستجد نفسك امام شيخ ناضج بخبرة السنين ، متوهج بشعلة الايمان ، مجلل بالمهابة والاحترام ! فتقرأ على اساريره البراءة ، وفي عينيه الاستسلام ، ثم تسمع في صوته اصداء الابدية الصارخة في نفسه !..

ـ أتعرفه انت ؟

ـ لقد زرته مراراً ، وفي كل مرة اجد لوناً جديداً في حياته . فطوراً أراه مكفهراً كالحاً يهرب من الزائرين ، وتارة اراه بشوشاً

يحدث عابر الطريق .

– أتعلم شيئاً عن اهدافه الخاصة في انعزاله عن الناس ؟

– لم ابحث معه هذه الناحية ، وانما عرفت من بعض مجاوريه الفلاحين ، انه قديس حقاً ، وان عجائبه تحدث عشرات المرات في السنة !..

– لقد زدتني تشويقاً . فاذا ما ذهبت والاصحاب الى الارز ، قل لهم انني في الوادي .

– فضحك صديقي وقال : سنصعد نحن وتنحدر انت !

فاجبته : شأن الكفة الراجحة !.. وهكذا افترقنا ضاحكين .

أنا وقزحيا

من يذهب معي الى الوادي ؟ لا أدري . وسألت عن قزحيا كثيراً فلم اجده ، ورحت ابحث عمن يرافقني ويدلني على طريق الوادي . وبينا أنا اسأل هذا وذاك ، اذا بقزحيا يصل الى الساحة والعرق يتصبب من وجهه .

وتعالت الاصوات : هذا قزحيا ! اما قزحيا فقد قطّب حاجبيه وسأل احد الذين ارتفعت اصواتهم : ماذا تريد ؟

فقال الرجل : لا اريد شيئاً يا ابن الوادي ! وضحك هذا ، وضحك كل من في الساحة ، اما انا فقد اقتربت من قزحيا وسألته بلطف : أتريد ان تدلني على طريق وادي القديسين ؟

فقال : كيفما اتجهت تصل الى وادي القديسين !

– ولكنني اوغب في زيارة الاب رفائيل !

فغضب قزحيا وقال . الاب رفائيل ؟ الاب رفائيل ؟ .

ولِمَ لا تقول قديس الوادي ! ؟ ألم تعلم ان روح الله في هذا الراهب ؟ ما اضل البشر ، وما اسهل طريق الكفر ! ..

– انا لم اكفر يا قزحيا ، وانما جئت اسألك ان تذهب معي الى القديس ، لاملأ نفسي ايماناً ... فضحك قزحيا ضحكة بلهاء وقال : اذا كانت نفسك فارغة فاحذر ان تقابل القديس ، لانه لا يقابل فارغي النفوس ! ..

– اذن فراهبك ليس قديساً والا لكان يبحث عن النفوس الفارغة فيملأها ...

فانتفض قزحيا غاضباً ، ومسح وجهه بكمه ، ثم رفع زنده المرتجف وقال : أتكفر ؟ . أتجدف ؟ . أتنكر قداسة الراهب الالهي ؟ ..

وتجمهر الناس على جدالنا . وانطلق قزحيا يعظ في هذه الجماهير والعرق يجرف الاوساخ عن وجهه جرفاً ... ولما انتهى من عظته قلت له : اذن انا ذاهب وحدي الى الوادي . وسأخبر القديس عنك فيحرمك من بركته فتموت هالكاً ! ..

ومشيت مسرعاً لا التفت ورائي ، فاذا بقزحيا يتبعني ، وقلادة الايقونات والتماثيل تترجح على صدره كأنها الجلاجل . على اني لم التفت اليه بل ظللت مسرعاً في مسيري . وما كدت اخطو بضع عشرة خطوة ، حتى اوقفني برجاء خاص ، وقال متوسلاً : لا تحرمني بركة القديس يا سيدي . انني خاطيء وخطيئتي عظيمة جداً . فهلا سمحت لي بالذهاب معك ؟ انني استحلفك بالعذراء القديسة ، والطوباويين والطوباويات ، بل أستحلفك «بعار» سابا هذا القديس العظيم !.

ولما سمحت له بالذهاب معي ، انفرجت ملامحه وبدا وجهه الاحمر كمسرجة ينعكس عليها لهيب المشاعل . ومشى امامي في الطريق المنحدر . وكان سريعاً في سيره ، اما لسانه فكان اطلق من قدميه . فهو يتكلم بدون انقطاع عن التقوى وعن الفضيلة

والندامة الكاملة ، واستحقاق القديسين ، ومجد الشهداء . وروعة السماء ، الى كل ما في علم الكنيسة من روح وايمان .. امـــا انا فكنت ساكتاً اتقي العثرة في ذلك المنحدر المخيف ، محدقاً الى جمال الوادي السحري .

وما كدنا نبتعد عن بشري فرسخاً او اقل ، حتى اشرفنا على الروعة ، على الشعر ، على الرؤيا ! بل اشرفنا على الحلم النهاري ، هذا الحلم الذي يحول حواس الناظر كلها خيالاً صافياً واضحاً ...

فماذا ارى ؟ اعماقاً سحيقة تتكسر اشعة الشمس على فجواتها . فتولد الواناً رقاصة . ومياهاً رقراقة تتململ بين الصخور والاعشاب كزبد الامواج . واصداء السكينة تتعالى هديراً لطيفاً كالهينمة . وصخور الجبلين مشرفة على المهاوي من هنا وهناك كأنها رؤوس جبابرة الاساطير تحرس هيبة الوادي ، وابواب الكهوف ، تطل فاغرة اشداقها كاوقاب الجماجم ..

أهذا هو الوادي ؟ وانحدرنا ايضاً . فبدت الحصى على جانبي المسيل بيضاء ملساء ، هذه الحصى التي مـــا برحت مخدرة بدماء الابرياء ، حاملة بروائح البخور ، مصغية الى وقع خطوات النساك .

وانجلى المكان عن قدسية تستولي عـلى النفس ، ورهبة تمتلك نبضات الفؤاد ، فشعرت بما يشبه الانخطاف ، وخيل الي انني اسمع خرائب الصوامع تهمس بذل النساك ، وانزواء البطاركة الخائفين من المظالم ، الهاربين من الاضطهاد . بل خيل الي انني ذو جناحين خفيفين يحملانني حملاً الى قديس الوادي ..

ولكن من دعا هذا المكان وادياً ؟..
من حقره بهذا الاسم ؟
من اطلق عليه هذه اللفظة الخليقة الجافة ؟.
اما كان الاجدر ان يطلق عليه «هيكل الازمنة»!؟.

نعم انه لهيكل الازمنة! بل هيكل الاجيال الروحية منذ بدء العالم! مذ تفجرت السدم الاثيرية براكين، وسالت البراكين انهاراً من نار، وجمد السائل، جبالاً وسهولاً وحزوناً وهضبات!.

في ذلك اليوم! مر محراث البـــدء العزوم، وشق وادي قديشا ثلماً عميقاً واسعاً، لتنبت فيـه نفوس النساك متجوهرة، وتتألق بخشوع يزدري مغريات العالم، ويحتقر لألاء الدنيـا الزائل!

وقد انبت الثلم البدئي، نفوساً متجوهرة، لقد انبت الانسان، الانسان وحده!.

وهل كان الوجود الا في الانسان ؟. فمن اضفى الروعـة على هذا الوادي ؟

من رمم كهوفه ؟
من جعل مغاوره مناسك وصوامع ؟
من شق هذه الطرقات المتشعبة كافكار الجاحدين ؟
الانسان ! الانسان !..
ومن هو البطريرك الشهيد ؟
ومن الناسك الذبيح ؟

ومن الراهب الذي مات جوعاً في ظلمة هذا الكهف ؟
الانسان ! الانسان !..
ومن انا ؟ ومن قزحيا رفيقي ؟ ومن الاب رفائيل ؟
الانسان ! الانسان !..
ومن هو الانسان ؟!.
ووقفت امام هذا السؤال لا اجد جواباً ، وقفت جاهلا نفسي من انا ، وكيف وجدت ولمَ وجدت ؟
أيكون الخشوع الذائب نوراً والواناً جعل مني غريباً عن نفسي ، بعيداً عن ايماني ، جديداً في تساؤلي ؟..
ورن في اذني صوت قزحيا ، كأنه صياح الديك ينبه هاجع الصباح . فعدت الى نفسي . عدت كأنني جديد في الحياة ، حديث في المعرفة ، بعيد عن العالم !..
وعاد قزحيا يناديني وانا ذاهل !
— ما بالك واقفاً يا سيدي ! لقد وصلنا الا بضع عشرة خطوة . انك تحاول عبثاً ان ترى مغارة القديس . تعال . تقدم . قبل ان يبدأ بصلاة المساء وعندئذ يتعذر عليك مرآه .
ورددت في نفسي : « صلاة المساء !! »
وشعرت بخشوع جديد . شعرت باني احنو رأسي امام انغام الصلاة الصارخة . هاتيك الصلاة الشعرية التي اختمرت في رأسي يعقوب وافرام ، الراهبين القديسين !..
وهبطت مسرعاً ، ولما وصلنا الى الوادي وسمعت لكل شيء صدى ، تهيبت ، وشعرت بان جسدي انفصل عن روحي ،

ونظرت الى الجهات الاربع فبـدا امامي الوشي الطبيعي الساحر ، وزخرفة الدهور المقدسة ، ولما رفعت عينيّ الى العلاء، وجدت الوادي مسقوفاً بالافق . بالزرقة الاثيرية المطمئنة . بهاتيك الزرقة الحافظة بين دقائقها ، ضجيج العالم وصخبه ، وصلوات النساك وتنهداتهم . . ووقفت مشدوهاً . مسحوراً ، ضائعاً . وقفت روحاً وخيالاً ، بل وقفت نبضاتٍ سريعة ، وفي كل نبضة الف سؤال . وفي كل سؤال الف حيرة . وفي كل حيرة شرفة مطلة على المعرفة الهاربة من الجهل ! . . . وتكلم قزحيا . فاجفلت عندما سمعت كلاماً ، لأنني كنت معتقداً انني وحيد في هيكل الدهور . . .

– من هنا طريق المغارة يا سيدي . يجب ان نصعد شمالاً . مئة خطوة لا اكثر ولا اقل . حسبتها عشرات المرات فاذا هي مئة . مئة فقط . .

ومشى قزحيا امامي . على أني استغربت أمره لما رأيته يخطو الخطوة ويعدها ، ولما قال مئة ، هتف فارحاً : هذا هو باب الكهف . . .

قال هذا ، ومشى . . واذا بنا امام غار مستدير الفتحة، قليل الاضواء . عميق ، متسع . فقلت : وأين القديس ؟ فاجاب: انتظر هنا لأعلمه بقدومك ، ما اسمك ؟ . فقلت : مؤمن ! . .

فحدق اليّ قزحيا بعينين أحدّ من عيني الصقر ، وقال : وهل في العالم كله من لا يؤمن ؟ . ثم ضحك ضحكة منشارية الصوت ، وغاب في ظلام الكهف . .

وظللت وحدي أبعث نظري حول الكهف : هنـا مرجة صغيرة معشوشبة . وهنا جنينة اصغر مزروعة بقولاً ، وهنا دالية معرشة على اطناف الكهف مثقلة بالعناقيد اللماعة ، وهناك عين تنز من قلب صخر ذي نخاريب ، وهناك « خيمـة » مكسوة بالغار و الدفلى والدلب .. ورحت ادور حول الخيمة، ولما وجدت بابهـا ، رأيت داخلها شيخاً نائمـاً ، يغط غطيطاً بطيئاً كلهاث الطفل ، فراشه من القش ، ووسادتـــه حجر املس من حجارة الوادي . وحدقت الى هذا الشيخ . الى هـــذا الراهب الحالم بالابديـة . أيكون هذا هو القديس ؟ ..

كان نائمـاً على ظهره ويداه المعرقتان تقبضان على كتاب قديم ، دفتاه من الجلد ، الضائع اللون ، لكثرة الاستعمال . وكان اسكيمه يغطي جبهته كلها فتبدو عيناه المغمضتان اغماضة مطمأنـة ، كأنهما امتلأتا بكل ما في العالم والطبيعة من مشاهد ورؤى .. اما لحيته البيضاء الكثة ، فكانت ترتعش على صدره ، تبعـاً لتنفسه الهادىء ..

ووقفت متهيباً ، وقفت ارقب اسارير وجهه ، واقرأ فيهـا اسرار نفسه ، بل وقفت ادرس هذه الاسارير الناطقة بصمتهـا ، المستيقظة بنومهـا ، الطامحة بانعزالهـا وقناعتها . واقتربت من الراهب محاولاً ايقاظه دون قصد ، ولكنه غارق في احلامـه ، فبأي شيء يحلم ياترى . هل يحـلم من يقيم في هـذا الوادي ؟ ومتى كان الحلم أجمل من هذه الحياة المقترنـة بالوحدة ، والجمال والسحر والخيـال ؟ ..

أيحلم هذا الشيخ وقد نفضت الحياة يدها من ميعان جسده ؟ وماذا يرى الشيوخ في احلامهم ؟ هل غير الموت جزاء الحياة ؟ . وكدت انسى انني في خيمة امام نائم ، له حرمته وله هيبته . وكدت استرسل في تصوراتي واقف بين الحياة والموت شأن المتشائمين . على ان الراهب استيقظ ، كأن ضجة افكاري ملأت اذنيه ، فوثب وثوباً جعلني افرك عيني لئلا اكون حالماً . وإلا ما هذه الرشاقة في هذا الجسد الهزيل ؟ .

ووقف امامي وجهاً لوجه ، ولما التقت عيناه عيني ، قرأت في حدقتيه تاريخ المسيحية منذ بدءها . اما عندما تكلم ، فقد سمعت في صوته عاصفة من التراتيل !..

نعم تكلم ! ويا لهول ما قال : أقسم عليك باسم ربي ان تتوارى !!.

فاجبته : اتوارى ؟ ولماذا ؟

– لعلك شيطان جاء يعدني بالشباب بدل نفسي . أغرب ! دعني ! أنا خاطيء والخطيئة لها عدواها كالامراض الفتاكة !..

– ألست الاب رفائيل ؟ .

– اني رفائيل الضعيف . رفائيل الهارب من الانسان دعني في وحدتي أثابك الله الرحمة ! .

– ولكنك يا ابتِ قديس مشهور ، تجترح العجائب والمعجزات امام الخطاة فيرعوون عن غيهم . وانا منهم ، من اولئك الجائعين الى الزهو . الى الملذات . فهلا تمسح نفسي بقداستك لتجوع الى المعرفة والحق ؟ .

ـ اني اقسم عليك باسم ربي من تكون ؟ .

ـ رجلاً مل ضجيج المجتمع فجاء يتزود من هـذه السكينة المقدسة ! ضائعاً في ظلام العالم جاء يستنير باشعة عينك !

ـ ان من يترك شمس الله ليستنير بلمعان التراب انما هو ضال لم يجـد نفسه بعد . أتدري من أنا ؟

ـ انك لرجل الله . ورجال الله يظلون مجهولين حتى يصلوا الى الله ! . .

ـ تتكلم مؤمناً ، وتنظر مختبراً ، فهلا اريتني نفسك طفلا يطلب ارشاداً ؟ . .

ـ الطفولة يا ابتِ تتوارى بالشباب ، وتظهر بالشيخوخة ، فلا تطلب مني خلق انسان ، لاني لست إلهاً .

ـ إنك لست إلهاً ، ولكن الاله مستقر في نفس كل انسان فهلا زجرت الانسان لتمسي هيكلا ابعث فيه كلام الله ؟ .

ـ أيستطيع الانسان ان يزجر من نفسه الانسان ؟

ـ انه يستطيع !

و كيف ؟

ـ بان لا يسخر باخيه الانسان ! وما انت إلا ساخر الآن ، تتكلم مؤمناً وتنظر مختبراً . . .

ـ ابتِ ؟ ! إني لست كما تظن . انا قادم الآن من بشري لاراك خاصة ، واسمع صوتك ، واحمل حكمتك زاداً لمعادي !

ـ من بشري ؟ أو كنت في حفلة الرجل الذي كان يبحث عن الحق ؟

– نعم كنت في العيد السنوي الذي تقيمه بشري للكافر الكبير !..

– الكافر الكبير ؟..

قال هذا وابتسم ابتسامة وادعة انتشرت على محياه وتابع : ولكن كثيراً ما يكون الكافر الكبير قديساً صغيراً . انا لم أعنِ كافرك ، وانما اطلقها كلمة عامة . كلمة شاملة . كلمة يتساوى عندها من جعلهم الناس كفرة لانهم مجهولون ، من الناس .

وقبل ان اسأله تفسيراً لنظريته ، وصل قزحيا ، وانحنى على يد الراهب ليقبلها فسحب الراهب يده وتراجع مذعوراً ، كأنه يخاف ان يضع يده في كف انسان ..

اما قزحيا فقد انتصب خجلاً وقال : كنت في المغارة ابحث عنك يا « ابانا » .

– لِمَ تبحث عني ؟

لأن هذا الرجل جاء يتبرك بمرآك !..

فقال الراهب : أتعرف هذا الرجل قبل اليوم ؟

– لا يا ابانا ..

فنظر الراهب الى قزحيا نظرة تأنيب وقال : بعد اليوم لا تزرني إلا مرة في الاسبوع . أسمعت ؟

فخجل قزحيا وذهب باكياً منتحباً لا يلتفت الى ورائه ..

اما الراهب فكان يرافقه بابتسامة متهللة انارت لحيته البيضاء وانطفأت بين شعورها المتشابكة ... ولما اختفى قزحيا . قال الراهب :

ان قزحيا ما برح طفلاً . وما اكثر الاخطار التي تحيق بالاطفال .

قلت : ولكنه شديد الايمان .

فاجاب: أتدعو الاستسلام ايماناً ؟ ان قزحيا مستسلم للمؤمنين اما انه مؤمن فلا . لان الايمان لا يكون بدون فكر . والفكر لا يكون بدون عقل . وماذا تطلب من رجل كقزحيا اكثر من الاستسلام ؟..

ورأيت الراهب ميالاً الى التحليل ، فشئت ان اعود الى شخصه ، فسألته : كم لك هنا في هذا الوادي يا ابتِ ؟..

– مذ رأيتني !

– مذ رأيتك ؟ واين كنت قبل الآن ؟

– في صلاتي !

– واين كنت تصلي ؟

– في نفسي !

– واين نفسك ؟

– في جسدي !

– واين جسدك ؟

– لا ادري !..

وبدا لي هذا الراهب يعمُد الى الابهام،وهو المختمر بالحكمة ، فهل تبدلت اطواره ؟ وتذكرت ما قاله لي صديقي البشراوي ، على انني سررت بكونه مبهماً . وسرني ان يحدثني بهذه المعميات التي تنزلق منها صراحة قلبه . بل سرني ان يتنطع في هذا الموقف

وانا ما جئت إلا لاسبر غور نفسه . ألم يقل النّاس انه قديس ؟

فقلت : أضعت جسدك ، ولماذا ؟

فقال : اضعت جسدي لاجد نفسي . اضعت جسدي لاجد ربي . ومن لا يضيع جسده في العالم ، لن يعرف شيئاً عن العالم !

- إذن ما شأن الذين يهتمون باجسادهم اهتمامهم باغلى ما في العالم ، أيخسرون نفوسهم ؟ أيفقدون ربهم ؟

- العمر تجارة الحياة ، والحياة وحدها تفرق ربح العالم عن خسارته . لقد قلت لك منذ هنيهة انك تتكلم مؤمناً ، وتنظر مختبراً ، فهلا تركت عزلتي لعزلتي ؟ . .

- لن اتركك قبل ان املأ نفسي من حكمتك . .

- ليس لي حكمة خاصة ، ان شأني شأن الناس !

لِمَ تركت الدير إذن ؟ لِمَ احببت هذا الكهف المظلم العفن ما دمت مثل الناس ؟ اما كان الانفع للمجتمع ان تكون معلماً تلقي عظاتك على الشعوب شأن المصلحين ؟ .

- هذا شأني يا هذا ! هذا شأني .

- ان شأنك شأن الجميع على الاطلاق . أيستطيع الانسان ان يقطع جذور حياته من حياة اخيه ؟ أوجد الانسان ليتوارى في الكهوف بينما الانسان نفسه جاد في بناء المجتمع ؟ أيتفق هذا والغاية المنوية من وجود الانسان ؟

- ان ما يبنيه الانسان في جيل ، يهدمه الانسان في لحظة !..

- أليس الهدم والبناء برهاناً على وجود الانسان ؟

- ما كان الوجود ليحتاج الى برهان . .

الى مَ يحتاج الوجود اذن ؟ . الى العزلة ؟ ؟ الى النسك ؟ . فاذا كان النسك غاية الانسان فلِمَ وجودهُ ؟ وهب ان كل رجال العالم ارادوا النسك ، فمن يبقى للعمل ؟ من يبقى للعمران ؟ من يبقى للعلم ؟ من يبق للتناسل .

– انا لم ادعُ العالم للنسك ، وإنما اسأل العالم ان لا يدعوني اليه. ان لكل قاعدة شواذاً كما يقال ، فلِمَ لا تحسبون النساك شواذات العالم ؟ أيفتقر العالم على خصبه الى رجل مثلي ؟ ومن انا ؟ وما هو شأني . لقد زارني كثيرون قبلك . واظهروا من الايمان والتقوى اضعاف ما انت مظهر ، ومع ذلك فلم أجدهم سوى فقاقيع طافية على شطآن الحياة تطفئهم الطف النسمات ، وتكونهم أرق الموجات. فهم ضائعون جاهلون لا يعرفون من امورهم إلا ان يأكلوا ويشربوا ويناموا ، ثم يموتوا . حيوانية شرهة هذه الصفات ، بل غباوة عمياء تحسب حديث النور خرافة ، ووصف جمال الطبيعة اسطورة .

– وانا يا ابتِ ، ماذا وجدت فيّ ؟ افقاعة طافية معرضة للانطفاء ام انساناً يحس ويشعر ويدرك ؟ . ارجلاً في كلامه الايمان وفي نظراته الاختبار ، ام زائراً يغذي نفسه بتقواك ويسألك عظة حكيمة ؟ ..

– عظة ؟ لو انني استطيع القاء العظات لما تركت العالم ! .. بل لما تركت الدير ! ..

– لماذا تضع العالم والدير في مستوى واحد ؟ أليسا نقيضين؟

– نقيضين ؟ ! .. قال هذا وسبحت عيناه في الآفاق كأنهما

تستلهمان الزرقة الصافية كلاماً . ثم اردف : لا ليس العالم والدير نقيضين ، وانما حبيبان وقف بينهما النذر رقيباً ..

ـ ايريد ابي ان يوضح ؟ ..

ـ أتجهل ما اقصد يا اخي ؟ ..

قال اخي ، برقة واستسلام ما عهدتهما فيه قبل . فهل وثق بصدقي ؟ هل اعتقد شرف مقصدي ؟ فقلت : نعم انني اجهل فاسألك ايضاحاً ..

فحدق اليّ طويلاً ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة طاهرة وقال : اجلس . اجلس . هنا على القش . على حرير الطبيعة . على هياكل الاشجار والاعشاب ! فجلست . وجلس قربي . ووضع كتابه في حضنه يعبث باوراقه ويتكلم . قال :

ـ لا إخالك تجهل ان ابناء العالم يحنون في اعماقهم الى حياة الدير ، متوهمين ان في حجراته طريق السماء . ولو عرفوا ان ابناء الدير يتوقون الى العالم معتقدين ان في رحابه عذوبة الحياة ، لوقفوا متساءلين لماذا ؟ اما انا فاني اقول للعالم وللاديرة ، ان السماء ليست في حجرات الدير ، وعذوبة الحياة ليست في العالم ، ما دامت النفس تتوكأ على عصاوين احداهما اطول من الثانية . فالسماء في النفس وعذوبة الحياة في القلب . وهنيئاً لمن اقترنت نفسه بقلبه بحرارة الايمان ..

فالدير يا اخي قفص الجسد ، ولكنه مسرح الروح . ومن لا يسجن جسده لن يستطيع ان يطلق روحه . والدير ليس ديراً متى

كانت الغابة من جدرانه الجمال ، ومن مآكل اللذة . ومن اسرته متعة الاحلام . . .

لقد كنت في الدير يوم كنت ارى في كل راهب انطونيوس الكبير ، وتماليمه . فارى اوجين وآشعيا ويعقوب وافرام وشربل وغيرهم من الذين احبوا في الرهبنة فقرها ، وفي الدير نذره ، وفي الراهب تقشفه ! . اما اليوم ، فاين الراهب الفقير ؟ واين النذر الصحيح ؟ انني منذ نصف قرن لم اجد راهباً نذر الفقر إلا ليكون غنياً ! . .

فقلت دهشاً : الرهبان اغنياء ؟ . .

فاجاب وفي صوته رنة التهكم : ما الغنى في معرفتكم معشر طليقي الاجساد ؟ الذهب ؟ فالغنى ليس ذهباً ، وانما الاستمتاع بالذهب ! وما اكثر الذين ضاقت صناديقهم بالذهب ، واجسادهم عارية ، وبطونهم طاوية ! . . وهل كان الغنى الا في ان تلف جسدك بالحرير والصوف ، وتأكل شهي المآكل . وتشرب عذب الاشربة ، وتنام في سرير وثير ؟ . .

لقد كان معنى الفقر في النذر الرهباني اماتة الجسد لاحياء النفس ، فاين هذه النذور ؟ . . واين من يميت جسده ! واين الفقر؟ واين النسك والاعتزال ؟

أتكون الاماتة في اكل اللحوم ؟

أيكون الفقر في ارتداء الصوف والحرير والاحذية اللماعة ؟ .

أتحيا النفس في شرب الخمور ؟

أتمحى الافكار الدنسة في سرير وثير ؟..

أيتفق النسك والقصور الشاهقـــة المحاطة بحدائق الازهار ؟ المزخرفة بفسقيات المياه ؟

أهذا هو الراهب ؟ أهذا هو الناسك ؟ ، أهذه هي القدوة التي اورثها انطونيوس لرهبانه ؟

فاين الروعـــة في الاديرة ؟ واين الخشوع ؟ أفي الاطناف المنحوتة ؟ . أفي الغرف الموشاة ؟ أفي الممرات المصقولة الاديم ؟.

قال هذا وغطى وجهه بيديه كأنه خجل مما عرض امامي من المشاهد التي لا تروقه . ولما رفع يده رأيت دمعة حائرة تترقرق من مآقيـه . وتتغلغل في شعوره البيضاء .. ثم عقب ذلك فترة صمت كان خرير العين منشداً خلالها .

فقلت : لقد اجهدت نفسك كثيراً يا ابتِ . وما هذا الاجهاد إلا لهيب التقوى والفضيلة المضطرم في نفسك . على ان ما رويت لم يكن بالامر المنكر مـــا دام الراهب انساناً . وهل يمكن الراهب ان يكون غير انسان ؟ أيتجرد الراهب من ميوله ودمنا دمـه وميولنا ميوله ، وشعورنا شعوره ، ومـا ينعكس في نظرنا ينعكس في نظره ؟

فقال : من دعاه ليتجرد ؟ من رفع يمينه لينذر ؟ أما كان مخيراً عندما وقف امام مذبح الرب يعلن نذره امام الرب ؟

من دعاه ليقتدي بالنساك ثم يندم ؟ من قال له ان يلبس المسوح ثم ينزعها ليلبس الحرير ؟

من وصف له اكل البقول ليدوسها ويعتاض عنها باللحوم ؟ . لِمَ الخمور ؟ لِمَ القصور ؟ لِمَ الحدائق ؟ كل ذلك رفاه ! كل ذلك غرور ! بل زوغان يحاسب عليه ، ومخالفة امام الله يدان لاجلها ! ..

– وماذا تريد ان يعمل الرهبان وقد تطور العصر . وفتر الايمان في نفوس الناس ؟ أليس لكل زمان زي ؟

ومتى صار الرهبان غواني شباناً وتشوقهم الازياء وتخلب البابهم الدنيويات ؟ .

– وماذا تريد ان يعمل ابناء الاديرة ؟ أيستجدون وارزاق الاديرة طافحة بالخيرات ؟ أيجوعون ومخازنهم ملأى بالمآكل ؟ أليس من الحكمة ان تكرم الجسد ليكون هيكلاً لائقاً بالنفس ؟

– لقد وُضعت النفس في تراب لتظل اسمى من هيكلها أفيحق لعباد الله ، ان يعدلوا صنع الله ؟

– وماذا تفضل ان يفعلوا ، أيقفلون اديرتهم ويسكنون مثلك في المغاور والكهوف ؟

– انا افضل ان يحولوا هذه الاديرة مدارس للاطفال وملاجىء للعجزة . ثم ينبث العالمون من الرهبان بين الناس يعظون ويعلمون ، نحن في زمن تفتحت فيه النفوس على المعرفة . وجاعت القلوب الى تذوق العلم . وما الغاية الاخيرة من هذه الاديرة اذا كانت لا تفيد البلاد من خيراتها .

-- وما دمت ذا رأي سديد هكذا فلم لا تعلن افكارك في

الاديرة نفسها ، وتكون مثلاً للرهبان !

ـ انا ؟ !

ـ ومن سواك اذن ؟ لقد قلت لي منـذ هنيهة « العمر تجارة الحياة » فلم لا تتاجر بهذه الحياة فتكون في العالم مثلاً ؟

فضحك ضحكة مقهقهة وقال : من تريد ان اكون في العالم ؟ زعيماً يعلي مجده بخفض الآخرين ؟ حاكماً يحول القانون يداً خفية لسلب الضعفاء ؟ محامياً يسمعك الثرثرة حقاً ويريك الحق جريمة ؟ نائباً يبيع امته وبلاده بقبضـة من الذهب ؟ كاهناً يعظ عن نفسه باسم المسيح ؟ اماماً يتكلم عن اللغة باسم محمـد ؟ .. فمن تريد ان اكون من هؤلاء ، واين تريد ان اكون ؟ ..

ـ ومتى كان العالم يقوم على هؤلاء ؟ ..

ـ على من يقوم العالم اذن ؟ .. على التـاجر الذي يسخر الله لاقسامه ؟ على المرابي الذي يسلخ الدرهم سلخاً مـن قلب الفقير والمحتاج ؟ على صاحب المهنة الذي يزيف عمله بالكذب والمحاولة ؟ . على الاتكالي الذي يقيس خطوات المجاهدين باهداب عينيه ؟ ..

ـ ومن تراه في العالم صالحاً اذا كان هؤلاء كلهم كما وصفتهم ؟ وما العالم ؟

ـ العالم هاوية سحيقة مظلمة ، تغيب في اعماقها كل من تورط في غرور العالم ؟ . العالم مريض ! العالم الموبوء ! العالم جائـع لا يشبع . والويل للضعيف في العالم ! ..

ـ ومن الضعيف ؟

ـ العامل والفلاح ! هما الضعيفان في نظر الجائعين ، امـا في

نظري . فهما سيدا الارض . وسيدا الارض . سيدا العالم ! ..

– سيدا العالم ؟ أليست السيادة في العالم هي التي بلبلت العالم ؟ .

– اقول سيدا العالم ولن اندم ! فمن اخرج الذهب من قلب الارض ؟ ومن اذاب الحديد ؟ ومن صنع الفحم ؟ ومن استنبت الارض الغذاء ؟ ومن حاك الالبسة ؟ اتبخلون بالسيادة على هذين الكائنين المخلصين ؟ وما السيادة ؟ . أ ان تكون شديداً خالياً من الشفقة ؟ أ ان تكون انانياً بعيداً عن الانسانية ؟ أ ان تكون ذا رجال وتبعث رجالك يعيشون الفساد بين القانعين؟ .لا هذه ليست سيادة وانما هو تحجر ! .

– اذن انت ناقم يا ابت ، ونقمتك هي التي جعلت منك معتزلاً ، ناسكاً ، وحيداً في هذا الكهف . وهذا الذي يجعلني ان اتأسف لديك قائلاً ليتك عامل ليتك فلاح . بل ليتك خطيب يقف في شوارع المدن وفي ازقة القرى فيري الناس ما هم عنه متعامون ويسمعهم ما لا طاقة لاذانهم ان تستوعب ! ..

قلت هذا ونظرت اليه متفحصاً ، فاذا به يقف بخفة الشباب ويتجه نحو الكهف قائلاً :

لقد حان وقت الصلاة ، ولم يبق سوى ساعة للغروب فالاجدر بك ان تعود ، ولا تنسى ان تزورني متى سنحت لك الفرصة ..

فنظرت الى ساعتي فوجدته مصيباً . انه لم يبق سوى ساعة للغروب فكيف عرف ولا ساعة لديه ؟..

وسألته : ألديك ساعة ؟

فابتسم وقال : ان لدي ساعة الافق . تلك الساعة التي تديرنا ! .

– أتعني الشمس ؟

– وهل هناك اثبت منها مقسماً للوقت ؟

– وكيف تعرف اوقاتك من الشمس ؟

– هذا بحث يحتاج الى وقت طويل على كل حال ان ظل الجبل انتشر على باب كهفي . وهذا وقت صلاتي . ليباركك الرب ان كنت مؤمناً . وليلهمك الله ان كنت ملحداً ! ..

قال هذا وذهب ..

حطام امرأة

كان يسير وعيناي عالقتان في اهتزاز جسده . أانسان هذا ، ام روح البسها وهمي هيولى الانسان ؟ . .

وتوارى عني في الكهف . فشعرت بالوحدة القصية التي توشي الوادي بغرابتها . فصرت اسمع في ضرير العين بكاء نفسي . وفي هينمة النسيم زفير فؤادي ، واستولت علي كآبة عميقة حولتني الى شخصية جديدة ، فاحببت النسك . وتمنيت لو استطيع البقاء مع الاب رفائيل ! . .

ثم شعرت برغبة ملحة في ان اتبعه . فدخلت الكهف ، وكم كان استغرابي جديداً عندما رأيت ديراً ، له حجراته وممراتـــه ودهاليزه ، ومنعطفاته ، ولولا الظلام المسيطر على النور في اعماقه ، لظننته بناء جديداً . .

على انه لم يخلُ من النور فهناك ثغرات في جوانبه يدفق منها النور دفق الامل على القلب المشرق على اليأس . بيد أن هذا النور الضئيل ليس كافيا لحرية العين . .

لقد مشيت في هذه الدهاليز كالضائع في مهمه . فاذا بي امام حجرة ينفتح بابها قليلاً ويبدو من خلال الفتحة حطام تمثال من الحجر ففتحت الغرفة ودخلت . كانت الحجرة منورة قليـــلا ،

ولكنها لم تحتو على اي شيء من الاثاث . ووقفت امام التمثال المحطم ، فاذا به تمثال امرأة . وهذه قطعة من زند ، واصبع من كف ، وناحية من صدغ . ورسغ من قدم . فما شأن هذا التمثال؟. ولمَ حطم؟.. أيكون تمثال إلاهة من آلهات الاساطير؟ وادرت نظري كاني اطلب جواباً مـــن الزوايا العارية ، واذا بنظري يقع على الآت للنحت . مطرقة من حديد ، وازاميل ومبارد ، ومثاقب ، ومناشير ، وبيكار ، وزاوية ، وكل ما يلزم لهذه المهنة الفنية الجميلة ..

وعدت الى التمثال اسأل واجيب أمام حطامه ، ولم اجد جواباً . ثم خرجت ودخلت حجرة ثانية فثالثة ، وفي الرابعة رأيت كومة من القش ممهدة للنوم . ووسادةٌ من جذوع الاشجار ، وغطاء من الشعر ، أهذا مهد الراهب ؟ واقتربت اتفحص المهد ، فوجدت سبحة مدلاة حيث يضع الراهب رأسه ، على ان السبحة كانت غريبة الشكل ، مدهشة الصنع ! اذ رأيت حباتها الكبيرة الكروية ، مصنوعة من حصى الوادي . اما سلاسلها ، فكانت خيوطاً من الشعر معقدة تعقيداً ، يوهم انها من زرد الحديد ! ..

ومددت يدي الى هذه السبحة الامسها واروز ثقلها ، فشعرت بقشعريرة في يدي كأن سلكاً من الكهرباء صعقني ! لماذا ؟ لم ادر لماذا ، وانما اجفلت عنها متهيباً ، ونبضات قلبي تتسارع كأنني خائف ..

ثم رأيت كتاباً مطروحاً على حافة المهد . كتاباً قديماً ، كل

مظاهره تدعو للبحث فيه . وعلى غير انتباه مني مددت يدي اليه ، وفتحته فاذا به « كرشوني » اي سرياني الحروف ، عربي اللفظ ، وقرأت في الصفحة المنبسطة امام عيني ..

« ولما غلبني العالم تركت العالم ! »

« انا العالم كله في الكائن العجيب الغامض . »

« في الكائن المتلون المتحول ، الضاحك من البكاء ، الباكي من الضحك »

« في هذا الكائن المموه بذوب النفوس . السائر على خفقان القلوب ، الجاثم في منافذ الاحداق ! »

« يا للعالم ! ايها المجرم الذي لا نبض في قلبه . ولا خلجة في نفسه ! »

« ايها الكائن الضعيف المسيطر على قوى البشر ! »

« يا وميض الشكوك ! يا قاتل الامل . يا ذابح الشباب ! » هذا ما قرأت ! .

وفي هذا غرابة اوقفتني مشدوهاً ضائعاً غريباً عن نفسي وعن المكان ؟ فمن هو الكائن العجيب الغامض ؟ من هو السائر على خفقان القلوب ؟ وقبل ان اسمع جواباً في اعماقي ، سمعت حركة ورائي فذعرت ووقفت خائفاً ظاناً ان الراهب فاجأني مستبيحاً قدسياته . على ان خوفي تبدد لما رأيت فاراً كبيراً يثب في الحجرة ، ويتغلغل في كومة القش الممهدة فراشاً الاب وفائيل .. ولما اطمأنت نفسي الى خلوتها ، عدت الى الكتاب لعلي اتعرف الى

« الكائن المتلون المتحول » وقرأت في صفحة اخرى ! ..

« ايه ثعبان فرعون !. »

« ايتها الضالة المضللة »

« ايتها الافعى التي تنفث السم في الخناجر لتضع فيها انشاد الخطيئة »

« ان نشيداً لهاته السم ، لوباء يعذب الاحياء باللذة ، ويطيل الحياة بالالم ، ويوزع الامل للبكاء ! »

« ايه ثعبان فرعون ! من علمك قيادة القلوب ؟ ومن وضع في ثغرك شماً لاصطياد المتكبرين ؟ . ومن اطبق كفك على صولجان العالم ؟ »

« تكلمي ! انني افهم لغة الصمت .ولو كنت إلهاً ، لابيت ان اضع فيك روحاً ..تكلمي ! ما بالك تسخرين بي بدون قهقهة ؟ . »

« إذن ظلي هكذا : ساكتة كالمذلة . باردة كالعدم ، منتصبة كالتجربة »

« عبثاً تحاولين اغرائي ! »

« ان حرارة الحياة لن تتصل بك ، لان لا طريق للفراغ في احشائك »

« ستظلين هكذا الى الابد ! لانني لست إلهاً لأوقد فيك الشوق المحرق ، والهوى المذيب »

« تكلمي يا وحي وحدتي ! ان في سكوتك ضجة تملأ حياتي حيرة وتيهاً . »

« تكلمي ! تكلمي ! والا متى كان الرجل متكلماً والمرأة مصغية اليه ؟ أوهبتني الثرثرة لتصمتي ؟ .

« ظلي ساكتة لئلا العنك ! واطردك باسم يسوع ربي ! »

« إني ارى افترارة بعيدة تكاد تشرق بين شفتيك، أو اهم انا ؟! أيكون الفن إلهاً ينطق الحجارة ؟ ! »

« انا لم اجبلك من تراب ، وانما قددتك من صخر ليكون جسدك وقلبك متساويين !.. »

إنتهت الصفحة ، ولكن قلبي ظل عالقاً بنجواها . وكدت أقرأ صفحة ثانية ، فثالثة حتى النهائية ، لو لم اخشَ ان يدركني الراهب وانا مكب على كتابه، عابثاً بقدسياته. فاطبقت الكتاب وقرأت على صفحته الاولى :

اعترافي

« بقلم الفقير الى رحمة ربه الاب طوبيا »

وسألت نفسي ، الاب طوبيا ؟ فما شأن المرأة في كتابه ؟ على انني استدللت من النجوى ان المرأة التي ينادي هذا الاب ، انما هي تمثال . فهل يكون هذا التمثال ذلك الذي وجدته محطماً في الحجرة الاولى ؟ ..

وهب ان النجوى لذلك التمثال ، فما شأن المرأة في كتاب ناسك قديس؟ أتجربة هذه مسجلة على ابناء الكهوف ؟ لقد شعرت بموقف جديد تجاه هذا الكتاب ، انني جئت لاتحدث الى الاب رفائيل فاذا بي امام الاب طوبيا ، فمن هو الاب طوبيا؟ أيكون الاسمان ، لشخص واحد ؟

وخرجت من الحجرة وقلبي يخفق خفقان الشوق الى هــذا

الكتاب . فكيف استطيع ان اقرأه ؟ أأطلبه من الاب رفائيل عند عودته ؟ وماذا يكون موقفي لديه عندما يسألني عن معرفتي بالكتاب ؟.. أأسرقه واذهب به حتى اذا ما انتهيت منه اعيده؟ ولكن كيف اعيده واخسر ثقة هذا الراهب المرتاب فيّ ؟ الم يقل لي : انك تتكلم مؤمناً ، وتنظر مختبراً ؟ ثم اليست السرقة بمعناها البعيد تحويل صوت الضمير الى هاوية المطامع ؟ ..

وعلى غير انتباه مني ، رأيت نفسي هائماً في اعماق الكهف مستعيناً بذلك النور الضئيل المنبعث من الثغرات الخارجية ، وفي منتهى هذه الاعماق المظلمة ، العابقة بعفونة الارض ، ووراء منعطف لا يصل اليه نور ، وفي دهليز ينحدر عن مستوى الكهف بعدة دركات ، رأيت الراهب راكعاً مصلياً ، ورأسه على صدره دون حراك . وامامه مذبح مبني بالصخور الطبيعية ، وعلى المذبح صليب من عيدان الحقل ، رُبط عوداً فوق عود ورُكز بين حجرين من حجارة الوادي ، وقد انيرت عدة سرج على المذبح ، امام الصليب فانتشرت اشعة السرج تحاول اختراق الظلام ، ووقف الظلام غشاء كثيفاً لا يُدرك ولا ينقشع ، ..

امام هذا المشهد الروحي ، وقفت صامتاً خاشعاً

كان الراهب جامداً كالصنم ، مستسلماً كالميت ، محنواً كالشمعة امام اللهيب ! .

ووقفت ارقبه . مصغياً ، وارقبه خاشعاً . وارقبه منسحق القلب ذائب الروح .. بل وقفت وراء جدار مظلم ألا يراني .

وبعد بضع دقائق تحرك كميت عادت اليه الحياة ، ثم وقف ببطء وانحنى على حافة المذبح فقبلها ، ثم فتح كتاباً سريانياً وانشد موشحاً للقديس يعقوب :

« لا تنظر الى العلاء لئلا تكون وقحاً ! »

« أطرق باكياً ليرتفع نشيج الكآبة في صوتك »

« غطِ وجهك خجلا واكتف يديك ذليلا ، ليكون صمت الالم في صراخك »

« صلِ ! ولكن لا ترفع صوتك عندما تطلب ، لان مذلة الخاطيء تخفت صوت الاستغفار »

« الانسحاق صدى البكاء العميق . ونغمة الالم التي تستميل المراحم الى الرضوان »

وبعد ان اتم نشيده ، انحنى واتجه مطرقا نحوي امـا انا فقد اسرعت جداً ألا يراني . وجلست خـارجاً قرب باب الكهف . ولما خرج ورآني ، تبسم وقال : أباق هنا حتى الآن ؟ .

قلت : نعم ..

– ان الشمس أوشكت ان تتوارى وراء دورة الارض فلِم لا تذهب قبل ان يدركك الظلام ؟

– ان من يستنير بشمس الايمان لا يخشى ظلام الليل ! ..

– وبعد ذلك ماذا تريد ؟

– اريد حكمة انقلها من هذا الوادي فاوشي بها السهل . اريد ان تفهمني ما الغاية من النسك ؟ ما جوهر قتل النفس ؟ ما الفائدة

من ان يلجم الانسان في صدره كل ميل ، وكل عطف ، وكل شعور . ليستحيل هيكلاً عظمياً ؟ فان كانت السماء لا تعطى إلا لاهل المغاور والكهوف ، فما فضل الوالدين اذن ؟ وان كان قتل الغرائز الطبيعية فضيلة فلِمَ وجدت هذه الغرائز ؟ أنا اؤمن بانك قديس ، ولكني لا اؤمن بانك وضعت في كفة ميزان الحياة قيراطاً واحـــداً لأفادة المجتمع ، والانسان لم يوجد لنفسه فقط . وانما وجد ليكون عضواً في الانسانية . ليكون آلة مُحرِكة ، او مُحرَّكة . ليكون معطياً وآخذاً . ليكون دافعاً وجاذباً ! . وهـــذا انت ايها القديس لم تشترك في جهاد العالم . فشأنك شأن البخيل الذي يجمع المـال للدفن فمن يستفيد من هذا المـال ؟ . .

فنظر اليّ نظرة نافذة وابتسم، ثم قطب جبينه متبرياً وقال : ماذا تريد ان اقول؟ لقدعلمتني الوحدة ان اقول : لااعرف شيئاً.

ـ ولكنك غاص بالمعرفـة يا ابتِ . إنك كالقمقم الذي يملأ الى فوق . فاذا ما شئت افراغه ، ظهر لك السائل جماداً . .

ـ وماذا تعني بالسائل ؟

ـ المعرفة يا ابتِ المعرفة . هـذه الاشعة التي ترسل دوائرها علماً وعظات . هذا الينبوع الذي يتدفق ارشاداً وهدى ! . .

ـ إني لاخشاك يا هذا ! لقد باحثت كثيرين سواك . وجادلني كثيرون غيرك . ولكني لم أجد احداً جاء ليفجر نفسي ويفرغها ، ويفتح قلبي فيدرك اسراره !

لقد اعتزلت لأبقي ما في صدري لصدري ، فاذا بك تهاجني عنوة كأنك لا تريد ان أظل بعيداً عن الناس فمن تكون ؟ لقد امسيت اخشى ان تكون فكراً متجسداً جاء يجرب نفسي ويبذر في قناعتها بذور العالم الطموح فيميتها ! . .

– ولكني لم اطلب منك سراً حرم على النساك التصريح به . وعهدي بك قديساً . والقديسون لا يضنون بجواهر نفوسهم على المؤمنين !

– أمؤمن انت ؟ وما مقدار ايمانك ؟ أتستطيع ان تنقل هذا الجبل ؟ .

قال هذا ومشى بضع خطوات ، فاحتقن وجهه بالدم واستدارت عيناه نحوي باستخفاف ، وباشارة خاصة اومأ اليّ بالانصراف قائلاً :

ان في الاديرة رهباناً كثيرين ، وكلهم متفرغ للبحث متأهب للجدال ، مستعد لاعطاء المعرفة . . .

ان رهبان الاديرة غير رهبان الصوامع . ان في مكاتبهم ادراجاً للفلسفة ، وكتباً للجدل . فاذهب اليهم تجد ما تود . قال هذا ، واتجه نحو الخيمة .

●

كانت الشمس وشيكة الغروب . وكانت اشعتها الصفراء مشرقة على قمة الجبل فقط ، اما الوادي فقد بدت الافياء تسيطر على اعماقه ، اذ نضب ذلك السيال الذي كان يتدفق بين الفجوتين ،

وتوارت تلك الاسلاك التي كانت تنساب من خلال الاغصان وترسم لكل شيء ظلاً على الارض . وهكذا امسى كل مـــا في الوادي دون ظل ! ..

اما الراهب ، فكان الوحيد الذي يرتسم لجسده ظل ، لانني كنت اتبعه كظله ، وكان يسير امامي كهادٍ في مهمه ...

ولما دخل الخيمة ، دخلت وراءه . فالتفت إليّ مستفهماً ولما حدقت في عينيه ، رأيت اشعة جديدة تتألق في نظراته ، فظننت ان سيال النور عاد يوشي الوادي وخيل إليّ، أن لكل شيء ظلاً . .

قال : اخرج ! ان وحدتي تأباك ! .

فحنوت رأسي متهيباً وسألته : أغاضب أنت ؟ ..

فقال : انما الغضب من صفات المقيدين بالمال ! الغضب صوت الطمع الضاري الذي لا يشبع . فأي شأن للغضب في حيـاتي انا الذي ترك العالم ؟ ..

ـ وهب اني سألتك أمراً او اعترفت لديك بـــذنب ، الا تغضب ؟

ـ اود ان تتركني

ـ ولكني بحاجة اليك .

ـ ما حاجتك ؟

ـ كتاب !

ـ كتاب ؟ !..

ـ نعم ان لديك كتاباً ذا شأن . كتاباً وضع لنثر الحقائق

في حقول الاوهام . انه مذكرات رجل ضاع في مجاهل نفسه ، ليصل الى معالمها . ولما أطل على هذه المعالم ، وقف لاهثاً يلتفت الى ورائه ليقيس المسافات التي قطعها ، وينظر الى قدميه وقد ادماهما الطريق ..

قال : من وشى اليك بهذه الاراجيف ؟ من اقلق نفسك بالكذب عن الاخرين ؟

قلت : لا خفي إلا سيظهر ، ولا مكتوم إلا سيعلن فيعلم . أتشك في القائل هذا ؟ أتشك في الذي وقف جيلا على الجبل وعلم الناس مشيئة السماء ؟ فالكتاب الذي لديك يحتوي على الكثير من مشيئة السماء ، لانه حرب بين الجسد والروح . وصراع بين العالم والانسان !

قال : وما دمت تعرف ما في الكتاب ، فاية حاجة لك اليه ؟

فقلت : الحاجة جسر تعبر عليه المعرفة . والمعرفة شمس لا تحجب بسحابة عابرة . وكتابك معرفة يا ابتِ . لانه قصة كل رجل يريد معرفة نفسه .

قال : ان كتابي خاص بصاحبه ، وصاحب كتابي مات ولا وارث له، فهل يجوز ان اطرح الكتاب في اسواق طلاب الورائة؟

فقلت : كلنا وارث وكلنا موروث ، وما ترك شيء إلا كان ملكاً لمالك .

قال : اذن فالكتاب ملكي انا .

قلت : وانت ملك الانسانية . والانسانية تطالبك بنفسك لتكون منارة لكل نفس

قال : هب أني اعطيتك هذا الكتاب ، أتعيده إليّ سليماً من حقدك وصفحك ؟

قلت : ان كتابك لا يترك سبيلاً للحقد، ولا يفتح باباً للصفح، لانه قصة وليس سفراً ، ولانه صورة نفس وليس تاريخ زمن .

قال : عد إليّ اذن بعد شهر ريثما انسخه لئلا يفنى في تداول قارئيه ..

قلت : رضيت بالوعد والموعد يا أبت . حفظ الله حياتك من الفناء .

•

وقد عدت بعد شهر ولكني حسبت الايام الثلاثين الوفاً من المرات قبل ان تمر . ولما أقبلت عليه ، رأيته ينثر الحب لحمامة بيضاء ، ويرقب حركاتها كيف تنقد الحبة بعد الحبة . ولما وصلت اليه حدق إليّ بنظرة نفذت الى اعماقي ، فاذا هذه الاعماق تنفتح للناسك القديس على اطلاقها لئلا يضل في متاهاتها وتقف الريبة حاجزاً بيني وبينه ..

ولما استعاد نظرته النفاذة ، قال : أجئت لتأخذ الكتاب ؟

قلت : نعم . قال : اذن لا تقتله اذا لم تره فضيلتك . ولا تزدريه اذا لم تجده من ذات نفسك .

قال هذا ، وتوارى في الكهف ثم عاد اليّ يحمل الكتاب نفسه قائلا : لم انسخه ، وانما تركته كما كتب لتظل كلماته تضج بشعور كاتبه . فكن انساناً ، واعده اليّ بعد شهر ، واياك والكذب ..

الكتاب

لم اجد كالزمن كاهنا ! ولم ارَ كالطبيعة منبراً للاعتراف ! ولم اثق بسوى الوحدة تقرع بوابة الضمير لتنفتح عن الاسرار !..
اني لاجثو واعترف . اللهم ضمد جراح نفسي !..

ليس من المستحسن ان اقول انا خاطيء ، فرأيت ان اقول هو ! . وهل انا وهو ، غير الراهب الذي يريد ان يكون راهباً حقاً ؟

ان في الراهب شخصيتين ! الانسان بما فيه من ميول واهواء، والراهب بما يختار من زهد وتقشف. الاول بلألأ الدنيا ، والثاني باستمداد التقوى . وها هو يجرد نفسه لتظل له شخصية واحدة ، فاية الشخصيتين تكون قسمته ؟ هو يريد ان يكون راهباً حقاً . والراهب الحق يميت انسانه في جسده لتندمل جراحات نفسه ..

أيها الاله إغفر خطاياه !! ..

نعم يا بني . إني أريدك كاهناً ! أريد ان ارفعك عن مستوى البشر لتحمل الى العالم نور السماء . أريد ان تقفل نوافذ نفسك لئلا تجتاحها عواصف الاهواء ، اريدك كاهناً ! .. هكذا اراد منه ابوه فنزل على مشيئة ابيه ، ودخل المدرسة « الاكليريكية » الكبرى ! ليتلقن العلوم العالية لغة وفلسفة ولاهوتاً ..

وكان طوبيا شاباً ذكياً نبيهاً ، ينم بريق عينيه الصافي على نجابة ونضج واتزان. وكان قدوة لاقرانه في كل شيء ان طاعة وتهذيباً ، وان نجاحاً واطراداً في النجاح ..

وكان ميالاً الى الفنون بكل ما يؤهله ذكاؤه واستعداده ، فمن رسم . ومن نحت . ومن موسيقى .

ومضى عليه خمس سنوات في المدرسة الاكليريكية كان في خلالها يسير صعداً نحو النبوغ . وقبل ان تبدأ السادسة ، دهمت اباه صدمة تجارية شديدة ، فقضت على ثروته باجمعها فزعزعت مركزه الاجتماعي الدعيم . فاسف الاصدقاء على بيت قيصر الحلبي ينهار الى الحضيض بعد ان كان رفيعاً قائماً على الاستقامة والضمير الحي ! وقيصر الحلبي نفسه ، هو الذي شاء ان يكون ولده كاهناً . أما اليوم ؟ اما وقد صار الى الافلاس وهبطت منزلته الى الدرك السحيق ، فلن يرضى بان يكون ولده كاهناً ..

ودعا ولده طوبيا ، ولما وقف لديه اغرورقت عينا الوالد بالدموع وقال :

كانت ارادتي امس غير ارادتي اليوم يا ولدي ..

فقال طوبيا : اني اليك كيف اردت ومهما شئت ...

– لن ارضى بعد اليوم ان تصير كاهناً ! .

– لماذا يا ابي .

– لاني اصبحت فقيراً .

– وما شأن الغنى بقضيتي ؟ .

– على الكاهن ان يكون بغنى عن الناس لينال احترام الناس ...

– ولكن الكهنوت دعوة يا ابي وانا مدعو كما تعلم .

– دعوة لمن يلبي .

– أتريد ان اسد اذني عن صوت الله ؟ ..

– بل افتحها جيداً لتجيب انك فقير !!...

– وهذه العلوم التي جمعتها ؟ .

– انها رأسمالك الوحيد بعد افلاس ابيك ...

وسكت الاثنان هنيهة . كأن ذكر الافلاس ضغطهما بشدة فلم يستطيعا كلاماً ..

ونظر طوبيا الى ابيه فرأى الكارثة حطمت قواه واذبلت ما بقي في وجهه من نضارة الحياة ، فشاء ان يعود الى الحديث ليمنع اباه من التفكير في نكبته . فقال :

وماذا تريد ان اكون يا ابي ؟

فرفع الاب رأسه وقال متلجلجاً : الى مَ تميل ؟

– الى الكهنوت .

– انا اريد مهنة لا درجة .

– اذن سافكر يا ابي سافكر . قال هـــذا وقبل يد ابيه مودعاً وخرج ...

عاد طوبيا الى المدرسة حزيناً مهدداً باليأس ، وعبثاً حاول تهدئة خفقان قلبه الملح ، ووقف في الطريق يحدق الى هنا وهناك . ويرقب المارة والعمال . وكان مشتت الفكر مضطرب الجوارح ، ولكنه عصي الانهيار . وسأل نفسه :

ما الغنى وما الفقر ؟ ..

ما شأن المال في مصير النفس ؟

من وضع في الدرهم قوة القوى ؟

اي شأن للغني في طريق الكاهن ؟

أليس الكهنوت تجرداً من حطام الارض ؟

إلهي ! ان كنت تراني صالحاً للكهنوت فلا تحجب عني دعوتك . والا فالهمني كيف اجيب ابي ! .

ولما وصل الى المدرسة قابله التلاميذ هازجين فرحين وقالوا : اتعلم ان محاضرة فنية ستلقى علينا هذا المساء ؟ اما طوبيا فلم يجب بل ظل سائراً محنواً كأنه يشيع نعش اماله ..

وما كاد يتخطى الردهة الرئيسية في المدرسة حتى قابله الرئيس مرحباً . وربت كتفه قائلاً : أتعلم ماذا ترى هذا المساء ؟ فقال : أرى ام اسمع ؟

– ترى وتسمع . ترى تمثالا للنحات الايطالي جوزيف بابيتو وتسمع كلمة عن الفن ..

ونزلت كلمة الفن على تفكيره نزول حصاة تلقى في بحيرة صافية ، فتولد الدوائر المتتابعة ، مراراً وتكراراً . فشكر بانحناء رأسه ، وقبع في غرفته مفكراً ..

الفن ؟ ! ما هو الفن ؟ اني اميل اليه واحبه ، انه كالكهنوت. الكاهن والفنان صنوان . كلاهما يجعل اللاشيء شيئاً .. ان في الفنان من الالوهة اكثر مما في سائر البشر . انه يعيش كانسان . ولكنه ينتج كاله . الفنان خالد ومخلد . انه اقوى من الفناء، لان اثاره لن تموت ! ..

●

في المساء كانت القاعة الكبرى مكتظة بالطلاب وعلى مرتفع من الحشد ستار مسدول وامام الستار كرسي وطاولة..

وكانت الانوار تتألق في ارجاء القاعة كشمس الظهيرة . رفع الستار فاذا هناك تمثال من الرخام يمثل مقتل هابيل ! .

قايين يرفع هراوة غاضباً ، وهابيل يتقي الضربة بيديه وبروز عينيه يعلن خوفه وجزعه ، والنحات الايطالي واقف امام تمثاله متأهباً للكلام . وما ان بدا النحات حتى دوت القاعة بالتصفيق وارتفعت الاصوات تهتف بتقدير العبقرية ! ..

ولما تلاشت الضجة تكلم النحات فقال :

هذان اول قاتل ومقتول . قايين الذي اكتشف الموت وهابيل الذي ترك الحياة بكراً .

اولى المعارك في فجر الحياة ! فمن علم قايين ان ينتضي هذه العصا العجراء فيقتل اخاه ؟

ومن اخبر هابيل ان الضرب يؤلم فيميت ؟ انها لاحاسيس توجد مع الوجود فتوافق الاحياء من انسان وحيوان . وتستولي على النفس الجاهلة . وعلى القلب الغبي . وعلى الفكر الجاف . فيولد الظلم !..

هذا ما بدا لي وانا اخلق هذين الرجلين . بل هذا ما رأيت امام اول صراع ، ولدى اول حسد ، وتجاه اول غضبة !. فشئت ان اسجل على الله ضرر مخلوقاته الناطقة. لاقابلها بمخلوقاتي الصماء!..

لقد خلق الله الفنان مثلما خلق الابله . وخلق الابله مثلما خلق المجرم . وخلق المجرم مثلما خلق القديس. ان الله ابتدع الانسان. ولم يزد فيما بعد ولم ينقص . بيد ان الاحاسيس التي توجد مع الوجود، هي التي تكيف كل امرئ بكيفيتها مع البيئة واطرادها في رحاب الحياة .

فلو لم يقدم هابيل الذبيحة« ليهوه» ويقبلها يهوه بمرأى اللهيب، لما عرف قايين الحسد . ولما شعر بالغضب . ولما اكتشف الموت بعصاه .. ومات هابيل ! وتبعه قايين ! ولكن هل اصبح العالم بعدهما خلواً من قايين وهابيل ؟.

ان في كل منعطف قاتلا ومقتولاً . بل في كل بيت وزاوية وشارع وفي كل دير وكنيسة وجامع ..

اني أرى الصراحة تؤذي بعضاً منكم ، فلماذا ؟ اما شئتم ان القي عليكم كلمة عن الفن ؟. فهذا هو الفن انظروه ! ألم تروه

تاماً حرياً بالاعجاب ؟ فلِمَ تستعيذون بالله مـــن قايين الله ، وتقفون مشدوهين امام قايين الفنان ؟ أتعلمون لمـــاذا ؟ لان مخلوقات الله ضارة فانية . اما مخلوقات الفنان ، فنافعة وخالدة ..

ضج الطلاب « الاكليريكيون » مستهجنين الكفر في كلام الفنان . وانكروا عليه ان يفضل هذه الصخور الصماء ، على هذه الارواح الشاعرة الحساسة ، المباركة المقدسة .

ووقف الرئيس الروحي راجياً من الايطالي ان يسكت ، فسكت ...

وتكلم الرئيس فقال : يا اولادي !. ان فلسفة الفن غير فلسفة الدين . وحياة الفنان غير حياة الكاهن . فلا تجعلوا مثل هـذه السفسطات تؤثر بعقولـكم وقلوبكم فتعبدوا المنحوتات التي نهى عنها رسول المسيح ... انكم متأهبون لتكونوا كهنة تكرزون باسم الله . والكهنوت دعوة عليا لمن يلبي الدعوة كما قلت لكم مراراً . فلا تؤخذوا بالوشي والتزويق . بل فاعلموا ان يد الله فوق كل يد وما الانسان . وما الفنان . إلا إماءَة من هـــذه اليد التي تدير الوجود وابناء الوجود ! ..

فصفق الطلاب للرئيس . ونظروا الى الفنان نظرات منحرفة تحمل الاستخفاف والسخرية ، فغضب ورفس تمثاله برجـــله ، وخرج حانقاً ...

وهكذا انتصر فن الكلام على فن العمل ، وراح طوبيا يفكر في كل ما سمع ، وكل ما رأى ...

حيرة

في اليوم التالي، قابل طوبيا اباه وقال له : ان شئت فاني احب ان اصير نحاتاً . على ان الوالد كان مريضاً فلم يجبه بسوى اشارة على القبول ...

وبعد اسبوع توفي قيصر الحلبي ، تاركاً طوبيا وامه ونزراً من المال ، وبيتاً صغيراً .. وعز على طوبيا فراق ابيه فبكاه ولم يرد ان يقبل تعزية من احد !...

الكاهن نفسه

عبثاً حاولت ام طوبيا ان تثني ولدها عن رغبته في علم النحت . وعبثاً برهنت له ان الكهنوت هبة من الله ، لا يستحقها إلا الذين صفت قلوبهم ، واستنارت عقولهم ، ثم قالت : ما نفع الفن في بلاد لا تأبه بسوى المادة ! فكان طوبيا يهدىء روعها . ويعلنها أن اباه هكذا اراد وارادة ابيه فوق كل ارادة في نفسه ...

وبكت ام طوبيا ، اما لماذا فلا احد يدري . فقد تكون تذكرت زوجها ولطفه ومحبته لها ، وتذكرت مركزها الاجتماعي الماضي الزاهر . وقد تكون عجزت عن اقناع ولدها ليكون

كاهناً . فيعيد مركز ابيه ، وتنال احترام الناس مثلما كانت في عهد الذهب والبحبوحة ... على انها بكت ! وبكاؤهـا كان مبكياً ايضاً . اذ كان بكاءً اليماً عميقاً ، بكاءً خارجاً من فؤادها الدامي ! فان شهقت تمزق الشهقة حنجرتها . وان نشجت يحز النشيج شغاف قلبها . وهكذا وقفت امام ولدها تعصر قلبها وتريق ما بقي فيه من دموع ! ..

اما طوبيا فكان حائراً مشدوهاً ، اذ نسب انفعال امه الى مخالفته اباها . وجثا طوبيا لدى امه . وسألها غفراناً . ورجا منها ان تزوده برضاها ، ليتمم ارادة ابيه الذي اصبح في عالم الارواح . ثم نهض ليذهب !..

وغمغمت الام ضائعة الجواب : ورفعت عينيها الى ولدها . فبدت مسافة الحزن العميقة الغور في حدقتيها ، وتكسرت اهدابها كجناحي طائر قذفته الموجـــة الى اليابسة مائتاً ، وصرخت الكآبـة في دموعها صوتـاً اصم لا يسمعه الا الشعراء ذوو الاحساس المرهف المستيقظ ... فبكى طوبيا ، وكأنه شعر بجثمان ابيه مسجى امامه . وقال : امي ارحمي نفسك ، هدئي انهيار جسدك ! حافظي على توازن الحيـــاة في عقلك الرجيح . ليس الكهنوت دعوتي . لقد كنت غافلاً عما يدعوني . فقد رأيت فيما مضى سراباً اما اليوم فاني ارى معيناً رقراقاً .. انما الكاهن لنفسه فقط يا امي . اما الفنان فللتاريخ تخلود للمثل ...

وتكلمت ام طوبيا . تكلمت بصوت مذبوح كصوت الشاة التي مرت مدية الجزار على عنقها وقالت :

النفس يا طوبيا النفس ! هذه وديعة الله فينا . بل هذه سراج الحياة في اجسادنا . فاذا فقدناها فقدنا كل شيء . فما قيمة الصخر ان يمثل جسداً اذا كان هذا الجسد خالياً من النفس . وما قيمة الالوان تمثل تاريخاً اذا كان هذا التاريخ فارغاً من اعمال النفس ! تقول ان الكاهن لنفسه فقط ، وهذا الذي اطلب . ان من يحافظ على نفسه وينتشلها من ورطات العالم ، انما يملك كل ما حوت الحياة من فنون ومهن . فانا اريدك كاهناً . اريدك كاهناً ! اريدك كاهناً ! ..

ـ ساكون كاهناً يا امي ، ولكن بقلبي لا بثوبي ! بسيري . لا بظواهري . ساحرص على نفسي . سانحد واياها في كل عمل شريف . ساخصص ازميلي وبركاري ومتقي لارادة الله . ساكرز بالمسيح بتهاويل تماثيلي ، لا بلاهوتي وتعاليمي . ساكون كاهناً يا امي ساكون . ولكن كاهن الفن ! .. ثم جثا ثانياً واثم يد امه وقال : الى المساء ...

حديث الفن

دخل طوبيا محترف النحات جوزيف بابيتو ، فدهش وتهيب . لقد رأى في ذلك المكان عالماً صامتاً ، ولكنه ناطق بلغة الاجيال مفصح بما في ضمير الخلود ، مشير الى الالوهة التي تمتزج بهيولى الانسان !..

وكان النحات ابان عمله . فاستقبله مرحباً ، وغبار الصخور يوشي وجهه ويديه ، ورداءه التبني اللون ، الذي كان يلبسه في ساعات العمل ..

ومد طوبيا يده مسلماً . وحنا رأسه امام الفن ومحدث الفن . فتقبل الفنان هذه الانحناءة بشيء من الاحترام واشار بيده الى كرسي طويل ان اجلس ... ولكن طوبيا ظل واقفاً . يحدق الى تمثال شيخ هرم يدير بيديه المعرقتين ساعة رملية ، ويضحك هازئاً من ذريرات الرمال المتقلبة من فوق الى تحت . ثم من تحت الى فوق .. ونظر النحات الى طوبيا وقال : هذا تمثال الزمن !

ثم أشار بازميله الى السخرية البارزة في فم التمثال وراح يتحدث :

عبثاً ينقم الانسان على الزمن ! فالزمن ساخر ابداً بمصير الانسان ، لانه مصير لا ارادة فيه ولا قدر . فالانسان ذريرة من رمال الساعة الابدية التي تصب رمالها اخذاً ورداً ، فلا يمكن

ذريرة ان تستقر في مكان واحد ، ما دام سيال الانهيار متواتراً في يد الزمن ...

فقال طوبيا والاعجاب يستضيء في عينيه : سيدي ! كم هو رائع الفن الذي يقضي على الفلسفة بدون كلام . وكم هو عظيم ذلك الانسان الذي يحذو حذو الاله فيبدع ويخلق ..

فتضاحك الفنان وقال : ليس الفنان شيئاً اذا خلت اذواق الناس من التقدير . فعظمة الفن قائمة على العين والاذن اللتين تعرفان الجمال وتحسه !..

– ولكن الفنان يا سيدي يهذب العين والاذن بوضعه جمالاً محسوساً !.

أفنان أنت ؟

– لا ولكني جئت اليك لاصير ..

– انما الصيرورة في نفسك اولا . فهل سألت هذه النفس استعداداً للمصير ؟

– لم اسأل نفسي يا سيدي ، ولكنني سمعت نداءها .

– سمعت نداء نفسك ؟ ! انك شاعر اذن ...

– اليس الشعر خالداً كالفن ؟

– بل الشعر صدى الخلود . ومخلد الاصداء ...

– انك لفنان حتى في تعبيرك يا سيدي . فهلا ترضى بي تلميذاً يقدس يديه بغبار الصخور وتراب الارض؟

– عليك ان تتردد الى هذا المحترف اولا لتروض يديك على

العمل . وتمرن عينيك على النسبة . وتطلق خيالك في سبيل الابداع ...

ـ اشكرك يا سيدي !

ـ على مَ ؟ دع هذيان المجتمع للذين تعودوا العيش من حطام التقاليد ، وكن بكراً حتى في كلامك . فما الشكر ؟ انها كلمة اوجدها قاصرو التعبير ليسدوا عجز نطقهم . فعلى مَ تشكرني ؟ ألاني رضيت ان اهبك مما وهبت ؟ ام لاني فتحت لك باب محترفي لتكون رفيقي في الابداع ؟ على الانسان يا اخي ان يكون مستعداً للعطاء بقدر ما يرى في نفسه استعداداً للاخذ . ألم تقرأ حياة الفنانين القدماء ؟ . فاولئك الذين بنوا صروح الفن بتفوقهم لم يقبلوا شكراً ولا مديحاً . وانما مطلبهم كان واحداً فقط . عيناً ترى فتحس . واذناً تصغي وتشعر .. ومع ذلك فقد اخذوا اكثر مما اعطوا ..

فماذا تعرف عن ميكال انجلو وعن موساه الذي كاد يتكلم لو لم تحطم المطرقة ذراعه ؟ ، وماذا تعرف عن دافنشي وعن «جوكانواه» الحالمة البسمة . الطافية العينين في حوض من العفاف ؟ ورفائيل ؟ اتعرف شيئاً عن ذاك الفتى الذي اشغل سنيه التي لم يبلغها ؟ أرأيت عذراءه المصغية الى يسوع الطفل يهمس في اذن يوحنا الفتى !

ان هؤلاء الثلاثة رفعوا مجد روما الى الذروة التي يلثمها السحاب نقياً . بل وضعوا في حناجر الامم تهاليل الاعجاب ، وفي صفحات التواريخ شهادة الاجيال ! ...

فقال طوبيا: لم يتيسر لي ان اتعمق نظرياً في الفن وانا صنعت بعض التماثيل من الطين . ورسمت عدة صور « بالتباشير » الملونة..

– اين درست ؟

– في مدرسة اكليريكية !

– تأهباً للكهنوت ، البس كذلك ؟ لا بأس ان الكاهن له مكانته في المجتمع وله اثره في العالم . ولكن الم تلاحظ انّ الازياء السوداء تقتل المواهب غالباً ؟ ..

– لست مختبراً بهذا المقدار . على اني ارى بعض الصواب في استقرائك ..

– الصواب كله يا عزيزي. لانني كنت مثلك معداً للكهنوت ولكنني عدلت اخيراً اذ رأيت نفسي اميل الى العمل مني الى الارشاد، واقدر على الابداع مني في الوعظ عن الواعظ الاكبر!..

وفكر طوبيا ، مثلي ؟!.

وشعر بالغبطة . بل شعر بعذوبة اضفت عليه شيئاً من الفخر . أيشبه هذا الفنان الكبير نفسه بنفسه ؟ .. وتورد خدا طوبيا ، وبرقت عيناه بدمعة فرح خفية . ثم احس انكماشاً في صدغيه . فالقى بنفسه على الكرسي . بينما كان ازميل الفنان يعمل عمله ، والمطرقة تنهال عليه بوقع موزون ...

وراح يحدق الى رشاقة الايطالي وحذقه. انه يتلاعب بالصخر، كأنه يتلاعب بقطعة شمع لينة . واذا بذراع تتهيأ للوضوح . واذا بالكوع الناتيء يختلج كلما وضح كانه يحس وقع الضربات ، فيستغيث ! ..

وابتعد الفنان قليلاً عن تمثاله. وحدق طويلا . وزوّى ما بين عينيه ، مؤكداً صدق عمله . ثم اقترب الى حيث كان ، واخذ قلماً فحمياً ورسم خطوطاً على الصخر . فبدا الزند تاماً من الكوع حتى الكف ...

وغمغم الفنان ، فظن طوبيا انه يكلمه . فقال: ماذا يريد سيدي ؟

ـ لا شيء، ولكني بحاجة الى « مثال » اذ لا غنى للفنان عن حقيقة يسترشد بها :

فقال طوبيا : مثال حي طبعاً ..

ـ ومتى كان الميت يؤخذ مثالاً ؟ ان لدي عدة اشخاص يقفون امامي كلما احتجت اليهم . رجال ونساء واولاد ...

ـ لقاء اجور ؟ .

ـ اجور باهظة جداً ، ثلاثة « مجيديات » عن كل اسبوع

ـ ثلاثة مجيديات ! فكم يقتضي للتمثال من الاسابيع ومن المجيديات اذن ؟ ان مثل هذه الاجور ليست مشروعة فاللاهوت ينص جلياً عن الاجور ويفرض كل المواقف ولكني لم اذكر اني وقعت على مثل هذا ...

ـ اللاهوت في الكنيسة والكنيسة غير المحترف ..

ـ ولكن المثال من ابناء الكنيسة ، اما ذاك ؟ ..

ـ الفن لا يتقيد بقانون ، ياطوبيا ـ اسمح لي ان ازيل التكلف من الكلام ـ

المرأة

قرع الباب فذهب الفنان ليفتح . واذا بامرأة تدخل . امرأة ولكنها ليست ككل النساء . ان جمالها منحوت نحتاً . بشرة كضوء القمر ووجه تحيط اعلاه هالة من الشعر الفاحم ، وحدقتان تسبحان في مقلتين اصفى من غنجة الام لوحيدها . اما فمها ، فكأنه برعم الورد انشق في هدئة الفجر . وبدا في تبلج الصباح ..

فظن طوبيا انها « مثال » جاءت تقف امامه . وما كادت تقترب منه حتى وقف قسراً . فقدمها النحات قائلاً زوجتي . فحنت رأسها . وحنا طوبيا رأسه وقال : طوبيا الحلبي ..

وتابع النحات : تلميذ جديد هرب من سجن الجسد ليلبي نداء الروح ..

فتبسمت المرأة بهدوء ، وقالت : الجسد والروح نداء واحد في سجن واحد . فالشعر والفلسفة يفصلانها ، اما الفن فيوحدهما..

فقال الزوج : ان تحديدك يا نجلاء ما برح يحتاج الى كد ذهن واعمال قريحة ليكون صريحاً ..

— ألست زوجة فنان ؟ فانا غامضة كزوجي !

قالت هذا وناولت زوجها جريدة وقالت : اقرأ...

— ماذا ؟

وكانت الجريدة ما يعرف بالنشرة الرسمية التي كانت تصدر

في عهد رستم باشا متصرف لبنان سنة ١٨٧٥ . متوجة بالدعاء للصدر الاعظم ، ومكتوبة باللغتين التركية والعربية . وكرر الزوج ماذا ؟ اني لم ارَ شيئاً يستحق اهتمامك . فماذا يهمني من تعديل ضريبة « الويركو » وماذا استفيد اذا كان السلطان سك دنانير ذهبية .

ومدت الزوجة اصبعها بحركة لطيفة . وقالت هنـا ! . وقرأت عالياً .

الفردوس

انتهت الحكومة من غرس الحديقة العامة وقد اطلقت عليها اسم « الفردوس » وستعهد الى الفنان الايطالي الشهير « جوزيف بابيتو » بان ينحت لها تمثالين يمثلان آدم وحواء قبل الخطيئة ، ليوضعا في باحة الحديقة امام الفسقية الرخامية الجميلة . وسيكون الفنان مخيراً بموقف الابوين البدئيين ، على ان يكونا تامين خلال عام واحد ..

وقهقه الفنان قهقهة طويلة اجشة . ورمى بالمطرقة بنزق ، وتكلم باستخفاف : ما برح رستم باشا يحن الى وطنه الاول فيتظاهر بحب الايطاليين . وها هو يفضلني على ما في اوربا من النحاتين ...

فقال طوبيا : المتصرف ايطالي ؟

ــ اصلاً لا وطناً . على انه لم يرم من وراء هذا الفردوس إلا الى ملء صندوقه بالطغراوات الذهبية الرنانة . ولكني ساعرف

كيف اخسف روغانه التركي . وتلاعبه بعقلاء بيروت وها انا اروي لكما ما سيحدث غداً . .

فقالت الزوجة : فنان ونبي ايضاً ؟ .

فاجاب : ومتى كانت النبوة غير اتقاد الذهن ، وصفاء الخيال؟ ان الفنانين انبياء دون ان يتكلموا ! . .

فقالت مازحة : نعم النبوة تخرج من غبار الصخور ! . .

فاسكتها بنزق : اسكتي يا نجلاء . انا ما تزوجت بشرقية مثلك إلا لاكون مرتاحاً من تدخلات الغربيات بشؤون ازواجهن!

– ولكني مازحة يا جوزيف فلا تغضب .

– ان مزاحك فج بالنسبة الى وجود هذا التلميذ الجديد ! ان تربية الاكليريكية لم تضع في نفسه استحساناً لميعان النساء ...

تورد خدا نجلاء ، وانحرفت عن الموقف لتجلس الى المكتب بعيدة عن دائرة العمل . .

فماذا عساه يقصد هذا الرجل الغريب من مزج التربية الاكليريكية بالنساء ؟؟

وبدا لطوبيا انه غيور فحمد الله على انه عرف طواياه في بداية دخوله الى محترفه ، ليستدرك الامر في المستقبل ...

واحب طوبيا ان يبدد ما ادلهم على الموقف من غيوم، فقال: ولكنك لم ترو لنا شيئاً عما سيحدث غداً .

فقال الفنان : لقد انستني نجلاء كل شيء . بل انستني أنني فنان، لي شهرتي حتى في ديوان رستم باشا متصرف البلاد والتفت نحو نجلاء قائلاً :

أليس كذلك يا لبنانيتي الصغيرة ؟ ودنا منها ، وراح يقهقه حتى وصل إليها . فجلس على حافة المكتب محاولاً ترضيتها . اما نجلاء فقد حدجته مستغربة هذه القهقهة وقالت : ما انضج هذه الضحكة الشاذة بالنسبة الى وجود التلميذ الجديد !.

فصاح غاضباً : نحن الايطاليين لسنا على شيء من التهذيب فهلا القيت عليّ درساً يا ابنة الجبل الثقيف !!..

فقالت : الجبل لم يدعُ احداً اليه . فلِمَ جئته ، ما دام لا ثقافة فيه .

– اراك لا ترضين بكلمة الجبل ، فعذراً كنت اود ان اقول لبنان ..

– ما شأن ايطاليا ولبنان في بحثنا ومزاحنا يا جوزيف ؟ يجب ان تعلم ان لبنان ما كان يوماً موضوع سخرية ...

– حتى كلمة لبنان لم ترضِك . فعفواً يا شرقيتي المتحمسة ...

– شرقنا لنا . وما دمنا قانعين به فهو بمثابة غربكم باجمعه . افهمت ؟ اني لاستغرب مناهجكم معشر الغربيين ، فبينا نرى اقصى امانيكم ان تكونوا في الشرق ولا سيما في لبنان ، فاذا بكم تسخرون بنا متوهمين أننا دونكم ثقافة ومدنية وفناً . ولو شئنا البحث معكم ولو قليلاً ، لابنّا لكم انكم اخذتم تراثنا الطبيعي وذررتم عليه شيئاً من كيمياء غربكم ، واعدتموه الينا غريباً عنا .. فهل فاتكم اننا فاهمون ولكننا محكومون ، وقادرون ولكننا مقيدون ؟ .

هل فاتكم اننا نرى ونسمع ، ولكننا لا نجيب ؟ واذا اجبنا ، واذا احتججنا . واذا انزلنا اللعنات ، وصبينا الشتائم فهل يسلم كبارنا وعقلاؤنا من جحيم هـذا الطوفان النفسي الذي يتفجر في صدور الفاهمين فينا والوطنيين منا ؟

– خففي يا نجلاء خففي ! انا لست من الذين يرغبون في نبش التاريخ . فان شئت ان تحاضري عن تاريخك الشرقي ، فحدثيني عن خرائب تدمر وبعلبك وعرفيني باسم الذي نحت عمدها وتيجانها ، بل حدثيني عن الخالق هاتيك الالهة الاسطورية بين تلك الاروقة ، لانحت له تمثالاً ...

– لا حاجة الى المحاضرة ما دمت فاهماً ان لنا آثاراً فنية حيرت عقولكم . واذهلت علومكم . واوقفتكم صغاراً بالنسبة الى العظمة المهيمنة في هذه الآثار !

لقد قلت لي مراراً انك ما استشرقت . ولا طلبت القيام في بلادنا ، الا لانك معجب بسمائنا وجبالنا وآثارنا .

فنظر اليها نظرة تراءى فيها المزاح بالجد وقال :

كل هذا لم يكن شيئاً لدى اعجابي فيك يا مثال الجمال اللبناني ، والوحي الشرقي !..

وعاد يقهقه ! وعاد يمازح ، كأن الغضبة التي بدت منه إمحت ولم يبدِ لها اثر في نفسه ..

أتكون هذه عقول الفنانين ؟ أهذه هي اطوارهم انهم بالحقيقة لغرباء عن البشر ! ..

اما طوبيا فقد كان حديث العهد بالنقاش الذي يدور غالباً بين رجل وامرأة . فالمدرسة الاكليريكية شبيهة بالمناسك لبعدها عن المجتمع الطليق. ومواعظها القائلة ابداً بالحشمة والتقوى . والتحذير من اغراء النساء خير شاهد على تهذيب هذه المدرسة ..

ان رئيس المدرسه كان يشبه طلاب الكهنوت باصحاب النفوس الجميلة . ولما سأله احد الطلاب : وبقية النفوس اليست جميلة ؟

اجاب كل النفوس جميلة اذا لم تشوهها الخطيئة ، فالخطيئة للنفس بمثابة جرح في الوجه؛ وبقدر ما تكثر الجراح ،بقدر ذلك ما يتشوه الوجه . ومن منكم يرى وجهاً مشوهاً ويستلذ التحديق اليه ؟ . وهكذا فان الله لا يحب النفوس المشوهة . فاحرصوا على نفوسكم لتظل جميلة ! .

ان رئيس المدرسة كان ملفاناً قوي الحجة طليق اللسان وثاب الخيال . وكان شاعراً لا يرى صعباً في ان يحول آيات الانجيل ابياتاً شعرية للمثل والتأثر .

قرعت الساعة المعلقة على جدار المحترف اثنتي عشرة قرعة . فقطعت على طوبيا استرساله في هذه الافكار ، وما كانت لتنبهه لو انها قرعت ستاً بدلاً من الاثنتي عشرة. اذ كان الوقت ظهراً..

وسأل الفنان : ما بال الشمس غابت في ساعتك يا سيدي ؟ فضحك الفنان وقال : بل غابت الشمس في ظهيرتكم. ألم تدرِ أنني أسيّر ساعتي على ساعة بلادي ؟

ولكنك في لبنان وفي لبنان تغيب الشمس اليوم تمام الثانية عشرة !.

– ان الشمس لا تأبه بساعات العالم .

– ولكنك مضطر ان تجاري البلاد التي تقيم فيها

– نحن لا نجاري بل ننتخب فلو وجدت ان توقيتكم موافقاً لاتبعته. انتم سائرون على ما تسنه لـكم الارادة العثمانية . والارادة هذه لا شأن لها في اصطلاحاتنا لذلك انا ما جئت الشرق لاكون شرقياً بلغتي وزواجي الا لانتخب الجميل في شرقكم . الثمين في تراثكم . الساحر في جوكم !.

ثم التفت الى زوجته قائلاً : اليس كذلك يا نجلاء ؟ ان محاضرتك أثرت فيّ ، لذلك رأيت ان اثبت قولك امام طوبيا التلميذ النابه !..

وسر طوبيا ان يكون نابهاً في نظر الفنان. ان شهادة العباقرة صوت العبقرية نفسها ..

اما نجلاء فلم تبالِ ، بل اردفت : حان الغدا يا جوزيف على توقيت بلادكم . فهيا بنا .ثم كلمت طوبيا : أتريد حضرة السيد ان يتغدى معنا ؟

فقال الفنان : طبعاً ! إني لا اقبل رفضاً . على طوبيا ان يمتزج بنا فنياً واجتماعياً ، وإلا يظل غريباً عنا . ثم قبض على يده وقاده قائلاً : اني احب ان اكون شرقياً بدعوتي إمشِ !..

اسرار ثريا

بيت الفنان ذو طابقين . المحترف في الطابق الاول . والسكن في الثاني . فالمحترف قاعة كبرى طولها ضعفا عرضها . يدخل اليها النور من نوافذ عالية صغيرة . وتنتشر فيها التماثيل هنا وهناك بدون نظام ، وتجثم فيها الصخور استعداداً للعمل . وفي زاوية من زوايا القاعة ستار جميل ، يتدلى مغضناً تغضيناً فنياً ، يتربع وراء مكتب الفنان وكتبه ، ومعدات تصاميمه التخطيطية . وقد بالغ الفنان باتقان دائرة المكتب . فهناك كرسي وثير جميل الصنع ، ومكتب من خشب الجوز المصقول ، ومحبرة نحاسية تمثل الذئبة الاسطورية التي ارضعت رجلي روما . ووراء المكتب نافذة تتدلى عليها السجف المخملية الخضراء ، ترفع وتسدل تبعاً للحاجة الى النور .

امـا الطابق الثاني ، فذو اربـع غرف وبهو فسيح ، مزين بشجيرات الازاهير الجميلة ، من زنابق وورود وقرنفل وفل ، وبنفسج ، وكل ما يمكن غرسه في احواض خزفية صغيرة .

واما قاعة الاستقبال فانها اشبه بمعرض تحف شرقية من سجاد وزخارف نحاسية وكراسي وطاولات مرصعة باللؤلؤ والخيوط الفضية الدقيقة . وسجف حريرية مموهة بالذهب مزركشة بالرسوم الغربية... وفي زاوية القاعة ينتصب تمثال نصفي لنجلا زوجة الفنان

خشن النحت ، ناعم المعاني ، بعيد الملامح ، قريب الحياة .

هذا معظم مـا شاهد طوبيا فور دخوله ، ان في المحترف او في البيت .

ولما جلس طوبيا الى مائدة الغداء ، لم يستغرب الصبغة الشرقية في غرفة الطعام ، اذ وجدها مجسمة في قاعة الاستقبال .

كانت نجلاء تملأ الصحون بيدها ، وترتب الوان الطعام ترتيباً ذا ذوق ، اما الفنان فكان ساكتاً لا يلتفت الى شيء ، بل كان يلتهم طعامه بشهية تبلغ حد النهم . وكان الاكل شرقياً محضاً . ما عدا بعض افاويه ومقددات محفوظة بالعلب .

وبعد ان قدمت الفاكهة ، جاءت الخادم بالقهوة ، فتلمظ الفنان واخذ فنجانه برغبة وقال :

اذا لم يكن شرقكم محتوياً على سوى القهوة فقط ، لجدير به ان يغرينا نحن الغربيين على القيام به ..

وبعد الغداء ذهبت نجلاء لتنام ، وبقي طوبيا والفنان يتحدثان عن الفن . وراح الفنان يتوغل في عالم الفن ، فعرض الفن ، الفن الاغريقي ومجده ، والفن البيزنطي وغرابته . والفن الروماني وخلوده . والفن الشرقي وقوته . ثم جاء بمجلد ضخم يجمع نماذج للفنون باجمعها ، وانواعها . الخالد منها والمشهور ، والتافه بينها وذي المقام . ثم فتح صفحات تخطيطية وراح يشرح لطوبيا كيف يجب ان يقبض على المطرقة . وعلى الازميل . وكيف يتجه نحو الوجه ، ونحو الصدر ، فالذراع ، فالبطن . فالفخذان فالردف ،

فالظهر فالكتف . ثم شرح له معدل النسبة القياسية في الاجساد الجميلة المتسقة .

ثم راح يشرح شروحاً ضافية عن الاسارير التي من شأنها تحويل معنويات الوجه. من غضب الى حلم . ومن بكاء الى ضحك، ثم ابان له مواضع الشراسة ، ونعومة النقش ، وثقل الظل ، وخفة الروح . الى كل ما في الانسان من عوامل ، وكل ما في العلم من فراسة .

ثم بدأ يشرح اوضاع التكوين ، وجمال الائتلاف . فتحدث عن وضع الشفاه من غليظة ورقيقة . ومستقيمة ومنحرفة ، وتأثير الانف على الفم ، وتأثير الفم على الذقن ، وتأثير العنق على القوام وكان يتدفق بشروحه فصيحاً بليغاً ، بلغة عربية صرف لا اثر فيها للرطانة ، ولا مزلق فيها للعجمة .

وكان غنياً بالكلمات ، سليم الذوق بانتقائها ، فيضع الكلمة موضعها والتشبيه محله ..

وما كاد يسكت ، حتى كان طوبيا مشدوهاً اذ تمناه مدرس لاهوت في مدرسة اكليريكية ، فكان طلاب الكهنوت اوفر حظاً من اولئك الشراح الذين يتعمدون الغموض، فتأتي شروحهم بحاجة الى شروح !...

مضى على طوبيا ثلاث ساعات ظنها ثلاث دقائق . ولما نهض ليودع استاذه ، رأى نفسه يحبه حباً شديداً . ولما مد يده ليصافحه شعر باندفاع لتقبيل هذه اليد ، كأنه انتهى من درس لاهوتي موفق ، لدى كاهن جليل عالم ....

وقبل أن يخرج طوبيا اوقفه الفنان ، واعطاه كتاباً يحتوي على تصاميم وزخارف ، وآلات نحت ، وقال : يمكنك ان تمعن في هذا الكتاب ، وتدرس محتوياته ، فانها تساعدك على العمل...

فاخذ طوبيا الكتاب شاكراً وانصرف ...

صوت الضمير

دخل طوبيا على امه ، فرآها مطرقة ، وامامها صرة ، بدا من تغضينها انها تحتوي على قطع نقدية .. فانحنى على يد هذه التقية واخذ يدها وقبلها ، فعانقته وعيناها تذرفان الدمع السخين ..

وسأل طوبيا امه ، مشيراً الى الصرة ..

ما هذه يا امي ؟ ..

فتنهدت الام وقالت : لم يخل العالم من ذوي الضمائر يا طوبيا. ولم تخل الضمائر من الامانة التي تجوهر الروح وتمنح القلب اتزان الهناء والسعادة !. فبعد ان تركتني ، دخل عليّ رجل فلاح ، وعزاني وحاول ان يقبل يدي فمانعت ورأيت دموعه الصادقة ناطقة بصفاء سريرته ، وكان يشهق كأن اباك اخوه ، واستفزني شهيقه للبكاء فبكيت . وكانت مناحة ..

لم ادرِ كم ظللنا هكذا يا طوبيا. ولكنني شعرت بانني افرغت قلبي من الدموع المحتقنة في سويدائه . الدموع الجامدة العصية الانهيار . هذه الدموع التي تريني حياتي لا شيء ، بعد ابيك !..

ولما سكت الرجل يا طوبيا . ونشف دموعه ، برقت عيناه بريقاً لم أره قط إلا في عيون الاطفال ، على ان اهدابه ما برحت متهدلة تحت وقر الحزن البليغ الذي رأيته في انفراج شفتيه ..

وراح يتكلم يا ولدي . وراح يعلن ما في قلبه بجزءة عميقة لم ترض بسوى قلبي يردد صداها . فقال :

سيدتي!. وعظام سيدي المرحوم قيصر انني تمنيت ان اموت، انا ، ويظل سيدي حياً .. فما نفع رجل مثلي تجاه مركز سيدي واستقامته ، وشرف اسمه ؟ . فمن يسعف المحتاج ؟ ومن يحسن الى الفقير ؟ ومن يدين الفلاح ؟ لقد عرفت ان سيدي قيصر مات يأساً على ماله الذي ذهب هدراً في سبيل الانسانية . والانسانية ظالمة يا سيدتي . وظلمها يبدو في المواقف الهامة مثل موقف زوجك ..

لقد سرت إشاعة ان سيدي أفلس ، فيئس . فمات !. ولكني اقسم بالف اله ! وبالف نبي ! وبالف صنم ! على أن افلاسه ما كان إلا من تغاضيه عن الذين استدانوا منه وما وفوه ، فاحتاج ان يفي ما عليه ، وعجز عن ان يستوفي ما له !.

وقد كان رحمه الله ، شديد الثقة بالناس، ولا سيما ابناء الجبال. فقد كان يعطي دون ان يأخذ وصلاً بما يعطي . ولما سألته يوماً لماذا يفعل هكذا ، قال : ان المال ثقيل على الضمائر يا « عم » فلا تصدق ان أحداً يستطيع ان يفي ويتخلف ! .

لذلك كوني على ثقة يا سيدتي ان المرحوم تاجر بوزناته الخمس وربح السماء . وبولس يقول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي ان تحزنوا عليهم كمن لا رجاء لهم !..

كان يتكلم يا طوبيا ، والصدق يشيع في صوته وحركاته واسارير وجهه . بل كان يتقد بالشعور والاحساس والوفاء ،

كأنه لم يعرف الرياء ، ولا الخداع ، ولا الزلفى !..

وكانت لهجته الجبلية تزيد كلامه قوة وفخامة . وكم كان جميلاً ان يستشهد بالانجيل . وبرسائل بولس كأنه كاهن متضلع من علوم الكهنوت !..

فاشاح طوبيا بوجهه، وخاف ان تعود امه الى حديث الكاهن. على انه استدرك وقال : واخيراً ماذا حدث يا امي ؟ .

فاجابت : ان ما حدث اخيراً ، هو اعظم من كل ما سمعت .

فبعد ان عزاني بحديثه العذب . واخلاصه النادر ، قال : منذ عام يا سيدتي ، استدنت من المرحوم مئة ريال مجيدي ، لمرور ستة اشهر . على ان الموسم كان ماحلاً فلم استطع ان افي سيدي ، واصبحت خجلا ان وجدت نفسي كاذباً دون قصد ، اما بعد ان عرفت ان سيدي توفي ، رأيت من واجبي ان افي ما عليّ ، فبعت قطعة ارض من املاكي وجئت اليك بالمال . وهذا كيس يحتوي على مئة وتسعة ريالات مع الفائدة القانونية .

قال هذا يا طوبيا بلهجة الاستعطاف كأنه قادم ليستدين ، لا ليفي ، ولما شاء ان يودعني اقسمت عليه بروح ابيك ان يقبل مني خمسة وعشرين ريالاً . فقبل المبلغ واخذ يدي ليقبلها فلم امانع لئلا اجرح عاطفته النبيلة . وقبل ان يخرج سألته عن اسمه ، فقال : « عبدك الياس امين الخوري » . ولما توارى وقفت اصغي الى خطواته ، فكنت اسمع صوت الضمير الحي في خفق نعليه !..

فقال طوبيا لامه : تعزي اذن يا امي بان لابي اصدقاء اوفياء كهذا الفلاح الامين !..

فقالت : لا اعرف للعزاء لوناً إلا يوم ترجع عن عنادك وتصير كاهناً ..

– عنادي ؟ اتريدين ان اعق والدي الذي اراد مني ما ترينه عناداً ؟ .

– وماذا فعلت اليوم ؟

– ذهبت الى محترف النحات الايطالي وطلبت اليه ان اقرن لديه على ابراز مواهبي الفنية !

– اتبدل ما تحسبه مواهب ، بالدعوة السماوية ؟

– كل ميل شريف دعوة سماوية يا امي ! فعلى الانسان ان يكون عاملاً وعلى العمل ان يكون مقيداً .

– وماذا قال لك النحات ؟

– لقد كان لطيفاً جداً ، ولا سيا زوجته نجلاء تلك اللبنانية الصميمة التي تحب بلادها محبتها لزوجها ..

– واين تغديت ؟

– عنده ، عند النحات ..

– هكذا دون تكليف ؟ أيليق بشاب مثلك ان يطوح بنفسه دفعة واحدة ؟ فاين تهذيبك الكهنوتي ، واين علومك العالية ؟ واين ثقافتك الرفيعة ؟

– عفواً يا امي ! أأكون اتيت بما لا يتفق والتهذيب ؟

– طوبيا ! انت خلقت للكهنوت ، فلا تجاذف بشبابك ، وتريق ماء صباك على اقدام الفن !..

– ان الفن يا امي ، يحفظ الشباب ويرفع اسمه الى الاوج الاسمى !..

– أهناك اوج اسمى من السماء ؟

– السماء وراء الحياة يا امي ! اما الفن فعلى وضحها ، السماء غاية ، اما الفن فواسطة .

– وماذا يفيد الانسان اذا خسر السماء ؟!..

– لِمَ تتشائمين هكذا بمصيري ؟ فكيف اخسر السماء ؟ فهل أعدت السماء للكهنة وحدهم ؟

ألا يحق لي ان اربح مواهبي واربح نفسي ؟.

ألا استطيع ان اكون ابن الفن وابن السماء ؟

امي ؟! وعظام ابي لا تقفي لي حائلاً دون بلوغ امنيتي . دعيني اكمل طريقي الجديد بامان . دعيني ابلغ المرتقى الذي اراه في خيالي ! آه لو تستطيعين ان تفهمي الفن . بل ليتك تفهمينه . انه الوميض الباهر الذي ينير زوايا النفس المظلمة . انه المهيع الرحب الذي عبرت عليه مواكب الخالدين . انه همس الله !..

خذي هذا الكتاب ! تصفحيه . حدقي جيداً فيما يحتوي عليه من خلود ومجد ، واثار لن تموت .

انك تجهلين القراءة الغربية ، ولكنك غنية بالذوق ، وبقوة الاستنتاج اقرأي بخيالك ، واستوعبي ببصيرتك ، انك امام الفن ، والفن وحده يجعل الناس كلهم امامه سواء ...

ابحثي في معاني هذه التماثيل ، ألا تجدين ان الانسان يشترك في اعمال الله ؟.

ماذا ترين بهذا الجسد المديد، وبهذه العضلات التي تكاد تختلج؟ ولكنها تختلج ، واختلاجها يريك الذعر البارز في هاتين العينين!..
وماذا ترين في هذه المرأة الحانية على هذا الطفل الابلج الجبين! ألا ترين الاطمئنان متجسداً في ابتسامتها ؟
انها الامومة يا امي ! الامومة التي تنفذ شريعة السماء بإخلاص !...

ألا يحق لهذا النحات الذي استخرج من فكره الحياة ووضعها في الصخر الميت ، ان يكون ابن السماء ؟ ..
أيستطيع الكاهن ان يجاري هذا بما اورثه للعالم وللثقافة وللاجيال ؟ .. فما هو عمل الكاهن ؟ الوعظ عن السماء ؟ وماذا يقول اكثر من الانجيل ؟ انا لم اسمع كاهناً استطاع ان يحرك قلبي بخلجة واحدة بحب المسيح . ولم ار كاهناً بدا على وجهه ظل واحدامن العذوبة التي كانت منطبعة على وجه المسيح !
فالكاهن اعتاد ان يتخذ لعظاته طريقين لا يحيد عنهما . فاما يصور المسيح امرأة مائعة ويسمي هذا الميعان ، وداعة ، او يظهره غضوباً هائجاً ويدعو هذا الغضب جبروتاً . مع ان المسيح لم يغضب ولم يمع : ولا كان هائجاً ولا كان وديعاً . بل كان فلاحاً ماهراً بعلم الارض والنبات ، فيضع في كل تربة ما يوافقها من الاغراس والبزور . وما عدا ذلك ، فهل كان المسيح إلا سفينة اقوى من العواصف ، وبحراً لا انواء في اعماقه ؟..
فتنهدت الأم متأسفة ، وعركت يداً بيد وقالت : أهذا الذي تعلمت باطوبيا في مدرسة الروح والذمة ؟ .

فانتفض طوبيا وقال : أفي كلامي الحاد يا امي ؟ .

فقالت : وهل هناك الحاد اشد وابلغ من ان تشبه المسيح بشيء ارضي ؟ .

كان طوبيا يتكلم ويعبث بصفحات المجلد الفني . وعندما غضبت امه من تشبيهه للمسيح بالسفينة والبحر ، بدت امامه صفحة تجمع عدة تماثيل للمسيح . فقال : هذا مسيح الفنانين فقابليه واحكمي!

ألم تري مسافة الابدية في هذه النظرات ؟.

ألم تسمعي سكوت السماء في هذا الاصغاء ؟ .

ألم يبدُ لك مجد ابيه في ارتفاع هذه اليد ؟ .

حدقي جيداً . اغرزي حدقتيك في الصخر ! فاين الغضب ؟ واين الميعان في قوة ابن السماء ؟..

فحنت الام رأسها ، وقبلت التماثيل قائلة : يا سيدي يسوع المسيح أنر طريق ولدي ! ..

فاجفل طوبيا للدعاء . وركع لدى امه قائلا : امي ان في دعاءك الصادق قوة تنقل جبال العالم الى ايمانك . فسيكون طريقي مناراً بصلواتك ، وسأظل ابنك البار ! ..

في هذا الوقت المهيب ، دخل نفر من الناس ليعزوا الارملة ووحيدها ! ..

التجربة الاولى

لم تلامس اجفان طوبيا غفوة واحدة مع كون الليل هادئاً ناعم النسمات ، فالعوامل التي مرت عليه في نهاره ، اوقفته جديداً في طريقه الجديد ! .

وذكر مدرسته وقانونها، وتقواها وصلاتها . ثم فكر في ابيه ، في ذلك الرجل النقي الضمير ، الصادق الاتجاه في رحاب العالم ! .

وتنهد طوبيا . ولأول مرة يحس هماً يغشي صدره الحر الطليق . ألا يكفيه هماً انه اصبح فقيراً والفقر مجلبة المشاق ؟ ألم يحرمه الفقر الكهنوت ؟ .

انه كان مزمعاً ان يتحدث عن المسيح . عن تلك الدائرة التي جمعت السماء بالارض . عن ذلك المعين العذب الذي اروى التربة العفراء في نفوس البشر ! . عن السفينة التي لا تقوى عليها العناصر . والبحر الذي لا انواء في اعماقه ! ..

وتنهد ثانية في اعماق روحه وقال سامحك الله يا ابي ! .. ان ادارتك وارادتك خسرتاني الكهنوت !

وظهرت لطوبيا صورة ابيه ! ظهرت كما رواها الياس امين الخوري الفلاح الامين . ها هو يحسن على الفقراء باسماً . ويقرض الفلاحين مشجعاً . ويبيع زيته بريئاً . أكان والده كاهناً ؟ وهل ينال الكاهن مركزاً اسمى من مركز ابيه في السماء ؟ ! . .

وعذر امه على الحاحهـا عليه . ونسب رغبتها في كهنوته الى دينها القويم ، وايمانها الحي ! وبماذا يجب ان يتحلى الامهات باكثر من ذلك ؟ .. اما كان رئيس المدرسة يردد على مسامعهم دائماً ، ان لا ايمان بدون دين ولا آداب بدون ايمان ؟. إذن فامه حاصلة على كل المميزات التي يجب ان تكون في الكاهن ، حتى المعرفة.

ان ام طوبيا متعلمة ذكية تحفظ اكثر آيات الكتاب المقدس غيباً عن العهدين العتيق والجديد . وتروي لمحدثاتها قصص الانبياء واستشهاد القديسين .

واسف طوبيا ان لا تكون امه تحب الظهور ، فكم كان فخوراً لو يراها واقفـة موقف نجلاء زوجة معلمه تبرهن بجلاء عن عظمة شرقها ! ..

وسره ان يستعيد كلام نجلاء . فوقف عن التفكير متذكراً . ولكنه لم يستطع اعادة جملة واحـدة كما سبكتها هي . وفرك صدغيه بكفيه . وضغط جبهته كانه يعتصر دماغه ليعد اليه ما سمعه من فم نجلاء ، ولكنه عاد مخذولاً واسقط يديه على فراشه بارتخاء كأنـه استسلم لضعف ذاكرته العصية . . ولما اراد ان يعرف السبب في احجامـه عن المذاكرة تراءت له نجلاء بوجهها الصبيح وقوامها المديد الاملد .

فوجم امام الرؤيا واسلس انقياداً لمرور الصور في رأسه . ثم ضحك من نفسه اذ رآهـا اول مرة تدخل المحترف ، وظنها مثالاً للنساء ، وفكر في تمثالها فوجده يحجب كل جمال ، من افروديت .

الى الزهرة . الى عشتروت . الى العذ..ه وشاء ان يقول العذراء فشعر بسوط الخطيئة يلسع نفسه ، وشعر بجرح نفسه ينزف دماً ابيض من عينيه !. فاستوى جالساً ورسم اشارة الصليب على صدره ، وندم في اعماقه ..

ولما اتم صلاة الندامة تنهد وقال : ما اخطر العالم !.. وعاد يحاول النوم ..

ولكن النوم لا يدنو من ذوي الافكار البعيـــدة المرامي العميقـة الغور ، انما الندم جمود التلافيف في الرأس عن عرض الصور ، واعادة الاصوات . وكيف ينام طوبيا وهـذا صوت صريح النبوات يقول له معنفاً :

ايه طوبيا ! ان الطريق طويل . وفراسخ الوصول لا عـداد لهـا . فما بالك تتخاذل في الخطوة الاولى ؟ .

عد الى مدرستك ! انك لضعيف عن اللحاق بمواكب الخالدين من ابناء الفن . والثوب الكهنوتي سياج يحفظ الضعفاء ، فكن كاهناً ، ان يديك احرى بجسد الفادي ! وانتفض طوبيا اذ كان يسمع صوت ضميره واضحاً كأنه صوت شخص منفصل عن شعوره فهل يكون النعاس ملك ادراكه ، فرأى حلماً في غفوة عابرة ؟..

ونزل عن سريره وراح يغسل وجهه بالماء ليزيل النعاس الوهمي عن عينيه ..

ثم عاد الى فراشه واخذ سبحته يصلي ..

وتلا قانون الايمان بورع وحرارة . وكان مغمضاً مطرقاً ، خاشعاً . بل كان منخطفاً منفصلاً عن الارض عالقاً بجمال السماوات

ولما لفظ «ونترجى قيامة الموتى» وقف عن الصلاة وسأل نفسه :
أيقوم الموتى ؟ « وكيف يقومون » ؟ «وباي جسد يأتون»؟
وهل ارى ابي في اليوم الاخير ؟ واذا رأيته هل يعرفني ؟ .

وشاء ان يسترسل بسؤالاته ، واذا بذاك الوثني المؤمن يبدو امام عينيه بلحيته الشقراء المفروقة ، وقامته الطويلة المتسقة . واذا بصوته النحاسي الرنين يزعق في اذنيه : « ايها الجاهل ! ان الزرع الذي تزرع ان لم يمت لا يعش !.. »

واحس طوبيا سوط الخطيئة يلسع نفسه للمرة الثانية . ولمس دم نفسه يخرج من صدره تنهدات دامية . فارتجف . وخاف . وتصبب من وجهه عرق بارد كمقبض الموت . ملهب كلفح الجحيم ! فجثا في فراشه . ورفع عينيه في ظلمة الليل وقال :
أأشتهي واشك في ليلة واحدة ؟ .
أأشوه جمال نفسي بجرحين ناغرين ؟
أتهاجمني الخطيئة وسبحتي في يدي ؟ .
وذكر ابتهال امه فردده: ياسيدي يسوع المسيح أنر طريقي !
ثم رمى السبحة من يده ، واداره نظره في ارجاء الغرفة وقال:
اللهم شدد قواي وارحم ضعفي . اللهم سامحني واعفِ عن سيآتي .
وان كنت ترى ان يدي احرى بجسد الفادي فسأكون كاهناً !.
ونام طوبيا حتى دخلت الشمس توقظه .

اماني الام

نهض طوبيا متعباً منهوكاً. ولما قابل امه في غرفتها ، وجدها غارقة في تصفح المجلد الفني ، مدققة في كل تمثال على حدة .

– صباح الخير ياماما !

– انعمت صباحاً ياحبيبي ! تعال واجلس قربي . ان كتابك هذا الجميل ، ملأ نفسي وقلبي بالسلوى والعزاء . لقد سهرت مساء امس حتى منتصف الليل ، وها انا منذ ساعتين احدق في جماله !..

بالحقيقة ياطوبيا ان الفنانين اسمى من البشر ! وان من يستطيع ان يخلق جسداً ، لا يخشى عليه من اضاعة نفسه . . لقد لمتك يوم قلت ان الكاهن لنفسه فقط ، اما الفنان فللمثل والتاريخ والخلود . فاي كاهن يستطيع ان يملأ قلبي بالعزاء مثلما ملأه هذا الكتاب ؟ .

نعم امتلأ قلبي عزاء ! وهل هناك عزاء اكمل من ان اكون اماً لفنان ؟ . ساحمل اسمك يا ولدي . واغتبط بشهرتك العالمية . ستكون شيخوختي مكللة بشيب السعادة الرغيد !

سترتفع نفسي الى المجـــد ، يوم اراك تنحت تمثال ابيك ، واجدادك . « وتمثال الام الحزينة » .

فجرض طوبيا بريقه . وتهيأ ليقول لها : اني عدلت يا امي عن علم النحت ، ولكن نظرات امه الجديدة اللماعـة بالغبطة والفرح

اوقفته فظل ساكتاً .. اما أمه فظلت تتكلم :

ليتني استطيع القراءة الغربية يا ولدي ! لكنت اعرف اسم كل تمثال وقصة ناحته . وسيره التاريخي . ولكن ليس الذنب ذنبي . فالذنب ذنب هذه الامة الهاجعة التي لا تثقف الامهات ليفتحن طرقاً صالحة لاولادهن ! .

فقال طوبيا وفي صوته بحة الندم : إن تقوى الام يا امي ، خير من ثقافتها . وإن أماً تهب وحيدها للرب ، لأسمى من ام تعرف لغات العالم !

– ولكن الرب لم يقبل هبتي . فرأيت ان اهبك للاجيال ! ان مواهبك الفنية حرية بان تنتشر في العالم. اما الكهنة فكثيرون و كثيرهم يقلل احترامهم . ما داموا بحكم الاجتماع يحملون جميعاً تبعة فرد منهم .

– لم افهم ما تقصدين يا أمي .

– أبهذا المقدار ترى كلامي غامضاً ؟ .لنفرض ان في بيروت خمسين كاهناً . ولنفرض ان كاهناً واحداً عثر ، ألا ترى الناس يظلمون الكهنة كلهم ويدينونهم دينونة افتراء ؟ ..

– ولِمَ يعثر الكاهن ؟ .

– لانه بشر يا ولدي . والبشر ضعفاء ولو اكتسوا باجنحة الملائكة ...

– ولكن الثوب الكهنوتي سياج للضعفاء

– ايقف السياج بوجه النار ؟

– انه يقف ! فلو لبس الكاهن مسوحاً مثلاً ؟

– اتعني الراهب ؟ .

– نعم الراهب ! ذلك السجين القديس الذي يذوب جسده تقشفاً ، ليغذي نفسه نعمة وحقاً . ألا تذكرين قصة اب الرهبان الاكبر انطونيوس الكبير ؟ . لقد قاوم بثوبه قوة الخطيئة ودحر جنود الشيطان وظفر الى الابد ..

– مالنا وللبحث في هذه الامور يا طوبيا ما دمت قررت مصيرك ..

– لا يا امي ! اني لم اقرر مصيري بعد . لقد سمعت دعوة ابي في هذا الليل ، ورأيت نفسي عاجزاً عن اللحاق بمواكب الخالدين . فعزمت عزماً ثابتاً على ان اكون راهباً فاسير على الطريق الذي يرسمه لي اخواني الرهبان . وهناك في احد الاديرة البعيدة عن ضجيج العالم ، انشد خلود روحي في سعادتها ! اما اسمي ! اما شهرتي ! اما مجدي . فان هذا كله كالرعد يقصف ويتوارى .

– وارادة ابيك ؟ .

– تحولت ارادة ابي عندما رآني اصبحت فقيراً لعلمه ان الفقر يقتل في الانسان مواهبه ومؤهلاته . ويوقفه غريباً بين ابناء جنسه ، وان ابي لعلى حق . فهل رأيت فقيراً له كرامة في محيطه ؟ أرأيت فقيراً يضحك ضحكة صافية لا اسرار فيها ولا آلام ؟ أرأيت كاهناً فقيراً ، ولو مهما كان عالماً وفاضلاً ، إلا محتقراً بالنسبة الى درجته المقدسة ؟ .

كل هذا تراءى لابي . وابي كان مختمراً ناضجاً ، حنكته الايام ، وصقلته التجارب ، فكان بعيد النظر ، كثير التفكير ، صادق الاستنتاج ! .

لذلك يا امي . ولاجل ارادة ابي الاولى ، سأكون راهباً . والراهب والفقر صنوان ...

ارتجف صوت الام ، وتلجلج الكلام في حلقها ، وهي تقول: راهب ؟ سجين في دير ؟ بعيد عن امك ؟ وكيف تعظ ؟ ومن يسمع من فيك كلام الله . ومن يستفيد من علومك ؟ ومن يكون مثلاً للشعب ؟ ومن يصير حبراً تحنو لديه الهام ؟.

لا يا ولدي اكمل طريقك في طلب مواهبك الفنية ، لئلا تموت .. ان الرهبنة مقبرة المواهب يا طوبيا . فلا تخسّر بلادك رجلاً عالمياً . وتخسر امك غبطتها وهناءها . فتضطرب روح ابيك في سمائها !..

سافكر يا امي ، سافكر ! قال هذا ونهض مستميحاً امه بالذهاب الى محترف الفنان ليعيد اليه كتابه .

فاعطته الكتاب ، وقد تحولت دموع الحزن اللامعة في عينيها جفافاً ، واستقرار رأيها دهشة ، فتمتمت : ليرافقك الله في اتجاهك ، ويجمل ترددك بنهاية مباركة !..

•

لم يجد طوبيا معلمه في محترفه ، فصعد الى مسكنه وقرع بابه وخفوق قلبه يتراءى على وجنتيه شغفاً بعبد المدى ،غامض الحقيقة..

ولما فتح الباب ، اطلت نجلاء مكفهرة الوجه ، كئيبة . وما كادت ترى طوبيا ، حتى استضاء وجهها بالترحاب وانجلت كآبتها حتى صارت فتنة ناعمة ، تستولي على القلب فيطمئن ، وتنتظم فيه الخفقات الملحة . اما وجهها ، فقد نورته المباغتة ، ووشته بخضب الشباب ، حتى بدا يانعاً كالثمرة التي تنادي اليد القاطفة ...

فتحسس طوبيا شفتيه بلسانـه ، كأنه يتذوق ظـل الجمال المنعكس عليهما ، او يرطب الجفاف الذي احدثه عطش العفاف..

وسألها طوبيا عن زوجها . سألهـا بنغمة مختنقة ضاع نصفها في حنجرته ، اما النصف الثاني ، فقد انطلق عن لسانه كرنة الصنج الذي نقف، وقبض عليه ، فقضت الكف على طريق الارتجاج...

ولما اجابته نجلاء، كان صوتها «وشوشة» ناعمة كخفيف الجناح: ان زوجي دعي منذ ساعتين الى ديوان المتصرف ، ولا يلبث ان يعود ...

ودعته للجلوس في الردهة المزينة بالازاهير والرياحين. وقدمت له المرطبات وقطع الحلوى بيدهـا . ثم جلست تتحدث اليه ، بطلاقة وزلاقة لم يعهدهـا بامرأة . ولكن أنى لطوبيا ان يعرف النساء ومجالسة النساء؟ ان تلامذة الاديرة غريبون عـن المجتمع . ولا سيا طلاب الكهنوت منهم ، فكثيراً ما يحملون على وجناتهم حياء العذارى المطلات حديثاً على البلوغ . وسألته عن استعداده للفن . واين تعلم مبادئه . وهل له تماثيل ولوحات ؟ فـكان يجيبها بايجـاز . والحياء يخضب وجهه بالبراءة ، ويعلن حـداثة عهده بالاجتماع ...

وطلبت اليه ان يصحبها الى غرفة الرسم ، حيث يشتغل زوجها مصوراً ايضاً . فتبعها . وادخلته الى قاعة فسيحة كثيرة النوافذ. ولكن نوافذها جميعها مجللة بالسجف الجميلة . وفتحت احدى هذه النوافذ ، فانسكب النور على مجموعة لوحات فنية . وكلها تاريخي ورمزي . كلها ينبض بالحياة ويتكلم بالاسرار .. واوقفته امام لوحة كبرى . لوحة نالت اكثر اجادة الفنان . وقالت : ان هذه اللوحة احب اليّ من كل ما نحت جوزيف وما رسم ، لانها تمثل لي ضعف الرجل وجمال المرأة. بل تمثل لي جبروت الرجل وامتثال المرأة.. أرأيت هذا الرجل المطل من قمة قصره ؟ انه داود . داود الموسيقار والشاعر والملك . ثم أرأيت هذه المرأة التي تغتسل وجمال جسدها يخسف بريق الماء على جسدها ؟ انها زوجة اوريا القائد في معسكر داود ، لا حاجة الى شرح القصة ، فانت ادرى بها مني ، على اني اشرح لك بعضاً مما حببها اليّ :

الجرأة في الرجل هي كل ما تصبو اليه المرأة ، وداود كان جريئاً ، وجرأة داود وحدها كافية لان تستسلم اليه زوجة اوريا البارعة الجمال . على ان داود شوه جرأته بالخدعة التي اودت بالقائد الزوج ، لتصبح هذه التي تيمت فؤاده سائغة له ..

ولكن ليس هذا الذي يحببني بالصورة وحده . فهناك حالة معنوية ثانية غير الجرأة . ان هذه العارية المغتسلة جاهلة كل الجهل ان عيني رجل تراقبانها . ولو عرفت ذلك لهربت غير حافلة بالملك..

أفاهم ما اقصد ؟ اني اراك ضجراً من هذه الشروح . ولكني اعذرك ، لان النساء ما خلقن لمثل هذه البحوث النفسية .

فتكلف طوبيا الجواب وقال: لا بأس يا سيدتي. فالمرأة كثيراً ما تكون ارهف حساً من الرجل ، وبقدر ما يكون الاحساس مرهفاً ، بقدر ذلك ما تكون المرأة عميقة مفكرة ...

فقالت ورنة الفرح ترن كلماتها :

اذن لست ضجراً مني !

– حاشا يا سيدتي .

– أتعرف لماذا ترفض المرأة ان يراها الرجال عارية ؟ .

– واي شأن لي يا سيدتي بهذه المعرفة .

– شأنك انك ستكون فناناً و كثيراً ما تحتاج الى مثال عار

– المسافة بعيدة بيني وبين هذه الحاجة ...

– على كل حال ستصل يوماً ..

فجرض طوبيا بريقه وحاول ان يغير الحديث . ولكنها تابعت : المرأة انانية لدرجـة الاستئثار يا طوبيا . وانانيتها علمتها ان الرجل يهيم بالمرأة لا لكونها انثى والانثى تتمة الرجل . ولا لانها جميلة والجمال نشوة الحس . بل لانها منيعة ، مجهولة ، خجول لطيفة . فاذا ما رأى الرجل عريها كرهها انثى . و كرهها جميلة، وامحت من خياله تلك الصورة البعيدة التي تخفي جوهرها ..

– اني احترم كل امرأة هذا شأنها . بل اقدسها والفظ اسمها كتمتمة صلاة .

– صحيح ياطوبيا ؟ صحيح . كم انت شريف وبريء. ولكن لنفرض انك ستحتاج يوماً الى مثال ؟

– ألم اقل لك ان المسافة بعيدة بيني وبين هذه الحاجة

– على سبيل الفرض !.

– لا استطيع الجواب يا سيدتي لانني ما برحت احيا بنفسية كاهن ..

قرع الباب، فذهبت نجلاء لتفتح، وجلس طوبيا في الردهة المزدهرة. ودخل الفنان متهللاً كأنه حامل بشرى سعيدة. ولما رأى طوبيا هتف مرحباً وجلس اليه يخبره عن نتيجة الاجتماع، وهي انه قنع ان يتقاضى عن التمثالين ثلاثمئة ليرة عثمانية ذهباً. على ان يكونا جاهزين خلال سنة ..

فدهش طوبيا، وردد في نفسه: ثلاثمئة ذهباً؟ خلال سنة؟ انه لمبلغ باهظ ...

وتابع الفنان: وغداً سأذهب الى الجبال فابحث عن رجل متوفرة فيه تقاطيع المثال الذي اود ..

فقال طوبيا: ألا تجد هنا؟

– هنا في بيروت؟ قال هذا وراح يقهقه حتى الاستلقاء على ظهره. ولما عاد الى استوائه، قطب حاجبيه وتكلم جاداً:

ان مثال آدم يجب ان يكون رمزاً لنواة الوجود. قوة ولا ميعان! عظمة ولا دناءة! انفة ولا تهتك!

ان مثال آدم يجب ان يكون من اولئك الذين تعاهدوا والارض على الاخلاص، فبادلتهم الارض القوة والمناعة والاباء.

مثال آدم مثال المجتمع كله. بل مثال الخليقة باجمعها. مثال السر الذي لم نعرف اكثر مما قرأنا في رواية موسى: وكانت

الارض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه المياه !..

ان موسى الذي أرانا روح الله يرف على وجه الغمر ، راسما على تلك الصفحات الهلامية رسوم الازال والآباد الكائنة في ضمير الله ، لا يرضى بان يكون اول إنسان ، خائراً ضعيفاً ، ضائعاً في مهمه الوجود ! ان الروح القوية الجبارة التي رفت على وجه الغمر ، اوجدت انساناً قوياً كالارض . أما قال موسى : « ان الله جبل الانسان تراباً من الارض ، ونفخ في انفه نسمة حياة فصار الانسان نفساً حية ؟» ..

لذلك ، فاني ساصنع آدمي كما صنع الله آدمه . سابحث عن رجل من ابناء الارض . في عضلاته قوة الطبيعة . وفي اساريره عزم الفصول .

سأري ابناء هذه المدينة آدم لا يخالف ، وحواء لا تشتهي !. سأبرهن للمتصرف ان الثلاثة ذهبية لا تساوي بسمة بريئة من شفتي حواء التي سأخلقها انا !!.

قال النحات انا ، ودقق بعظمة وثقة لم يرهما طوبيا في انسان ، فهل يكون توهم نفسه إلهاً ، مزمعاً ان يخلق عالماً جديداً ؟ ..

ومشى الفنان ذهاباً وجيئة ، وشفتاه ترتعشان كأنه يتكلم في سره ...

وحدق اليه طوبيا يرقب حركاته الغريبة الشاذة ، تلك الحركات التي لا تمت بصلة لا الى الفن ولا الى الثقافة .

وحدجته نجلاء بنظرة غـــير مرتاحة ، لهذه الطفرة النفسية ، ثم اقتربت من طوبيا تحدثه وتصرف نظره عن فنانها الغريب الاطوار الكثير الاوطار ..

ولكن الفنان لم يدع لنجلاء فرصة للمحادثة ، وانما انتهرها انتهاراً : نجلاء ! دعينا نتم حديث مشروعنا الجديد . ان احاديث النساء اللولبية ، لا نهاية لها الا بالرجوع اليهـــا .. فاين القهوة ؟ أنسيت انني لم اتناول في هذا الصباح سوى قطعتين مـن الحلوى ؟

ألم تعرفي أن من كانت روحه طليقة وثابة مثل زوجك يحتاج الى تغذية حقيقية ليقوى جسده على مطالب روحه ؟ .

فابتسمت نجلاء ونهضت نهوضاً مسرحياً مموهاً بالغنج والخيلاء وتوارت ...

وجلس الفنان يحدث طوبيا : غـداً نبدأ بالعمل . إني اتوسم فيك نشاطاً وذكاءً مفرطاً .

– شكراً يا سيدي ، حسبي ان انال رضاك .

– ماذا رأيت في الكتاب ؟

– لقد اعدته معي . واليكه ! .

– لِمَ لم تبقه عندك بعد .

– لاني ... وكاد طوبيا يقول عدلت عن علم النحت ، ولكنه لم يقوَ على لفظ كلمته لان ذكر الذهب ما برح عالقاً في قلبه ، هذا فضلاً عن شوقه الى مرأى المثال الذي سيأتي به سيده من الجبال . فاردف لاني تصفحته كله مساء امس ..

فضحك الفنان ضحكته المسجلة وقال : أظننت انه نموذج للخياطين ؟ ام خرائط بناء للمهندسين ؟.

ان في هذا المجلد اجيالاً لا تضاهى . وغار قرائح لن تنضب . فعليك ان تدرسه بامعان ان شئت ان تكون إله الصخور !..

ارتعش طوبيا كأن سلكاً مكهرباً مسه . واستعاذ بالله من جنوح معلمه وانهياره في التعبير . وإلا ما باله يقسم الخليقة ويفرز جمادها عن نباتها ، واحياءها عن طبائعها ليضع لكل عنصر إلهاً ؟

وامتعض الاكليريكي في نفسه ، ورأى نفسه جريئاً فقال :

ان زمن تعداد الالهة توارى مع الجهل . فإلهنا واحد فقط . وما الصخر ، وناحت الصخر إلا ارادة ازلية كانت في ضمير الله منذ الازل ، وستبقى الى الابد الابيد ..

فتهيب الفنان . في مجلسه ، واجاب : حتى الفلسفة اللاهوتية ضرب من الفنون . انها ترضي ولكنها لا تشبع ! وتقنع ولكنها لا تسلم من الجدل .

– نحن في رحاب الفن ولسنا في دائرة اللاهوت .

– نحن في بيت الفن . وبيت الفن بيت الله !.

دخلت نجلاء تحمل القهوة بنفسها . وقدمتها بلطف اشهى من القهوة . ولما تقدمت من زوجها ، تبسمت وقالت : تغذ !.

لم يجب الفنان بل راح يتحسى قهوته وعيناه ترقبان البخار الرقيق المتصاعد من « فنجانه » ..

سكت الجميع ولم يسمع صوت الا صوت ارتشاف القهوة . على ان نجلاء كانت تتكلم كثيراً بعينيها الاخاذتين ! اما طوبيا فكان

مصغياً الى الحديث ، مرتاحاً الى هذا الجمال الصارخ في كل عضو من اعضاء نجلاء !..

وقرعت الساعة عشراً . فنهض الفنان قائلاً : الى العمل يا طوبيا . ونهض الثلاثة . ومد طوبيا يده الى نجلاء مودعاً والحياء يشعل في وجنتيه جذوتين من البراءة .. ومدت نجلاء يدها . هذه اليد الاثيرية الملمس ، السحابية الاديم ، الوردية اللون ..

وابتسمت فبدا ثغرها المخضل ، كزهرة اقاح ، في هدأة صباح ! واهتزت اليدان ، فشعر طوبيا بان قلبه يشق طريقاً بين ضلوعه ويخرج . وخرجت زفرة مخنوقة من فم نجلاء ، عندما انحلت اليدان ..

بهوذا

طوبيا في المحترف ! يطوف حول التماثيل العديدة وقلبه ينبض بالشوق الى النهاية الاخيرة التي ينتهي عندها فنه . فمتى يستطيع ان يضرب هذه الضربات الجريئة ليخلق الاسارير ومعـاني الاسارير ؟ متى يسيطر عـلى الصخور ويجعل منهـا احلاماً وصوراً وشعراً وتاريخاً ؟ . .

واقترب من معلمه . وكان الفنان دائبا في العمل . وكانت يده تعلو وتنحدر تبعاً للخطوط الاولية . وتابع يده بنظرة مسددة لا تحيد . بل تابع الخطوط التي يمر عليها الازميل محدثاً موسيقى من اتزان الضربات . ان معلمه ماهر مسيطر على الحديد ، والصخر معاً . بل مسيطر على خياله الطليق العزوم . يأمره فيلبي . ويدعوه فيمتثل ! من هو الانسان حتى يخلق ويبتدع ؟ ان العمل الباهر يقربنا مـن الله ! هكذا فكر طوبيا ، ورأى نفسه مشتاقاً شغوفاً بل رأى نفسه تواقاً الى العمل . وتمنى لو يسلمه معلمـه المطرقة والازميل ، ليعلن شوقه وشغفه بالاجـادة . على ان الفنان ذاهب في ضرباته السريعة لا يلتفت ولا يتمهل . والحصى الدقيقة تتطـاير من ضرباته ، كأنه قطع الستار الذي يمزقه الفن ليظهر الانسان ! ودام العمل ساعة . والسكوت يزيد العمل جمالاً وتهيباً . واخيراً وقف الفنان عن العمل . وجلس يشعل غليونه . ولما امتص بضع

مصات ونفخ حلقات الدخان مرافقاً حركاتها بنظراته ، سأل طوبيا: أعرفت تمثال من هذا ؟

– كلا يا سيدي .

– حدق اليه ملياً فماذا يبدو لك وراء عينيه القاسيتين وفمه الجاف؟ وماذا يتراءى لك من هذه اللحية النفور المتحفزة للاستسلام؟

– أرى صراعاً بين الخطيئة والندامة !

– لا بأس بما رأيت ! على انك لم تستطع التفلت من شروح اللاهوت قط . ان كلمة صراع جاءت محكمة بليغة . ولم تخطر لي بالرغم عما فكرت في الوضع . وسأدعو هذا التمثال «الصراع» ، ولكن الخطيئة والندامة لا شأن لهما في مذهب الفن . حتى ولا في مذهب المنطق ايضا . اذ لا تجتمع الخطيئة والندامة في نفس ، فاما هذه وإما هذه . فالجائع لا يستطيع ان يتخيل الشبع .

– ولكنه صراع على كل حال ، ومتى كان صراعاً يجب ان يجتمع النقيضان في النفس !.

– احسنت استنتاجاً . فالنقيضان المتصارعان هما الدعوة والخوف من الدعوة . فالتمثال تمثال يهوذا .. يهوذا الذي استقر في عقول المسيحيين انه باع سيده بالفضة . وانه شرير خائن . ولو عرف مبغضو يهوذا انه الرجل الذي اعدته السماء ليفعل ما فعل ، لادركوا ان بغضهم إياه مخالف لسر الفداء ! ..

فنظر طوبيا مشدوهاً الى معلمه وسأله : ماذا تقصد يا سيدي بهذه النظرية الخاصة ؟

فتبسم الفنان وقال : ان نظريتي ليست خاصة ، كما تظن . وانما هي جوهرية يجب ان تعلن في المسيحيين على الاطلاق . فاذا كان يهوذا مجرماً لكونه سلم سيده فيكون سيده صلب مرغماً . والمرغم لا يحسب فادياً ..

انا لا اشك في كون المسيح صلب برضاه ليفتدي الخطأة ومتى كان ذلك كذلك ، فيكون عمل يهوذا دعوة مفروضة وقد قام بدعوته خير قيام فلِمَ تكرهونه ؟

— اما انا يا سيدي فاني ارى يهوذا خائناً مجرماً ماديا اذ فضل المعدن على ابن السماء !..

— ولنفرض ان يهوذا كان وفياً صالحاً ، روحي المقصد ، هل كان المسيح عاد الى السماء دون ان يصلب ؟ . فتلعثم طوبيا . ولبث يتذكر ما درسه من النظريات اللاهوتية عن يهوذا ، ولكنه لم يعثر على جواب ، فظل ساكتاً ..

فتبسم الفنان ابتسامة الظفر وقال : ان في سكوتك اذعاناً لما سمعت . وما دمت مذعناً لنظريتي أسمع يا طوبيا :

انا شخصياً ارى يهوذا فادياً ايضاً لان توبته بالانتحار هي توبة سامية لا تقابل باقل من السماء جزاءً . فاذا كان المسيح مات لاجل العالم ، فيكون يهوذا مات لاجل المسيح . واذا كان المسيح تمم ارادته ومشيئة ابيه السماوي ، فيكون يهوذا تمم دعوته لاتمام الفداء .

هذا ما تراءى لي لما عولت على نحت تمثال يهوذا ، لهذا الرجل

الطبيب المجهول الخلود . والا لـكان باستطاعتي ان انحت تمثالاً لبطرس ، واضعاً له ديكاً ينبهه الى شكوكه ساعة الحاجة الى ايمانه ، فمن كان يفرق خلود الديك عن خلود المشكك ؟.

فجرض طوبيا بريقه الجاف وقال : سيدي ان الجدال في المعتقدات ، يعقد الحياة . فمالنا والبحث في شؤون لا تمت بصلة الى الفن ؟ لقد جئت اليوم لاقول لك انني عدلت عن علم النحت. واعدت اليك الكتاب . ولكني ما كدت ادخل الى هنا وارى ثانية هذه التماثيل الحية في سكوتها . حتى وجدت فيّ ميلاً مالكاً على شعوري وارادتي وتفكيري . بل يكاد يملك حياتي ، لذلك فقد عزمت العزم الاكيد ، على ان ابدأ منذ اليوم . اما تمثال يهوذا هذا فأرجو منك ألا تظهره اذا شئت شرح نظريتك في اظهاره . لان العقول السطحية كثيراً ما تجنح لانفه فكرة جديدة ، لا فرق عندها مفيدة الفكرة ام ضارة ...

ــ انا اشرح لك كتلميذ يا طوبيا. والا ما معنى الفن اذا كان يحتاج الى شروح ؟ ..

ثروة ضائعة

أراك تعود بالكتاب يا طوبيا ؟

– نعم يا امي . ان فكرتي الاخيرة رست على شاطيء الفن..

اني لاخشى من ترددك العديم الاستقرار . بل من هذه الحالة النفسية التي تكاد تنقلب فجأة الى ما يذل امك في مهابة شيخوختها؟

– وطدي ثقتك بي يا امي ! ان عناصر حليبك لن تتحول مذلة ، لانها مشبعة بروح الدين ونزاهة الدنيا !.

– ومتى تبدأ بالعمل ؟

– غداً . لقد عهد رستم باشا الى معلمي بنحت تمثالين للحديقة التي بناها عند جسر المدينة . وسيكون هذان التمثالان خير بداية اذ ادرس عليها تركيب الجسم ومراكز العضل والاعضاء..

– وهل التمثالان كبيران ؟

– طبيعيان

– وكم يتقاضى عنهما الفنان ؟

– ثلاثمئة ليرة ذهباً !..

– مبلغ باهظ ! ليتك تصبح فناناً .

•

جلس طوبيا وامه يأكلان .

وكان طوبيا يفكر في كل ما مر عليه عند النحات . فبدا له

ان هذا الرجل غيور على نجلائه . وغيرته عليها تحز في قلبها وتذيقها الآلام . وإلا ما هذه الكآبة المرتسمة دائماً على وجهها ؟..

وآلمه ان يرى نجلاء متألمة . اما لماذا ؟ فلم يدرِ . فكان يشعر باحساس غريب عندما يراهـا كئيبة . وكان يحس انها شاعرة بشعوره . فهل يستطيع يوماً ان يعرف سر كآبتها ؟.

كان يفكر ناسياً انه جالس الى مائدة الاكل . بل كان يأكل ولا يدري . ولما عرضت له غصة في حلقه ، وشاء ان يستدركها بالماء ، وجد قدحه فارغاً . ولحظت امه هذه الغفلة التائهة . فتبسم لامه . وكم كانت تلك الابتسامة غنية بالمعاني . ذاخرة بخلاصات الاسرار ...

ونظرت الام اليه مؤنبة . فغض طرفه خجلاً . ولم يتكلم .

وتكلمت الام : هل بحثت في دفاتر ابيك يا طوبيا ؟ ان لنا اموالاً ضائعة بين الناس . ونحن بحاجة ماسة الى المال لنستطيع ان نعيش . ثم أسألت معلمك كم يتقاضى منك بدلاً عن تعليمك ؟.

– لا لم اسأله بعد . وقد فكرت . ولكني خجلت !

– خجلت ؟ ألم تعلم ان خجل الرجال ، كثرثرة النساء ؟ كلاهما عثرة في سبيل صاحبه . فيجب ان تخرج عن جمودك يا طوبيا . انك تخطو الخطوة الاولى لتدخل العالم . والعالم ذئب ضار يتربص لكل خروف مثلك .

– وكيف تريدين ان اكون ؟

– جريئاً . شديداً . لسناً ! ومن كان مثلك متضلعاً من

العلوم مسترشداً بالتواريخ ، جامعاً مشبعاً ، يستطيع ان يقود مواكب الناس . فهب انك صرت كاهناً . فماذا تفعل ؟

– افعل ككاهن !

– اذن مرن نفسك على ان تفعل كفنان . أليس معلمك لسناً شجاعاً ينعطف بكلامه نحو الزهو والمباهاة ؟

– انه نبع متدفق بكل شيء !..

– وهكذا يجب ان تكون !

– شكراً يا امي . ان عظات الام تنطبع في القلب مستقراً لحبات القلب ...

قال طوبيا هذا وذهب يحمل دفاتر ابيه يمعن فيها تمحيصاً .. وكم كانت دهشته مفرحة ، عندما عثر على مبلغ جسيم من القروش التركية ، لابيه في ذمم الناس ..

وحمل الدفاتر الى امه يلفت نظرها الى الارقام .

فضحكت امه بالرغم عن حزنها الشديد وقالت : أظننت انك تريني رسوماً يا حبيبي ؟. كن رجلاً واحسب ان لا ام لك ..

ولكن طوبيا ظل مندفعاً بفرحه : ان لنا في ذمم الناس اربعين الفاً من القروش يا امي ! انها ثروة . ثروة باهظة !

– أرأيت ان اباك لم يترك ماله ضائعاً ؟ فعليك الآن ان تكتب لائحة باسماء المديونين ، وتذهب بنفسك اليهم . ولا أرى ان احداً ينكر ما عليه . وهكذا يمكنك ان تكمل علومك ..

– سأفعل يا امي سأفعل !.

الصداقة !! ..

ذهب الفنان الى الجبال ليبحث عن رجل يتلاءم وفكرته في تكوين آدم . لقد ذهب منذ خمسة ايام ولم يعد . وطوبيا ما برح يزور نجلاء كل يوم منذ سفر زوجها ويتحدث اليها ويستمع لها .

وكانت نجلاء تسر بمجالسة طوبيا وتستأنس به لما رأت فيه من الصفات الطيبة والتهذيب الخلقي النادر ..

وفي اليوم السادس قلقت نجلاء على زوجها ، واوجست شراً في غيابه الطويل . وسألت طوبيا : أمن خطر على جوزيف ؟..

فاجابها مطمئناً وحلل الغاية من ابطائه في العودة، وكاد يقنعها. وتنهدت نجلاء كأنها ارتاحت الى ما سمعت من فم طوبيا .

وتوطدت الصداقة بين نجلاء وطوبيا ، ولكنها صداقة صافية بريئة لم يبدُ عليها غشاء جنسي .

وقصت نجلاء على صديقها اشياء واشياء عن زوجها . واخبرته كيف عرفها . وكيف احبها ، حتى تزوج بها . وكانت تتكلم واحلام الماضي على فمها . وسعادة الحاضر تتجلى في وقع كلماتها . وكان طوبيا مصغياً الى حديثها لما فيه من الطرافة . وما في صوتها من الموسيقى .

وكانت نجلاء ثقيفة ناضجة سامية الخلق . مترفعة عن كل ما يحط من قدر المرأة من تبذل ، وطيش ،وادعاء اجوف .على ان

كآبة مكبوتة كانت مرافقة اساريرها . فان ضحكت فافترار . وان زهت فكما تزهو الزهرة الندية في مطلع الشمس !..

وسألها طوبيا أتأذن لي سيدتي بسؤال واحد ؟ ..

– اسأل ما تريد يا طوبيا !.

يا طوبيا ؟ نادته باسمه مجرداً دون تكلف . فسر طوبيا وحسب نفسه فرداً من افراد العيلة . فقال :

كل ما قصصت عليّ يدل على انك سعيدة . مع اني اراك كئيبة دائماً . و كآبتك تريني ان اسراراً دفينة في صدرك . فهلا تزيحين عن نفسك هذا العبء وتكشفين لي اعماقك ؟. لا بد للانسان من حرز غير حرز نفسه، ليضع فيه اسراره. فهل استحق ان اكون هذا الحرز فتريني حريزاً ؟

فتبسمت نجلاء كأنها تقول لطوبيا ، صدقت . ان كآبة لا تفارقني !. ولكنها لم تتكلم . ثم اطرقت وتورد خداها ، وتجلى جمالها حتى سما عن التحديد . بل تألق وجهها بضياء لم يرَه طوبيا قبل .

وحدق طوبيا اليها وساد الصمت ..

الصمت لغة لم يفهمها إلا نفر قليل من الناس ، لانها لغة علوية لا تنال بالعلم . ولا بالاختبار . ولا بالمال ، وانما تهبط هبوطاً على ذوي الشعور الدقيق فيرون ببصائرهم ان الحياة ليست فيما نأكل ونشرب . ولا فيما نَسمع ونُسمع ، ولا فيما نَرى ونُري . بل الحياة كل الحياة فيما نشعر ونحس !

وطوبيا كان من اولئك الذين هبطت عليهم لغة الصمت .

فرفع رأسه ، وراح يقرأ سطوراً كتبت بخلجات قلب نجلاء . بل يستجلي غموضاً في تلك المرأة الحبية التي ظهر دم قلبها على وجنتيها ..

واشاحت نجلاء بوجهها من مرمى عيني طوبيا . وتظاهرت بانها تعبث بزهرة اقحوان كبرى في الحوض القريب منها وكانت تنثر ثنايا الزهرة وترميها وشفتاها تهتزان عن وشوشة ناعمة كأنها تصلي.

ولما اتمت نثر الزهرة عادت تنظر الى طوبيا وتبتسم بكآبة اشد ، وحزن اعمق

فقال طوبيا : أ اكون ازعجتك يا سيدتي !

– ازعجتني ؟ لقد ارحتني يا طوبيا . لقد علمتني ان « لا بد للانسان من حرز غير حرز نفسه يضع فيه اسراره » وبهذا العلم رأيت ان تكون انت حرز اسراري ..

– انا ؟

– نعم انت يا ... طوبيا ، فقد استشرت الزهرة لما كنت انثرها . فكان الجواب ايجاباً .

– أيمكنني اذن ان اعرف سبب كآبتك ؟ ..

– يمكنك ذلك بدون خجل . وهل غاب عنك ان حياة المرأة ولذة حياتها ، ونعيم عيشها في ان تكون أماً ؟

فانا عطشى الى ولد يا طوبيا . الى ثمرة احلي بها مرارة الايام..

قالت نجلاء هذا والقت بنفسها على مقعدها تبكي . في هذا الموقف ، قرع الباب . فوثبت نجلاء وثوباً مجفلاً وجففت دموعها بوجل . وقالت جاء جوزيف ! . ووثب طوبيا بوثوبها ، ووقف

كأنه يستقبل معلمه . ولما فتحت الخادم الباب ، كان الطارق رسولاً يحمل رسالة من الفنان الى نجلاء ..

وقرأت نجلاء عالياً . كأنها اصبحت لا تخفي امراً عن حرز اسرارها :

عزيزتي نجلاء ..

منذ عشرة ايام وانا في الفراش اقاسي آلام الرضوض في جسدي . فقد كبا بي الجواد وانا منطلق في طرق الجبال فسقطت عنه متدحرجاً نحو المهاوي السحيقة . وما كدت اصطدم باول صخر حتى رأيتني محمولاً على مناكب الفلاحين اسياد الجبال ، حتى اوصلوني الى بيت وجيه القرية (....) لانه البيت الوحيد الذي يحتوي على سرير .

لذلك اطلت عليك الغياب ، وانت الوحيدة في البيت ، ولا ادري اذا كان التلميذ الجديد يتفقدك من يوم الى آخر ، لاني لمست فيه الوفاء والاخلاص .

انا مسرور هنا بالرغم من رضوضي المؤلمة . لان الحياة القروية ملائة جداً لاحلام الفن ، ورغائب الفن . وراحة الفن ! فكم أرى من الجديد في زنود الرجال المحبوكة حبك الجذوع ، وكم أرى من الجمال في وجوه الصبايا الملوحة تلويح الثمار في مطلع نضجها ، بل كم احس من الغبطة عندما يتفقدني ابناء القرية مستعلمين عن صحة « الخواجه » ..

ان هذا اللقب التركي يضع في نفسي برودة لطيفة من التعزية التي احتاج اليها وانا بعيد عنك . وهل هناك تعزية اعمق في النفس ،

من الصاق لقب مهم جداً لدى ابناء الجبال ؟ . وانني اعتقد لو لم اكن في هذا الزي الغربي الغريب هنا ، لجاءوا يستعلمون عن صحة « الشيخ » ولكن أنى لي ان اكون شيخاً ولا سروال فضفاض من الجوخ ، ولا زنار مزوق بالحرير ، ولا « كوبران » مطرز بالقصب ؟ ان للشيوخ هنا زياً خاصاً . امـا الخواجه فهذا الذي يلبس كما البس « طقماً فرنجياً » . سأكون عندك قريباً ، لقد تركت الفراش في هذا النهار وبدأت اشعر بالنشاط يدفع بهمتي للعمل .

غداً نهار الاحد . وغداً يجتمع ابناء القرية في ساحة الكنيسة قبل الصلاة وبعدها . وسأنتخب مثالاً من الرجال الاشداء . وما اكثرهم هنا .

بلغي اشواقي الى طوبيا . ودعيه يمضي اوقاته في المحترف . لان التحديق الى التماثيل يقوي مواهبه ، ويضع في نفسه شوقـاً الى العمل ، اقبلك باخلاص زوجك

جوزيف

كانت نجـلاء تقرأ والاضطراب بادٍ على كل جـارحة من جوارحها . ولما انتهت ، سألت طوبيا : أتراه سليماً ؟

– دون شك يا سيدتي

– مسكين جوزيف ! انـه طيب القلب ولو كان غريب الاطوار . انه يحبني حباً لا يسعه قلب رجل . ولكنه شاذ حتى في حبـه ، فكثيراً ما يضربني ويعود فيقبلني وكثيراً ما يقبلني ويترامى بين يدي كالطفل . ثم ينتفض فجأة ويكيل لي الشتائم .

– قد تكون هذه طباع الفنانين ..

– انا لا اعتقد ان للفنانين طباعاً خاصة ، الا انهم يعتقدون نفوسهم ارفع من الناس

– من كان ارفع من الناس لا يستطيع ان يحب الناس . الم تري انه احب القرى وابناء القرى . وحياة القرى ؟ .

– ما اكثر ما يحب . واسرع ما يبغض .

– أرى ان هذه الصفات في اكثر الناس يا سيدتي ..

– وانت ايضاً يا طوبيا ؟ ..

– انا جديد في المجتمع يا سيدتي لم ادرِ من امر نفسي إلا اني اريد ان اكون ذا مهنة ..

– ألم تفكر في الزواج ؟

– الزواج قدسية عليا في ناموس الوجود يا سيدتي .

والمتزوجون الفاهمون هذه القدسية ، هم شركاء الله في بناء الحياة . ولكن ! أهناك كثيرون يفهمون هذه القدسية ويخشعون لدى استحقاقها؟ أهناك من يدرك ان المرأة والرجل كائناً واحداً، وارادة واحدة ، وعاطفة واحدة ؟ .

– طوبيا أنك كنز مجهول . وكم اكون سعيدة ان اكون مكتشفة هذا الكنز !.

– بل انا انسان جاهل يا سيدتي ، واني متصرف بكل ما في نفسي من الشعور الى طلب المعرفة .

– المعرفة ؟ . أتريد معرفة اكثر من ان تكون افكارك غذاء للجهلة ؟

- انا ؟

- وهل هناك كثيرون مثلك ؟ ان تربيتك تدفق المعرفة دفقاً . فاين درست ؟

- هنا في بيروت في المدرسة الشرقية الاكليريكية .

- أكنت معداً للكهنوت ؟

- نعم .

- سكتت نجلاء ورفعت عينيها الى السقف كأنها تعد روافده. ثم تنهدت باخفات وقالت : الكهنوت مقبرة القلوب يا طوبيا . .

- ولكنه منارة التقوى يا سيدتي .

- ولِمَ عدلت اذن ؟

- الانسان ملهاة الزمن يا سيدتي . فلا يستطيع ان يجيب ولا يستطيع ان يقرر . احببت الكهنوت جداً ولكني لم ادر لماذا . وها انا احب الفن ولا ادرِ لماذا . فماذا تريدين ان اقول لك ؟ اما قلت لك اني جاهل ؟.

قال طوبيا هذا ونهض مودعاً . فقالت نجلاء : هلا مكثت قليلاً بعد . إني .. إني قلقة . ان رسالة جوزيف لعبت بافكاري فبددت هدوئي . واراني اطمئن اليه اذا ما حدثتني عنه . وكم يكون مسروراً عندما يعلم انك كنت دائماً تزورني .

ولكن طوبيا مد يده وقال : سأعود يا سيدتي سأعود !.

وخرج طوبيا وهو لا يدري ما اذا كانت ترافقه ، بنظراتها ، ام تلهو عنه باضطرابها . ومع ذلك فقد مشى يزن خطواته ظاناً ان عينيها عالقتان بقدميه . .

الخبرة تتكلم !..

هل عاد معلمك يا طوبيا ؟

– لا لم يعد بعد يا امي . ولكنه بعث برسالة الى زوجته يخبرها فيها انه سقط عن الجواد ، فرض جسده ، وسيعود بعد خمسة ايام على الاكثر ..

– اذن يمكنك ان تذهب خلال هذه الايام ، فتقابل الذين وجدت اسماءهم في دفتر ابيك . ان اربعين الفاً من القروش ليست بالمبلغ الذي يجب ان نتغاضى عنـه . نحن بحاجة الى المال . ويجب ان نستوفي ثلاثين الفاً على الاقل !..

– صدقت يا امي ، على اني مضطر ان اظل قرب السيدة نجلاء ريثما يعود زوجها .

– وما شأنك بذلك ؟

– هكذا يريد زوجها نفسه !

– زوجها نفسه ! انا اعرف الازواج اكثر منك يا طوبيـا . ان السنة الناس لا تترك زوجا مطمئنا . ولا صديقا بريئا . ان السنة الناس كالازاميل الحادة ، لا تتورع عن ان تنحت من سمعتك تمثالاً . وللناس حق فيما يرجفون وما يظنون، ان امرأة وحيدة في بيتها ، لا دخل للرجال في شؤونها . وان رجلاً يعرض سمعته للاراجيف والظنون ليس بالرجل الذي يريد ان يكون

بريئا . وما اكثر الرجال الذين يستسيغون هذه التهم تلصق بهم ، كأنهم يتباهون بكونهم ذوي تأثير على النساء ..

ـ اراك تطوحين برأيك يا امي حتى الشطط . بالرغم عما اعهده فيك من صفاء السريرة ونقاوة الضمير ..

ـ انا ادرى بالناس منك . وادرى بما يحدث في البيوت المترفعة من التهاويل المخجلة . ان معرفتك بهذه الاحاجي كمعرفتي بلاهوتك وفلسفتك . فالعالم غير الدير الذي تلقنت علومك بين حواجزه وقوانينه !..

ـ ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟ انا لن ارضى ان تقابل هذه المرأة على حدة . ان النساء مهاو مخيفة ، مطلة على سحيق الاعماق . والخوف من العثور ، يضع التخاذل في الاقدام فيحدث العثور !..

سكت طوبيا حائراً مشدوها لا يدري ما يقول . ان امه على حق . وقد شعر بالخوف من العثور . وتحاشى السير على شفير الهاوية . ومع ذلك فيرى نفسه انه يريد ان يكون مطلا على اعماق المرأة !.

ان في عيني نجلاء جاذباً لا يستطيع طوبيا اتقاءه إلا بالابتعاد عن نجلاء .فهل يبتعد ؟ وان في صوت نجلاء نجوى سحرية لا يفهمها إلا الذين يعرفون النساء . وطوبيا لا يعرف امرأة على الاطلاق ، انه في العشرين من سنيه ، ولكنه بريء كابن العشر فماذا يجيب أمه ؟ إنه يراها معجونة عجناً بالاختبار . بل يراها ناضجة حتى الذوبان . فان تكلمت ، فكأنها تقرأ سجلاً من سجلات الطبيعة .

وان حظرت فكأنها ترى بعينيها مـا سيراه ولدها بعمله ، فماذا يقول وقد افحمته وسدت بوجهه منافذ الخروج ؟

وهكذا سكت طوبيا ، وامه ترقبه كأنها تصغي الى همس نفسه في نفسه ..

بل كانها تسير مع الصور التي يراها في مجرى افكاره ..

وتكلمت الام : أأكون ازعجتك يا ولدي ؟ ان قلب الام مرآة تنعكس فيها طيوف الاهوال التي تعترض حياة الولد قبل ان يراها الولد . فلا تستغرب ! ولا تعجب من ان تصل الى حيث تقتل شبابك وتذل مشيب امك لانك لست اول شاب يضيع عفته في مهمه هواه ! ..

انتفض طوبيا خائفاً . وصاح بصوت يضغطه الرعب :

عفتي ؟! لا وروح قيصر الحلبي انها ستظل كنزي وثروتي !

قال هـذا ونهض في شبه ثورة كانه لم يطق افراط امه في نثر الآراء ! ..

فلذاته في عربة !..

في الغد كان طوبيا في عربة رصاصية اللون ، يجرها جوادان مضمران ، مطهمان ، ووقع سنابكها يسيطر على السكينة الحالمة في طرقات الجبل ..

وكان طوبيا مسنداً رأسه بكفه ، يهتز يميناً ويساراً واماماً ووراءً ، مستسلماً لافكاره الجامحة في مطلع حياته الجديدة ...

وكان في استسلامه حائراً لا يدري من امره الا انه ذاهب الى القرى المنتثرة في ضواحي بيروت الجبلية ، ليرى زبن ابيه ، ويطلب اليهم اعادة ما اخذوه من ابيه ...

ولكن كيف يهتدي اليهم ؟ وماذا يقول لهم ؟ انه حيي خجول ، يفضل ان يكون فقيراً على ان يجرح عاطفة رجل رب عيلة فقيرة لاجل النقود . فما هي النقود ؟ واية صلة لها بمواهبه وميوله ؟ . ان امه تظلمه بمثل هذه المهمة المادية ترسله لاجلها ، وهو ابن الفن وابن مدرسة الروح .. أليس من الواجب ان تصبر امه على هؤلاء الفلاحين المساكين ليأتوا إليها ملبين ضمائرهم كما فعل الياس امين الخوري ؟ ..

وآلمه ان يكون ثقيل الوطئة على ابناء الارض . آلمه ان يذهب اليهم فرداً فرداً كأنه جابي السلطة الغليظ الجاف . وهب أنهم انكروا ، وابوا الدفع ، فماذا يصنع ؟ أيقود قطعانهم ؟

أيسوق دوابهم ؟ أيستعيض بابقارهم ؟ انه الظلم الذي لا مبرر له . انه الندم على العمل الانساني الذي عمله ابوه معهم ! ..

وشاء ان يجد مخرجاً يقيه الاصطدام باولئك المديونين لئلا يفقد اعتبار ابيه في نفوسهم . واذا ببوق العربة التي تحمله ، يطلب مروراً من عربة ثانية واقفة في عرض الطريق لا تستطيع انحيازاً . وكرر الحوذي الطلب بدفعات شديدة من بوقه . ولكن المركبة واقفة لم تتحرك ، فما دهاها ؟ وانحدر الحوذي من عربته غاضباً شاتماً . فوجد ان احد جوادي العربة ساقط ولا يستطيع الحوذي الواقف انهاضه . فراح الحوذيان يتعاونان ، ولكن على غير جدوى . فرأى طوبيا ان ينزل ويسعفهما . وما كاد يصل الى العربة ، حتى رأى نجلاء في المركبة الواقفة ..

– سيدتي انتِ هنا ؟.

– الم تدرِ أني هنا ؟

– لا !

فافتر ثغر نجلاء عن ابتسامة براقة وقالت : لقد بعثت اليك ببطاقة اخبرك بها اني ذاهبة اليوم الى زيارة جوزيف وطلبت اليك ان تلحق بي اذا لم ترد ان تكون معي في عربة واحدة ..

– ثقي باني لم اتلقَ اية اشارة ..

– فالى اين ذاهب اذن ؟ .

– سأخبرك يا سيدتي ، قال هذا وراح يعاون الحوذيين بانهاض الجواد .. وكان طوبيا شديداً متين البنية . وبعد جهد

متعب وقف الجواد ولكن على ثلاث فقط ، لان رسغه رض وليس بامكانه ان يدني حافره من الارض ...

وتقدم الحوذي يعلن السيدة نجلاء مصيبته ويعتذر عن اتمام السفرة معها . وقبل ان تجيب الحوذي ، سألها طوبيا : أتريدين ان تكملي طريقك في عربتي ؟ .

فقبلت شاكرة وتهلل وجهها بالفرح العميق .. وانحازت العربة الساقطة قليلاً . ومرت الثانية تحمل طوبيا ونجلاء ..

وانطلقت العربة تحمل قلبين خافقين .

وتكلمت نجلاء : أتعتقد اعتقادي ان الصدف مواعيد يفرضها الغيب ؟ .

فاجاب طوبيا دون ان يلتفت الى نجلاء: بل اعتقد ان الغيب يتراءى من جمال الصدف

فضحكت نجلاء والقت برأسها الى المستند الخلفي، كأنها وجدت بتحديد طوبيا جمالاً وشعراً ، ثم قالت :

لم تقل لي الى اين تتجه في عربتك ؟

– ان للمرحوم ابي اصحاباً شئت ان اتعرف اليهم ، لان مصالح مادية تربطنا بهم ..

– وكيف اكمل طريقي الى حيث جوزيف ؟

– اوصلك واعود ..

– شكراً يا طوبيا . كم انت لطيف ..

ولكن طوبيا لم يجب . فساد السكوت ..

كان الوقت صباحاً وهواء الربيع الفاتر يحمل في امواجه

النفحات الشذية المنعشة . وكانت الهضبات الخضر متوشحة باجمل ازياء الفصول ، وابهى الوان الطبيعة .

وسبحت عينا نجلاء ترف فوق مسارح السحر . بل سبحت كأنها ولهى بهذه المشاهد الشعرية التي تولد في النفس عطشاً الى الجمال ، وتحدث في القلب جوعاً الى الحب ..

وسألت نجلاء رفيقها : أرأيت اجمل من الربيع ؟.

فقال : ليس الجمال في الفصل يا سيدتي ، بل في العين التي تدرك اسرار الفصل . فرب جمال يملك شعورك لا يستحق الالتفات في عيني سواك !..

– اما انا فاني احس هذه النسمات المخملية ، ترفع نفسي الى اعلى ذروة من ذرى الشعور . وانت يا طوبيا ؟ ألم تشعر بان في قلبك تغييراً ؟.

اتقد وجه طوبيا حياءً واطرق ولم يجب ، اما نجلاء فظلت تتكلم : لقد تعرفت الى جوزيف في مثل هذا اليوم ، منذ ثلاث سنوات . لذلك فاني احسب هذا اليوم عيد حبي الاول : وردد طوبيا في نفسه ، حبها الاول ؟ وهل للحب مراحل وارقام ؟ ومتى يكون الثاني ؟ ..

وانطلقت من فم نجلاء صيحة فرح . فاجفل طوبيا . وقال : ماذا ؟!

– ألم ترَ جوزيف ؟ قف يا حوذي . ان هذا الفارس يود ان يراني ..

وقفت المركبة . ووصل جوزيف معتلياً جواداً .

فنادته نجلاء : جوزيف ! انا هنا قف ! وحنا الفنان هامته ليرى من يكلمه ، ثم صاح مسروراً نجلاء ؟ انت هنا ؟ ما جاء بك ؟ وطوبيا ايضاً ؟ انه لصباح جميل تحمل تباشيره الفأل الجيد ! ..

ثم لوى عنان فرسه ونزل متهللاً . وهبطت نجلاء من المركبة وتقابلا مقابلة تجلى فيها الحب الزوجي الصادق : ورنت القبل مع ما يرن من زقزقة العصافير وهينمة الانسام .

وخفق قلب طوبيا خفقاناً لم يمر في صدره قط .. وراح يرقب نجلاء مجارياً اياها في قسمات وجهها ، وحركات جسدها . فان تبسمت تبسم وان عبست عبس وان القت مرفقها على كتف زوجها ، القى مرفقه على العربة ، فكان مأخوذاً بها كأن سلكاً يحركه عندما تتحرك .

وتقدم الفنان من طوبيا مسلماً . فمد طوبيا يداً لم يخفَ ارتعاشها وهنأه بسلامته ، واظهر سروره بعودته . فشكره الفنان وقال : غداً صباحاً يكون المثال عندي . انه لرجل شديد تغار الجذوع من هيكله ! . وسابدأ غداً بالعمل فكن على استعداد .

واقتربت نجلاء تستمع لزوجها فربت الزوج كتفها وسألها: لم تقولي لي الى اين انتما ذاهبان ؟

– الى حيث كنت يا عزيزي ، ان رسالتك اقلقتني..

فضمها اليه وقال : لقد عدت سليماً فلا تخشي .. اما الان فعلينا ان نعود الى بيروت ..

قالت : وكيف نعود ؟ ان هذه العربة لطوبيا . وهو ذاهب

بتهمة خاصة . اما عربتي فقد كبا جوادها على الطريق ولم تستطع ايصالي . .

فقال طوبيا . لا باس يا سيدتي . انتما تعودان في العربة وانا اكمل طريقي على جواد سيدي . .

فقال الفنان نعم الفكرة فكرتك . على ان تكون حذراً ان جوادي جموح فلا ترخ العنان . .

•

عادت العربة الى بيروت وطوبيا يرقب عجلاتها ، كأن قلبه عالق في دوائرها . وهكذا ظل واقفاً حتى توارت وراء اول هضبة . .

ومشى طوبيا يقود الجواد . وصهل الجواد كأنه يحتج على عودته من حيث أتى ، او كأنه يريد صاحبه الاول . واصغى طوبيا الى وقع السنابك البطيئة كأنها دقات قلبه السريعة . وعاد يفكر . عاد يعرض ما مر عليه منذ المساء الماضي . وفكر في نجلاء . انها امرأة ساحرة ولكنها بريئة . وتراءت له امه خائفة من المرأة ، وسمع صوت امه يرن في ضميره : « ان النساء مهاوٍ مخيفة ، مطلة على سحيق الاعماق . والخوف من العثور يضع التخاذل في الاقدام فيحدث العثور !. . » ما هذا الصوت الصادق النبرات ، الجهير الكلمات ؟ ما هذه الصورة ترسمها امه النقية في متجه حياته ؟ وهو في بداية حياته .

نعم انه في بداية حياته . لان الحياة تبدأ يوم يشعر الانسان بمعنى لنفسه ، وقد بدأ طوبيا يشعر . لقد بدأ يدرك ان القلب

الذي يترجّح لينظم مسير الحياة ، انما هو اضعف من اعراض الحياة !

ولكن كيف يضعف القلب وهـو قوة القوى في الهيكل الانساني العجيب ؟ وتنهد طوبيا طويلًا ، تنهد بألم جارح ، تنهد قائلا : القلب ارجوحة الحياة . والحب ارجوحة القلب .

ولفظ الحب باجهاد . وتصبب العرق حاراً على وجهه . فمسح وجهه بكمه دون ان يعي ومشى ضائعاً ، تائهاً ، غريباً مستوحشاً ..

ومر براعٍ يهش لقطيعه ويغني . انـه صوت الحرية ينطلق في هذه الجبال المخضلة الاديم . المطرزة المسارح ، المضمخة النسيم ! بل صوت القلب الخلي الذي لم يقف على المهاوي ، ولم يخشَ العثور ..

واصغى طوبيا الى الغناء . ولذ له ان يسمع مقطعاً من قصائد الفطرة في ارض الفطرة ، انه الرداء الموافق للهيكل . انها العتابا الحنون ، الرقيقة الدقيقة الشعور ..

وكان الراعي غلاماً املد العود ، طري الوجنتين لم يعلق على اساريره همّ ، ولا جفت في عينيه كآبة . كان يستضيء فرحاً كأنه مطل جديداً على الحياة ..

ولما قرب منه طوبيا حياه تحية لم يسمع طوبيا اعذب منها رنة ، ولا اصفى اداء .. « الله معك يا سيدي »

فرد طوبيا : حفظك الله يا صغيري اللطيف ..

— منذ هنيهة مر هذا الفرس من هنا ، وكان يعتليه « خواجه » وها اني اراك تعود به فاين ذهبت بصاحبه ؟

فضحك طوبيا وقال : ألا يمكن ان يكون هذا الفرس غير الذي رأيت ؟ ..

– لا يا سيدي . انـه الفرس عينه ، وقد اجفل القطيـع عند مروره ..

– ولِمَ لم يجفل القطيع ثانية ؟

– لا يجفل القطيع وقد رأى زيك زي البلاد ! ..

– وما شأن الزي باجفال القطيع ؟

– الغريب في زيه غريب في شؤونه، لقد حييت الغريب فنظر إليّ غاضباً . ولما ضحكت ، زمجر كأنه يريد افتراسي .

– انه لفضول منك أن تلقي تحياتك على كل عابر طريق ..

– انـه ادب وذوق يا سيدي ! لقد علمني ابي ذلك وانا لا اخالف لابي علماً ..

– من هو ابوك ؟

– اعطيك اسم ابي بعد ان تثبت لي انك لست جابياً ..

– لا تخف انا رجل عادي مثل ابيك ..

– ولكن ثيابك جميلة وجديدة . فابي لا يملك مثلها ، فمن تكون . وما اسمك ؟

فضحك طوبيا وقال : طوبيا ..

– طوبيا ؟ ! اسم جـديد ايضاً . لم اسمع بمثله . شكراً يا سيدي . ان اسم ابي « بطرس الدحداح » ..

واصغى طوبيا الى الاسم ، واداره في ذاكرته يعرضه على ما فيها من الاسماء . فاين سمع به ؟ ومـد يده الى جيبه وقرأ في

لائحة الدبون وراح يمر بسبابته انحداراً، ثم اوقفها وقال : انه هنا.

فقال الراعي مستغربا: ألم تقل لي انك لست الجابي ؟ فلمَ تحمل اسماء الناس كلها في جيبك اذن ؟ ان ثيابك الجديدة اوهمتني بانك لا تكذب. والا لكنت كتمت عليك اسم ابي . ان ابي سيضربني اذ يعرف اني وشيت به لرجال الحكومة ..

– لا تخش يا . . دحداحي الصغير. ان اباك سيكون مسروراً جداً بي ، لانه صديقي ..

ومشى طوبيا يجر جواده وفي رأسه الف سؤال ولا جواب في قلبه ..

•

طوبيا في قرية من هذه القرى المتناثرة هنا وهناك في الجبال المطلة على بيروت . لقد تجمع عليه الاولاد مستفهمين بعيونهم البراقة الاحداقة اللطيفة المآقي . انهم يرقبونه معجبين بثوبه الجديد من طربوشه الى « قمبازه » حتى زناره الحريري . وكان طوبيا جميلا ناعم البشرة . وكانت نظراته تشجع الاولاد فيقتربون منه مستأنسين . وساله احدهم : اتريد ان اسقي الجواد ؟ فاجابه طوبيا باسماً : انه جموح يا عزيزي واخشى ان يرميك ! وساله ثان : من تريد يا معلمي ؟ فقال : الياس امين الخوري . أتعرفه ؟.

فقال : انه خالي يا معلمي

– ما اسمك ؟

– شاكر نجا .

– خذني اذن الى بيت خالك يا شاكر .

ومشى الولد يتبعه طوبيا مستسلماً . وما كادا يسيران خمسين خطوة، حتى قال شاكر : هـذا بيت خالي ! وقد تكلم متباهياً كأنه هدى طوبيا الى كنز . .

ولما دخل طوبيا البيت ، ترحبت به سيدة المنزل وسالته عن حاجته ، فقال انه يود ان يرى الياس امين الخوري .

فقالت : انه زوجي . فمن تكون يا سيدي ؟.

– طوبيا الحلبي .

– أتكون ابن المرحوم سيدنا قيصر ؟

– نعم يا سيدتي . . .

فعادت تكرر الترحاب ، وتحاول ان يكون صوتها اكثر رقة ولطفاً من ذي قبل. وقدمت له كرسياً ليجلس على «المصطبة» المشرفة على بيروت . وجلست تتحدث اليه : ان الياس في الحقل يا سيدي ولا يعود قبل المساء.على اني سابعث من يدعوه بسرعة. .

– لا . دعيه في شغله . وسأعود مرة ثانية .

– أيمكن هذا ؟ فليس من شغل هام فالاولاد يقومون بالعمل الذي يقوم به ابوهم . وليس هناك اكثر من تقليم الكرمة . وتشذيب ما نشز من جذوع في شجيرات التين . .

– وكم يبعد الحقل من هنا ؟..

– صلاة مسبحة يا سيدي !..

ونظر طوبيا الى المرأة معجباً ، مفكراً . ما هذا المقياس الجديد الذي تعدل به مسافة الطريق ؟ أيكون كل ابناء الجبال

يسيرون هذا السير الفطري الجميل ؟ اذن لا غرابة في ان يكون الباس ذا ضمير حي ما دامت هذه زوجته ..

صلاة مسبحة ؟. انها تقيس الطريق بالصلاة والابتهال لا بالذراع او الساعات . وهذا ما يدل على انها تصلي في طريقها الى الكرم . فاية ثمار تجني من هذه الجفنات البلورية العناقيد ؟..

وتهيب طوبيا لدى المقياس الجديد . وعادت الى رأسه فكرة الكهنوت . فتنهد في اعماق نفسه ، وهمس في هذه الاعماق : ما اجمل تعبير الايمان !..

وكأن المرأة شعرت بان في نفس طوبيا كلاماً .فعادت تحدثه معتذرة عن كون بيتها ليس جميلاً ، انه مسقوف بالروافد والاغصان . ذو مسكنين ، فقط . واحد للثيران والآخر للعيلة.

كان حديثها مقتضباً متنوعاً ، ولكنه حديث امرأة فاهمة كيف يجب ان تحدث رجلاً ..

وكان طوبيا يرى كل شيء جديداً في هذه المرأة . وربما رأى كل شيء غريباً . من ثوبها الفضفاض الى لثامها الشفاف الذي يلف رأسها ولا يبدو سوى عينيها ، وانفها وقسم من فمها . الى نطاقها العريض الذي تشد به وسطها .

وراح يقابل بين نجلاء الحديثة الزي الغربية المنهج في لبسها ومشيتها . وهذه المرأة العاملة المحافظة على تقاليد الجبل . وسأل نفسه : ما بالي امزج نجلاء بكل شيء ؟ فاي شأن لهذه المرأة المتأنقة في سير حياتي ؟ أأكون ضعيفاً لدرجة التوهم بان نجلاء هدف تفكيري ؟ على انه لم يتلقَ جواباً من هذه النفس وانما شعر بعرق

حار يتصبب من جبينه ، فالتقطه بمنديله ، وسأل المرأة الجالسة اليه : ألديك كاس ماء ؟.

فاجابته باحترام : لديّ كل ما يامر سيدي . أتريد كاساً من اللبن بدلاً من الماء ؟ اني اراك تعباً وعرقك المدرار ينم على ما في جسدك من اجهاد الطريق . والماء لا يشفي غليلاً . فاذا ما شربت ماءً رأيت نفسك تطلب المزيد، اما اذا شربت لبناً تبترد وترتاح.

– شكراً . اعطني لبناً ان شئتِ ..

ونهضت المرأة بسرعة ونشاط ، وجاءته بطاس دهاق من اللبن الرائب، وراح طوبيا يتحسى بلذة وشهية لم يعرفهما في حياته قط..

ووقفت المرأة امامه تسأله عن اسعار الصابون والخام والزيت، وتشرح له مشاكل العيل ولوازمها . وطوبيا يصغي بانتباه ، ولا يجيب لانه لا يعرف شيئاً عن احوال المدينة . ولا عن نظام البيوت . ولكنه صارحها اخيراً ، بانه يجهل كل شيء لانه في مدرسة اكليريكية ..

فشاع الفرح على وجه المرأة وهتفت بفرح : ستكون كاهناً ؟ يا لسعادة امك ! انك ستكون كاهناً جليلاً وجميلا . فاذا ما استرسلت لحيتك الشقراء على هذا الصدر العريض . بدا وجهك الابيض كالبدر المطل من سحابة !..

ارتجف طوبيا خجلاً وارتسمت امام بصيرته صورة الكاهن الجليل الجميل . فهاجت نفسه شوقاً الى الكهنوت . وخفق فؤاده بحب المسيح ، وعاد العرق يتصبب من وجهه . اما المرأة ، فظلت تتكلم : لقد اخبرني الياس يوماً ان اباك سيدي قيصر اخبره

بان وحيده في مدرسة اكليريكية . بيد أني فكرت فيك غلاماً صغيراً . اما وانت « شاب كقلب النهار » فما اجمل مـا تكون دعوتك قريبة .

اما طوبيا فظل ساكتاً تتصارع في نفسه قوتان فالى اية منهما ينتصر ؟ ان حديث هذه المرأة حبب اليـه الكهنوت وان لطف تلك المرأة حبب اليه الفن ، فكيف يتجه ؟

وتولته حيرة مذهلة لم يجد مخرجاً منها . وردد في نفسه ان باستطاعة المرأة ان تحول الرجل كيف تشاء ! ان كلمة واحدة من فم امرأة بمثابة سفر من هاتيك الاسفار التي قلبت وجه العالم !.

وحول نظره الى زوجة الياس امين الخوري ، الجالسة اليـه ، انه يدرس معانيها ويصغي الى حديثها . ان وجنتيها تستضيء بالبراءة . وعينيها تشعان بنور الايمان . وصوتها يرن بالسذاجة القروية التي لم تعرف الرياء !.. انها صورة الام اللبنانية الصحيحة ، هاتيك الام التي تبعث في قلوب بنيها محبة العمل واحتمال المشاق . وشاء طوبيا ان يتخلص من موقفه ، ويسأل المرأة هل يطول مجيء زوجها ؟ وسألها .

فقالت : قـد يكون اوشك ان يصل ، وتطاعت الى الباب فرأت زوجها يدخل . فقالت هوذا اقبل ..

ودخل الياس ، ولكنه لم يعرف طوبيا انه ابن الحلبي ولكن الزوجة اخبرته كأنها تزف اليه بشرى هامة . فهتف مرحباً ، ورفع ذراعيه الى العلى كأنه يريد ان يضمه الى صدره ، او يريد ان يطير فرحاً .

وكان الياس بثياب العمل . الثياب التي يتدفق الذهب من اردانها الممزقة . هذه الثياب التي رفعت مجد العالم بما قدمته للعالم . وهل غير العامل يستطيع ان يفاخر بهذا المجد التقليدي الدعيم ؟

ومد طوبيا يده الى الياس مسلماً فاخذ الياس هذه اليد الناعمة بكلتا يديه وهزها بشوق،فشعر طوبيا بان يده تكادتتحطم بين كفي الياس الشديدتين الخشنتين، ولكنه تجالد ، وتمالك ، وتكلم الياس وما برح ممسكا بكف طوبيا : ما هذا الصباح السعيد يا سيدي . اية هبة هذه التي اجدها في بيتي الحقير ؟ واي شرف نالني وانا في غفلة عن استقبالك ؟ أتريد شيئاً ؟ مر فتراني طوع امرك ، ان بيتي واولادي وارزاقي رهن اشارتك . ان افضال ابيك ما برحت تطوق عنقي !

فاغرورقت عينا طوبيا لدى هذه العاطفه النبيلة وسحب يده بلطف من بين كفي الياس وقال : انت تعلم ايها الصديق ان ابي مات ومشاكل تجارته ما زالت تستصرخ ذوي الهمة امثالك . وقد عثرت على دفتر ابي ووجدت ان مبلغاً باهظاً مبعثراً هنـا وهناك ، بين ايدي الناس، ولا مستند لنا الا هذا الدفتر وضمائر المديونين . وحيث اني حديث العهد بهذه المشاكل ، رأيت ان اكتب جدولا باسماء المديونين واعهد اليك بالتحصيل لقاء اجرة تستعيض بها عما تفقده من تعطيل ايامك .

فصاح الياس : اجرة ؟ ! ألم اقل لك اني طوع اشارتك ، فاين الجدول ؟

— اليكه !

فاخذ الياس يمر بنظره على الاسماء وقال : ان هؤلاء كلهم ذوو ارزاق وذوو ضمائر .

ـ اذن فقد انتهت مهمتي ، ويجب ان تعتبر نفسك طوبيا الحلبي نفسه .

ـ ولكنني بحاجة إلى تفويض بتوقيعك ليعتبرني المديونون مفوضاً رسمياً .

ـ صدقت . الديك ورقة ودواة ؟

ـ يجب ان نكتب التفويض عند شيخ القرية . فيكون له صفة رسمية اذ يمهره الشيخ بخاتمه الرسمي .

●

وذهبا الى الشيخ . وطلبا اليه كتابة تفويض . ولكن الشيخ رأى نفسه عاجزاً عن كتابة التفويض فادعى ضعف البصر، فكتب طوبيا التفويض وصادق عليه الشيخ ومهره . فقدم له طوبيا ريالاً مجيدياً وذهب . ولما شاء الياس ان يبقيه عنده رفض شاكراً مدعياً ان اشغالاً هامة تدعوه للاسراع ..

المثال !..

طوبيا في المحترف ، امام المثال الشديد البأس العريض المنكبين المفتول العضل . فهناك جسد شوته الشمس فحولته كالخزف المحروق . وهناك عينان تنطلق منهما شظايا القوة والمناعة والجبروت . وهناك كتفان عريضتان ينبو عنهما منجل الموت . بل هناك ظهر كأنه النورج الذي رسمت عليه السنابل خطوطاً صقيلة الاديم ، لماعة البشرة .. ووقف المثال امام الفنان الوقفة التي ارادها الفنان ؟ .

رأس مرتفع يتطلع الى ما وراء المنظور . وخطوة متحفزة للوثوب . وذراع يمتد الى الامام مشيراً بسبابته الى المجهول المتواري ، وجنب يستند الى شجرة معرقة الجذع ناتئة القشور . اما شعره فكان مسترسلاً على صدغيه بوضع مستهتر لا مبالاة في نظامه ؟..

ونظر الفنان الى التمثال الحي . وضحك ضحكة الانتصار .

وقال : هذه هي الخطوة الاولى . ان آدمي الذي سترى غير آدم موسى الذي قرأت . انه يشير الى الآباد التي لم يلدها الزمن بعد . ان زوبعة كامنة في قدميه ، وستنطلق هاتان القدمان عندما يهب اعصار زوبعته ! وستقف حواء قربه ، ترقب هدف رفيقها

بابتسامة تجتذب اليها كل قلب . وكل عين . وكل شعور !.

هكذا يجب ان تظل ايها الرجل ! نصف ساعة لا اكثر وستعود الى مثل موقفك غداً ! قال هذا ، واخذ قلماً فحمياً ، وراح يمر به على الصخر الجاثم امامه صعوداً وانحداراً ، ويميناً وشمالا ، وذلك بحركة سريعة مبهمة الاتجاه ، كثيرة التعاريج والزوايا . واذا بالرجل يبدو شيئاً فشيئاً . واذا بالتمثال يصير خيالاً على الصخر المعد ليصير جسداً !.

انتهت مهمتك اليوم . وغداً في مثل هذه الساعة يجب ان تكون هنا !..

وتحول الرجل يرتدي ثيابه ، ولبث الفنان يمعن بالرسم تعديلا واصلاحاً ، ولما رضي عن عمله جلس الى مكتبه يشعل غليونه ويمتصه بشهية ، محدقاً الى خليقته الجديدة

كان الرسم بالحجم الطبيعي . وكان الصخر اصفر اللون وطني « المقلع » نقياً صافياً يقبل الصقل كالرخام .

ونهض الفنان يصوب ازميله الى هذه الخطوط ينقرها ويخرج من معالمها اوضاعاً ناتئة . ووقف طوبيا جائعاً الى الفن يمضغ بعينيه حركات الايطالي الفنية ، ويزدرد بشوقه رشاقته ومهارته ، شاعراً بقلبه يتحفز للوثوب من صدره ليرافق الازميل والمطرقة في سيرهما ..

وهكذا مضى على هذا النحو ثلاثة اشهر اصبح طوبيا خلالها

يستطيع ان يمسك بالمطرقة والازميل ويزيل امام معلمه بعض العوائق المعترضة ازميله الدقيق . وفي الشهر الرابع كان التمثال تاماً ، إلا بعض دقائق ابقاها الفنان ليتمها في هنيهات الالهام ...

ابن نجد حوا ! ؟ ..

اعلنت جريدة « الجنة » ان احد التمثالين الموكول امرهما الى الفنان الايطالي المشهور ، قد تم . وسيزور معالي رستم باشا نفسه محترف الفنان ليرى موقف آدم الجديد ويعلن رضاه عن العمل ، وذلك قبل انتقاله الى مركزه الصيفي في قصر بيت الدين.

وقرأ الفنان الخبر . وسر بان يزوره متصرف الجبل في محترفه فيرى آدم وغيره من التماثيل الخالدة ..

وقد اوعز الى زوجته نجلاء ان ترتب البيت وتبالغ بزينته ، وتستعد على بعض الضيافات ، لعل الباشا يشرفه في بيته ايضاً !

قال هذا وقهقه قهقهته المعروفة ، وراح يسخر . وراح يوزع القرصات اللاذعة ، بدون حساب او تهيب . ولما انتهى من مجونه كلم نجلاء قائلا : أعرفت يا نجلاء ؟ سينيط الباشا بصدري وسام الشرف العثماني ، وسيهديني طربوشاً مزيناً بالهلال والنجمة ذات الخمسة اشعاع . وساصير تركياً مثلما صار رستم باشا نفسه . ومن يدري فقد اكون يوماً متصرفاً على الجبل ! ..

ثم سأل طوبيا مازحاً : ألم تفكر يوما بان تكون متصرفاً ؟ فابتسم طوبيا ابتسامته الهادئة ولم يجب . اما نجلاء فقد نظرت الى زوجها نظرة تأنيب ، ومض في نورها الاشمئزاز . فقال الفنان : عفواً يا سيدتي لقد اخطأت ، اني قليل التهذيب اليس كذلك ؟ .

ثم قهقه متكلفاً ، ثم تحول من حالة المزاح والمرح الى حالة الجد والغضب ، وانتهرها بفظاظة : اخلي لنا المكان . ان الوقت الذي تحتكم فيه المرأة بالرجل لم يأت بعد! انه باق غصة في حنجرة الزمن! ألم اقل لك مراراً ان شأني خاص بي ، وما انت سوى منديل اتمخط به ساعة يدركني العطاس ! اخرجي ! تواري. لعن الله الجمال الذي يغري العباقرة ليكونوا العوبة في ايدي النساء ! ...

•

خرجت نجلاء باكية، ومشى الفنان غاضباً . اما طوبيا فوقف مشدوهاً امام غرابة الرجل وسرعة انحداره في مزالق الغضب ! وبعدان خطا الفنان بضع عشرة خطوة ، كلم طوبيا بلهجة تدل على هدوء العاصفة ، فقال :

اين نجد حواء ؟ اني اريدها امرأة تذوب اغراء ، وتتجمد سحراً ، وتنتصب معبوداً لعشاق الجمال !

فخفق قلب طوبيا خفقانا كأن يد الخطيئة ترافق مجراه . وبدت امام بصيرته نجلاء ، كأن زوجها رسمها ببضع كلمات ...

وعاد الفنان يتكلم : قلت لك يوما اني اريد حواء لا تشتهي، أتدري لماذا ؟

— لا يا سيدي !

— لتظل شهوة في عيون الرجال ، لان خلودي في سطوة جمالها ! ..

— ولكنك تطلب المستحيل .

— المستحيل ؟ ما هذه الاسطورة التي يضيفها العالم الى اسباب

جهله ؟ ما هذه العثرة التي تعرضها الاجيال في سبيل المجدين ؟ انها في نظري جمجمة اسد بارزة النيوب ، يخافها الطفل وتجفل منها المرأة . اما الرجل الرجل ، فانه يقذفها بحذائه ساخراً بقوة الاسد التي تحولت جمجمة !

هذا هو المستحيل ! قوة اماتها الغرور، بل وهم جلاه الثبات.. وسترى يا طوبيا اني اماوا جد حواء ، او موجدها ؟

– و كيف تريد حواء التي تجدها ؟

– طويلة كظل الضحى ، ناعمة كشفاه الزهر . خجولا كالبلور امام اللهاث ...

فعجب طوبيا للتحديد الشعري وقال : والتي توجدها ؟

– كمن ترى كل يوم .

وفكر طوبيا : من أرى كل يوم ؟ امي ؟ انها عجوز لا ينفق الجمال وهيكلها الجاف ...

●

قرع الباب ، ودخل باور الباشا حاملاً بطاقة من مولاه يعلن بها قدومه نهار غد لزيارة المحترف ...

الباشا

استقبل الفنان رستم باشا في محترفه ، استقبالا لم يعرفه سوى الذين امتزجوا بالعهد التركي امتزاجاً رسمياً .. ودخل الباشا ببزته الرسمية الموشاة بالذهب ، واوسمته اللماعة المرصعة بالالماس . ودخل وراءه نخبة من اعيان بيروت وموظفي الدولة ..

ومشى الباشا بين التماثيل بعظمة وخيلاء .. مدققاً هنا مهملاً هناك . محدقاً الى هـذا التمثال باعجاب والى ذلك بدهش . والى ذاك باستغراب . حتى وصل الى آدم تجاه النافذة الشرقية التي تنسكب منها اشعة الشمس في هذا الوقت ، فبدا امام فيض النور عظيماً جباراً ، تزيده اظلال اعضائه الناتئة قوة وعزماً . وتزيد الفن الصارخ في صنعه مجداً وخلوداً ..

أهذا آدم ؟.

سأل الباشا الفنان بلهجة تدل على الاستخفاف . فلمع الغضب في عيني الايطالي ، واجاب بصوت اجش . نعم !..

فقال الباشا : ان آدمك لبناني محض . ومع كون آدم أباً لكل البشر ، فكان يجب ان لا تدل عليه بسحة خاصة ، تميزه عن بقية الشعوب ..

ـ لا تنسَ يا مولاي اننا في لبنان . ويجب ان تكون آثار لبنان تدل على ميزته ومعنوياته ، لان الآثار جواهر التاريخ .

ومع ذلك ألم تجد لبنان غريباً عن نفسه في كل شيء ؟..

فنظر الباشا الى الايطالي باستغراب وقال ملاطفاً :

نحن في عرض فني ولسنا في بحث اسمي . ومع ذلك أنسيت انك ايطالي ؟.

– لا يا مولاي . ليس الايطاليون كلهم ينسون !.

وفضلاً عن هذا ، فاني ارى نفسي مجبراً على الاخلاص للسماء التي انتعش بشمسها . وللارض التي اتغذى بثمارها . لاني غريب . وعلى الغريب ان يكون ذا شعور !..

فغمغم الباشا – ذا شعور !.

وساد الصمت . على ان الفنان لم يرد ان يكون الصمت حديثه مع تماثيله . فقال : لقد حاولت جهدي ان يكون آدمي صورة عن القوى التي وضعها الله في الانسان البدئي ..

فانا اعتقد ان آدم جبار . شديد . منيع . لانه وجد كيلا يموت ، ومع ذلك ألبس آدم ككل عمل اولي ، قوياً غير مصقول ؟..

فضحك الباشا ضحكته التركية . ومر بيده يلامس زند آدم بلطف ، وانحرف عنه يحدق في تمثال الزمن . فوقف الفنان يشرح له دورة الايام وتقلبات السنين وتبدل ذريرات الرمال . الى كل ما هنالك من مآتي واحداث . وكان الباشا يصغي اليه وهو يتدفق بشرحه كأنه يلقي محاضرة في فلسفة الخليقة ، والغاية من هذه

الاجساد الضاجة بكل نقيض . الفائرة بكل ضار . السائرة بكل مدهش المولدة كل عجيب !..

ولما انتهى من شرحه . هنأه الباشا مصافحاً ، متفائلاً بالتمثال الثاني الذي ينتظره بشوق. ولما شاء ان ينصرف طلب اليه الفنان ان يشرف منزله فاعتذر ومضى ..

الرجل يبكي

وهذا اسبوع يمر ، وطوبيا لم يدخل المحترف ، ولم يتحدث لا الى معلمه ، ولا الى نجلاء . فقد مرضت امه مرضاً مفاجئاً كانت نتيجته ضعفاً في القلب واحتقاناً في الرئتين !..

على ان طوبيا لم يتوانَ في سبيل هذه الام الصالحة ، بل دعا الاطباء المشهورين في المدينة ، ليعالجوها ، وهكذا زال عنها الخطر ، ولكنها ظلت مهددة بالموت لدى اي تأثير يطرأ عليها ، ان فرحاً ، وان حزناً ..

واكتأب طوبيا جداً لحالة امه . وبكى كثيراً في غرفته خوفاً على حياتها . ولكنه لم يفقد شجاعة الرجل الحازم في الملم العصيب. بل كان دائماً يمنيها بالحياة الرغيدة ويقوي وهمها بالحقائق. ويزيل مخاوفها بالآمال ..

وسرت الام بعاطفة ولدها الشريفة . فادنت رأسه من فمها وقبلته بحب عميق ملتهب . علمه ان الام تشعل قلبها لتنير طريق اولادها !..

وبعد نهاية الاسبوع تحسنت حالة الام واصبح بامكان طوبيا ان يتابع عمله في محترف الفنان ..

وجرت الايام مجراها في حياة طوبيا الخاصة ، فتبدل بعض التبديل ، ورأى نفسه يحس احساساً جديداً . فيفهم دقائق الفن .

ويدرك بعضاً من اسرار الحيـاة . ويكتشف عدة نواحي من خفايا البيوت . حتى صار جديداً بكل شيء حتى بحديثه وزيه . .

وكان على اتصال متواصل بنجلاء . اذ كثيراً ما يقضي واياها الساعـات بين اخذ ورد . فيشرح لهـا حقائق الدين وتشعب المذاهب . ويحدثها عن الفن. ليصل الى كل ما هنالك من نتاج الثقافة العالية التي يتمتع بها .

وكانت نجلاء تصغي اليه مستعذبة حديثه ، وفي عينيها جوع الى الاستزادة من هذا الحديث ...

وسأل معلمه يوماً . متى تبدأ بجواه يا سيدي ؟..

فقال الفنان : ليتني انتهي منها يا طوبيا ! او ليتها تنتهي مني لكنت أنعم بالاً وارفع شهرة مني اليوم !..

اما طوبيا فلم يدرك المرمى من جواب معلمه ، فقال : أتنتهي قبل ان تبدأ ؟..

– أليست النهاية بداية يا طوبيا ؟ هل فاتك ان لكل عمل قرينة لا يتم بدونها ؟ أتجهل أن الاضداد حقيقة الحقائق ؟ .

الاضداد معان لمـا قبلها من اوضاع . فكما ان مذلة الفقر تريك رفعة الغنى . هكذا فان اللا شيء فراغ يتهيأ ليسع الاشياء ! وللفراغ حنين أعمق من حنين الامتلاء . وحنين الفراغ هو الذي يقودنا نحو الابتداع لنكون ذوي شهرة وذوي مجد ! .. فعندما تسألني متى ابدأ ، كأنك تقول متى تنتهي . وها انا اليوم افكر في نهاية حسنة . نهاية تجعلني رافع الرأس في عملي . خالداً في آثاري بعيداً في اطلاق صداي !

بيد اني لم اوفق بمثال لحواء بعد ، مع اني أري تمثـال حواء نقطة الانجاه نحو الخلود . لاني ارى نفسي عطشاً الى اجادته . جائعاً الى نهايته . مسحوراً بشوقي اليه ، مجنوناً بهيامي به !..

واذا لم ازل ما اريد يا طوبيا ، فاني افقد صوابي وتنتهي حياتي الملتهبة الى صقيع الجنون !..

– ولماذا يا سيدي لماذا ؟

فضحك الفنان ضحكة باكية وقال : لماذا ؟. لان نجلاء ممعنة في خـذلاني ساخرة بفني . متنكرة عليّ . كأني غريب جاءها ببدعة مخجلة !..

– وما شأن نجلاء بعملك وفنك ؟

– شأنها انها تصلح مثالاً !

– أتجعل من نجلاء مثالاً ؟! من زوجتك ؟!

– وماذا يمنع يا طوبيا ؟ أنظل مخدرين بالوهم ؟ و كيف اعثر على مثال اذن ؟ من اين لي امرأة سواها تتزلق العين على جسدها، والسحر ينير العين ؟ ومن اين لي جمال يلقي في الاحداق دروساً جديدة في علم الجمال ؟ و كيف اجد اعضاء متسقة يهيم بعضها ببعض كأنها عضو واحد !

انها حوائي في حياتي وعملي . انها ملكي واريد ان اتصرف بهذا الملك . اريد ان اسجل جمال زوجتي في مسير الاجيـال . اريد ان اعلم النـاس ان الفن لا يعرف عيباً إلا في نقصه !..

فاذا نقص الفن نقص الجيل . نقص التاريخ . نقص جوهر الوجود . وتلجلج صوت الفنان . واختنق جرسه في حنجرته .

وبرزت عيناه بروزاً مخيفاً . ثم ضرب مكتبه بقبضة يده وارتمى يبكي !.

ووقف طوبيا مشدوهاً امام بكاء الفنان. ولم يدرِ ما يصنع..

●

واجفل طوبيا من الصوت المباغت . واذا به يرى نجلاء..

لقد دخلت المحترف كالسهم ورفعت رأس زوجها بتلك الكف الجميلة . وناجته باعذب ما يمكن ان تناجي امرأة رجلاً : عندما يبكي الرجل تستيقظ في نفسه الطفولة ...

جوزيف ! ارفع رأسك ! حدق إلي ! ألا ترى رسمك محفوراً في انسان عينيّ ؟ أتبكي ؟ انت ؟ فماذا يصنع الخاملون اذن ؟ وماذا يصنع البلهاء المنبوذون ؟ وماذا يصنع المجرمون الذين يشتهون ان يروا زرقة السماء في ظلام سجونهم ؟..

رجل وتبكي ؟! عظيم وتدمع ؟! فيلسوف وتنهار ؟! فنان وترفع نشيجك بين تماثيلك الرهيبة الموقف المحترمة الاصغاء ؟!..

جوزيف ؟! حبيبي ! أنسيت أنك ذو مثل اعلى في المجتمع ؟ فكيف تسوغ لك العبقرية ان تشهّر بجسد زوجتك الذي قدسته الشريعة وسلمتك اياه النواميس شريفاً طاهراً ؟.. أتريدني بغياً يشتهيني الرعاع والسكارى ، ومتشردو الشوارع ؟..

أتريدني دون حياء ؟ دون ارادة ؟ دون حصن ؟!

ألم تدرِ أن المرأة تظل سحراً في العين حتى يصير جسدها مشاعاً للعين ؟

ان جواهر الاشياء خفاياها يا جوزيف . وان محرمات الحياة اقدس ما في الحياة ! .

أنسيت انك من المحافظين على الحشمة . المقدسين الفضيلة . الخاشعين امام مناعة الانثى ؟!.

رفع الزوج رأسه ، فبدت في عينيه اثار المعركة التي حمى وطيسها بين فنه الجائع الى الشهرة ، وشرفه الخائف من الوصمة . بل بدت عيناه حمراوين ، كأن دم قلبه تجمد في مقلتيهما ..

وقال : ان باب خلودي في انصياعك لأرادتي يا نجلاء . ان في جسدك جمالاً تسامى كثيراً عن جمال الارض ، لقد جمعت في هذا الجسد انسجام كل ما في الوجود من نساء . فلا تدعني لخزعبلات المحظرات ولا تؤخذي بخرافات التقاليد . كوني جديدة في حياتك ، وسيري بمقتضى الوحي الفني الذي يقدس المرأة بعجائبه ، ويعلن المواهب التي نالتها في الوجود ..

فقالت نجلاء : ان المرأة دون عفاف احرى بها ان تكون اشلاء تتبلغ بها الكلاب الجائعة في الطرقات المهجورة !

ـ اسمعي يا نجلاء . ليس العفاف في الكساء الذي اوجدته الخطيئة . بل العفاف كل العفاف في ان يكون جسدك حراً بحرية شرفك . منيعاً بقوة ارادتك !. بعيداً عن رعشة الفكر . نابياً عن قشعريرة الشهوة .. فاذا ما نضوت ثوبك لتكوني مثالاً للاباد المغمورة باتفاق الوجود ، ومقاييس البشر . فتكوني امامي كأنك وحدك في مستواك لا نساء تتورد خجلاً ، ولا رجال

يحترقون اندفاعاً .. وعندئذ يا نجلاء عندئذ فقط !. تهبط عليك المعرفة الفائقة ، فتنظرين الى نفسك كأنك دفقة من النور تمر على الاقذار ، لتنير طرق الناس ، وتريهم ما يطأون ، ثم تعودين من حيث دفقت اكثر نقاءً ، وانصع لمعاناً ..

وعندئذ يا نجلاء ! عندئذ فقط ! ترين زوجك يتوقل وثوباً قنن الشهرة . وتتناقل الاصداء اسمك رسماً . واسمه اطاراً ..

— جوزيف . انك لنشوان لا تدري ما تقول . أتفضل علانية فنك على سر حياتك ؟ أتريد ان تجعل من شطرك الحي تمثالا بارداً لا حياة فيه ولا حياء ؟.

فكر قليلاً ! تجرد من الوهم ! بدد عن عينيك غشاء الشهرة ! واطلب بعدئذ مـا تريده مني . انا التي احتمي بذراعيك اذا لم اجد كساءً ..

جوزيف ارحمني؟! لا تبدد السعادة التي تنتشر هناءً في حياتنا. لا تقتلني. انا تتمة كمالك . انا مستودع الهمسات الشعرية التي يبعثها قلبك في اويقات نجواك . انا حواؤك التي ورثت ورقة التين ارثاً ابدياً ليذكرها بالمخالفة البدئية . بل انا المرأة التي حقرها الرجل والطبيعة ...

قالت هذا، والقت برأسها الى الجدار تبكي بمرارة والم عميقين..

اما طوبيا فقد شعر بقلبه يذوب ويدفق ذوبانه من عينيها .

واما الفنان فقد انتفض عن مكتبه بشدة ونزق وقال : انا لا افهم لغة الدموع. ولا الين امام ميعان الوراثة .. انا اعبد الطبيعة

الام ، فتوحي اليّ ، ان كل مجرد جميل . وكل جميل مباح . وكل مباح ملك للاجيال التي تأبى الاستئثار ..

فشرقت نجلاء بدموعها . وقالت : انا ملك نفسي !..

فاحتدم الفنان غيظاً وصفعها على وجهها فتخاذلت وسقطت مغمى عليها ....

أنت حبيبي !..

ذهل طوبيا امام نجلاء الذابلة الجمال . الغائبة عن الحس . المرماة على التراب !.. بل وقف لاهثاً حائراً مضطرباً . أتكون ماتت ؟! وانحنى اليها يرفع رأسها الى صدره ويزيل عن شعرها المتهدل ما علق عليه من غبار الارض . وجس اطرافها ، فرأى ان الحياة ما برحت تسير في انباضها ، سيراً قلقاً . فراح يدلك صدغها وقلبها . وكان عرقها بارداً مدراراً . وكان لونها اصفر مكفهراً . وكانت بجملتها مستسلمة للغيبوبة المالكة عليها ادراكها .. واحتضنها باشفاق . ولامس جبينها بارتعاش . وحدق الى عينيها المطبقتين بوجل . ونظر الى ما حوله فلم يرَ سوى التماثيل الصامتة ترقبه مستفهمة . فخجل وارتعش ورأى نفسه يقترف ذنباً ضد العفاف وضد الامانة ..

وحاول ان ينسحب . حاول ان يترك هذه المرأة الطريح وشأنها . ان التجربة تطوق عنقه . وتشده الى قبول الخطيئة . ولكنه لم يقبل قط ان ينهار فنهض ، ولكن نجلاء استفاقت . وتشبثت به ونادته بصوتها الفضي الرنين : طوبيا !. إبقَ قربي ! انقذني ! انت عزائي أنت ... أنت ... حـ ...

وادركتها رعشة شديدة . رعشة سيطرت على صدرها فبدا يعلو وينخفض كأنها في نزاع . وترددت الحاء متقطعة دون ان

تستطيع ان تجمع منها كلمة. اما طوبيا، فكان يسمع بهذه الحاء، موسيقى ساحرة ترفع نفسه الى سعادة لم يذقها قط. موسيقى فتحت قلبه بلطف ورقة فرأى في هذا القلب عناصر عطشى لهذه النغمة السحرية، وشاء ان ينتهي هذا الخفقان. لتقول كلمتها. ولكن على غير جدوى. فضغط صدرها مرتعشاً ظاناً انه يوقف خفقانه، ولكن الصدر ازداد خفقاناً. والحاء تتردد بسرعة دون ان تنتهي بكلمة..

وطال الصراع! ونجلاء كالمجنونة تطوق عنق طوبيا بشدة وترتفع شيئاً فشيئاً اليه. وهو يلهث اعياءً وخوفاً، وبعد محاولات كثيرة هدأت ثورة نجلاء، ونظرت نظرة ذهول الى ارجاء المحترف. ثم بكت خجلاً. ثم نظرت الى طوبيا نظرة امتنان وقالت: انت حلم الله في البائسين يا طوبيا!.

فاجابها طوبيا وفي صوته هينمة غريبة: سيدتي! تشجعي لا تخافي. ما بالك ترتجفين هكذا؟ انا اخوك يا سيدتي. انا اخوك!.

فقالت وغصة جارحة تعبر حنجرتها: اخي؟! وقبل ان يجب عادت تبكي وعادت ترفر. فاوقفها بهدوء واسندها الى صدره، وقادها الى غرفتها لترتاح في سريرها.. ولما ادخلها الغرفة، وشاء ان يودعها، توسلت اليه ألا يتركها لانها ما برحت تحس دواراً وضعفاً قالت هذا وتحسست رأسها بيدها، كأنها تشكو زوجها الى طوبيا... ثم طلبت اليه ان ينجدها كي تصعد الى سريرها، ففعل!.

ونامت نجلاء نوما مضطربا. وجلس طوبيا قبالتها يحدق اليها فيرى كل ما فيها جميلاً. ولا سيما امتقاع وجهها فقد زادها جمالاً

على جمال . وسحراً على سحر !.. بل زادها جاذبا مهيمنا احسه طوبيا في نفسه . ولما شاء ان يتركها في غفوتها ، رأى نفسه مرتبطا برؤيا علوية ، فظل امام رؤياه ، وقلبه تائه في صدره كأنه زائغ عن محجره .

وسمع نجلاء تهذي . فماذا تقول في هذيانها ؟ واصغى طوبيا الى ما تقول ، فلم يسمع سوى غمغمة لا تستقر على لفظ . وتقدم طوبيا يصيخ باذنه قرب فمها . تقدم يلتقط هذه الغمغمات ليجمع منها كلاما . تقدم لعله يستنطق في غيبوبتها ما حرمته اياه في يقظتها . لقد اسمعته تلك الحاء المطاطة ولكنه لم يرضَ عنها ان تنتهي بالحلم .. فقد لفظتها مفتوحة كانها تقول حبيبي او حياتي ، فهل تكون ندمت ؟. ورنت كلمة الندامة في اذن نفسه . فشعر بغلطته ورأى نفسه خاطئاً . وهو بحاجة الى الندامة . ان نفسه تغوص بالجراح فماذا يفعل ؟. فرفع عينيه الى العلى وقال : اللهم ، احفظ نفسي !..

وانجلى هذيان نجلاء . انه صار كلاما صريحا . فماذا تقول ؟..

« طوبيا ان براءة عينيك حلم من احلامي . وان خجلك الجميل حاجة من حاجات نفسي . اما وجهك الوديع الممسوح بزيت التقوى . فهذا الذي احب !..

طوبيا اني مُدينة لك بحياتي . فانت حقيقة شعوري ، انت حبيبي !..»

اضطرب طوبيا متوهجاً ، واجفل مشدوهاً ولما شاء ان يبتعد عن السرير سقطت يده قسراً على جسدها فاستيقظت مذعورة ،

وعيناها تغوصان بالدموع المشتعلة ! ولما رأته قربها ، قبضت على يده بكلتا يديها وادارت حدقتيها دورة توسل ، فيها جمال ، وفيها اغراء ، وفيها حركة العين التي تريد ان تتكلم ..

فجذب طوبيايده يريد الهرب، واشاح بوجهه عن وجهها المنور بالجمال ، المشتعل بالجرأة ، المتألق بالحب . بل اشاح بوجهه عن انفاسها الملتهبة التي كادت تحرق فمه !

وشعر بقوة ومناعة . شعر بكره للعالم ومعمياته ومراميه بل شعر بنجلاء الجميلة الساحرة خنفسة مطروحة على مزبلة . ونظر الى فوق فتخيل ملاكا يحمل اليه اكليلًا مضفوراً بالورد والزنبق ، واوراق الغار ليضعه على رأسه، عربون ظفره على التجربة الكبرى ولما جذب يده ثانية ليتخلص ، وجد نفسه لم يستطع افلاتا اذ كانت يدا نجلاء اشد من محاولته اطلاق هذه اليد ! .

على انه لم يتقاعس لدى قوتها، بل جذب يده ايضاً بقوة الرجل الذي يأبى العثور في هاوية الذل . فكانت الجذبة شديدة غاضبة، فيها كره وفيها احتقار ، وفيها لعنة صامتة ! فاستوت نجلاء في سريرها قسراً عنها ولكنها لم تفلت يده .

ولما رأى جرأتها اقوى من طهارته ، صاح صيحة الذعر التي تنطلق ممن يرى نفسه في اشداق الموت : اتركيني ! انني كاهن الرب!

فجمعت نجلاء اجزاء قواها المتشعبة ضعفاً وحباً واغراء . واقتربت من طوبيا المحنو على السرير يريد التخلص ، وقالت :

طوبيا ! الحب رسول الزمن ، والزمن اقوى من حصون الطبيعة !

الحب شرف النفس التي تعرف شرف الحب !

الحب سلك اقتطعه الله من نياط قلبه ليجمع بـه الناس قلادة على صدر الحياة !

طوبيا ! لا تحتقرني ! اني احبك لانك اسمى من الحب . اجل لانك رجل ، ولو كنت طفلا كغيرك مـــن الرجال لاحتقرتك وجعلت منك خادماً في المنزل ، لا تلميذاً للفن ..

ان طفولة الرجل خطر على الرجولة يا طوبيا . خطر على المجتمع ، على الذرية ، على الاجيال !... ولكن ؟ .. ولكن . هل كان الرجل الا طفلا ؟ الرجل طفل . اما المرأة فشمعة اضاءهـا الحب . فاما يطفئها ويبكي واما تحرقه ويتألم ، او يذيبها ولا يبقى منها الا دموعها المتجمدة على ثيابه ويديه ..

نسي طوبيا انه امام خنفسة على مزبلة ، ونسي ان اكليل الظفر مائل في يد ملاك ، في افق تقواه وعفافه . ونسي انه كاهن الرب . فتراخت يداه ، وتهدل جسده على السرير ، فطوقته نجلاء بزنديها ، وقبلته قبلة ملتهبة على شفتيه . ودفعته عنهـا باكية قائلة : اغرب عني قبل ان تحتقرني ، ان فمك يقطر عفافاً ، كافواه صبيان اورشليم . الذين رفعوا سعف النخيل في موكب ابن السماء !.

•

وخرج طوبيا ثقيل الخطى كأن ثقل الخطيئة يشد بقدميه ليغرقه في جوف الارض . ومشى يتلمس شفتيه باصابعه وينظر ، الى هذه الاصابع ما اذا كانت مخضبة بدم نفسه ..

ماذا فعلت ؟ !

عندما يحاول الرجل الابتعاد عن المرأة، يجد نفسه مقوداً اليها. فالابتعاد في وهم العقل هو الاقتراب في الحاح القلب . وطوبيا ! طوبيا الهارب . هو نفسه طوبيا المفكر بالعودة . انها تناديه . انها تجتذبه. انها تحيط طريقه بالاخيلة المغرية، وتفرش طريقه بالازهار! فماذا يصنع ؟ انه واقف على الدرجة الاولى من السلم التي تصعده الى منزله . فهل يصعد ، ام يعود اليها ؟ ولمس شفتيه ايضاً ، ولكن لا ليرى دم الخطيئة دافقاً منهما ، بل ليستأنس بالحرارة الناعمة المنعشة التي تركتها انفاس نجلاء على فمه .

وتنهد طوبيا ! تنهد من اعماق سويدائه ، ولو استطاع ان يخرج من هذه السويداء لما تردد .

ورفع رجله ليتسلق الدرجة الثانية ، فتراءت له نجلاء مسجاة على الفراش الناعم الوثير ، فغض بصره ليراها ببصيرته ، اغمض عينيه ليراها في روحه ، اسكت تبكيت ضميره ليصغي الى نشيد فؤاده . انه يحبها ، وان الحب يتكلم في تفكيره ، وعندما يتكلم الحب تخشع النواميس ويقف الزمن ، وتتسع آذان السماء !

الحب فوارة الحياة التي توزع رشاشها بشراً . اما المرأة ، آه من المرأة ؟

وسمع طوبيا هذه الآهة تخرج من فمه بالم ، فاجفل ونظر حوله

لئلا يسمعه احد . ولما اطمأن الى وحدته صعد درجة ثالثة وعاد يفكر .

ان في المرأة نداء غير صوتها ، وجاذباً غير عينيها . ان فيها قوة الضعف ، وجرأة الحياء ..

ولكن ما هو الحياء ؟ انه المعرفة المكبوتة في صميم الجهل ، فالجاهل الذي لا معرفة في جهله ، لا يعرف الحياء ، ولا يحسه . والعالم الذي لا جهل في علمه ،يعرض اوضاع الناس عارية صريحة دون ان يبدو على وجنتيه شفق الغروب . فمن انا ومن نجلاء ؟.

دخل طوبيا منزله فرأى امه تصلي سبحتها امام المصلوب وعيناها تعكسان ضياء روحها . فاعرض عن امه بخطوات متثاقلة والقى بنفسه على المقعد الطويل الجاثم في رحبة المنزل ..

كان مستلقياً على ظهره وعيناه شاخصتان الى نقطة واحدة في السقف . وكان يلهث كأنه محموم . ولما اتمت امه صلاتها ، اقتربت منه باهتمام، وسألته بحنان وعطف : أتشكو ألماً يا حبيبي؟ فاستوى تأدباً وتبسم لامه ليزيل خوفها ، لكن الابتسامة بدت جافة كأن الحزن مسيطر على حواشيها ، وقال : لا يا امي ولكني تعب .

– تعب ؟ فماذا صنعت اليوم ؟

– صنعت ؟ ؟

لم يخفَ على امه ما ضمن جوابه من الاستغراب والخوف. فقالت: وماذا يجب ان اسألك ؟ ألم ترَ ان كلمة صنعت الطف جداً من سواها ؟ .

واجاب مستغربا ايضاً : سواها ؟ ! .

- نعم ، لان هناك غيرها من الكلمات التي لا اعتقد انك تنهار لتبلغها !.

- اني اسمع لهجة جديدة في سؤالك يا امي ، فماذا جرى ؟

- وانا ارى صورة جديدة يا طوبيا ، ان كلوح وجهك وجفاف شفتيك ينمان على انك لست طوبيا الذي اعتقده خلياً بريئاً ، سائراً في تقوى الله ..

- انا ؟ انا يا امي ؟

- وهل لي في العالم طوبيا ثانٍ ؟ ألم تعلم بعد انك دنياي وثمرة حياتي ، اتجهل ذلك ؟ اسمع يا طوبيا ، لقد مات ابوك قهراً ، وانهار مركزنا الاجتماعي ظلماً . ومع ذلك فاني ما برحت اغذي آمالي بمستقبلك الذي سيرفع رأسي .

- وسترفعين رأسك !

- بماذا ؟

- بفني وشهرتي !

فهزت الام برأسها مشككة ولم تحر جواباً ...

رسالة !..

وهذا اسبوع ثانٍ يمضيه طوبيا في البيت ، وامه تسمعه من الوعظ والارشاد ما تنبو عنه اذناه . ولما طلبت منه ان يذهب الى عمله ، ادعى انه مريض لا يستطيع العمل. ولو شاء ان يكون صريحاً لقال لها انه ضعيف لا يقوى على الثبات امام نجلاء ..

فنجلاء ملكت عليه لبه وتفكيره . بل ملكت عليه نفسه . هذه النفس التي غذاها منذ الصغر بعناصر الروح ... وما تخلفه عن العمل ، الا حرصه على وفاء الفنان الذي قال عنه في رسالته انه لمس فيه الوفاء والاخلاص . . أيبادله بالخيانة؟ أيكون الاخلاص والوفاء لؤماً وجحوداً ؟. وكيف يستطيع ان ينفلت من سحر نجلاء وقد نهنهت ثبات نفسه ؟.. لذلك رأى ان الابتعاد عن الفن خير وسيلة للوفاء . ولكن ماذا يصنع اذا لم يتعلم النحت أيعود الى طلب الكهنوت ؟ وهذا الخيال الماثل امام عينيه ؟وهذه النشوة المالئة شفتيه ؟ وهذا الصوت المتموج في اذنيه ؟ كل هذا اصبح حاجزاً بينه وبين الثوب الكهنوتي ، الذي يجب ان يكون ناصعاً في سواده شفافاً في صفاقته !..

•

لبث طوبيا حائراً لا يجد اتجاهاً لهذه النهاية المضطربة .

وحاول ان ينسى كل ما مر عليه ولكنه لم يستطع . وكيف ينسى ، ومحاولة النسيان قوة في الذاكرة !.

•

قرع الباب ودخل رجل فاعطاه رسالة . ولما فضها ، شعر برجفة في يده . فممن تكون ؟.. وقرأ :

عزيزي طوبيا ..

لم ادر لتخلفك سبباً . مع ان العمل يتشوق الى عينيك المقدرتين العمل . لقد انتهت المشكلة التي اعتقد انها ابعدتك . فنجلاء قنعت بان تقف مثالاً وانا اعتذرت لها مقراً بغلطتي ، وهكذا عادت المياه الى مجاريها ..

لا شك في اني كنت جافاً في تصرفي ، ولكن على المرأة ان تكون اسلس انقياداً للرجل من نجلاء ..

لقد افهمتها ان الحياء ضعف في الحرية الشخصية . وافهمتها ان عيني طوبيا البريئتين تزيدان جسدها جمالاً وعفافاً ، لانها عينان لم تعرفا العيب . وقد قنعت وسرت ولذ لها ان يكون جسدها علامة استفهام في مسير الازمنة . فيجب ان تحضر . لترى ان تهاويل الجمال بدت تتجلى شيئاً فشيئاً على الصخر . نجلاء مهتمة باعداد غداء لذيذ في هذا النهار . لا تتأخر .

جوزيف بابيتو

لقد سر طوبيا بان يكتب اليه معلمه ، مستهلاً رسالته بكلمة عزيزي .. ولكنه تهيب الموقف اذ تخيل جسد نجلاء عارياً ..

فكيف يقف قبالها على هذا الشكل المباح بوضع غير مأنوس ؟ وردد في نفسه ما جاء في الرسالة : « ان عيني طوبيا البريئتين ، تزيدان جسدها جمالاً وعفافاً لانهما عينان لم تعرفا العيب . »

واحس طوبيا العفة تترقرق من قلبه . وشعر بالوفاء فياضاً من نفسه . فعادت اليه تلك المناعة التي ما فارقته إلا اسبوعاً واحداً . فهل يستطيع الاسبوع الواحد ، ان يهدم حصون عشرين عاما؟..

وهكذا تشدد طوبيا ولبى دعوة معلمه ..

هذا عمل ستة ايام يا طوبيا . ومع ذلك ألم ترَ مثلي ان الروعة مرافقة الازميل منذ اليوم الاول ؟

فهز طوبيا برأسه ايجاباً ، وتابع الفنان : ان نجلاء تملك في جسدها جمالاً لم يوجد في امرأة على الاطلاق . واذا ما حدقت إلى تركيب هيكلها الدقيق الانسجام ، بدا لك انها وجدت خاصة لتكون مثالاً ..

فقال طوبيا : مثالاً للفن ؟ لتقف عارية امام الناس ؟

– وماذا يمنع ؟ اتعتقد ان الثوب يستر العفاف ويصون شرف الاسرة ؟ هذا خداع الاصطلاحات وتدجيل الاوهام التي ورثناها بالضعف ! فالعفاف في النفس يا طوبيا. العفاف في التربية. في عزة النفس . في الدين !..

– سيدي انا لا أرى ما ترى . أنا اعرف ان جمال المرأة في حشمتها . وقدسية المرأة في ان تكون ارفع من ان تنالها العيون النهمة ، المتوجرجة بالشبق والتحرق !.

– انت تتكلم ككاهن ..

– انا اتكلم كشرقي يا سيدي ، ان لشرقنا قدسية لا نريد ان تمتهن . ان نساءنا تربين تربية تختلف الاختلاف كله عما تربون انتم ..

– نحن نفهم بالمرأة ينبوع الشعر والالهام . اما انتم فترونها دجاجة تجمع تحت جناحيها البيوض لتخرج الفراخ ..

– ومن يقرأ شعركم ، ويعجب بالهامكم . ويرى تماثيلكم اذا لم تتعاقب الفراخ . ان هؤلاء الذي تسميهم فراخاً انما هم حلية الزمن . وهبة الحياة . وعبثاً يهنأ الازواج في عيشهم اذا لم ينالوا قسطاً منهم ..

– ان هناء الازواج في الحب الذي يربط قلوبهم برابط السعادة المقدس .

– الحب يا سيدي نسمة ندية على جسد منهوك . فاذا تكررت هذه النسمة ، شعر هذا الجسد بالضعف والملل ، لان للحب رباطاً غير رباط القلب ان هناك رباط الاحشاء .

لم يجب الفنان بل حدق الى طوبيا مستفهماً . اما طوبيا فكان جريئاً خلافاً لماضيه . ألم تحبه نجلاء . وما معنى ان تحب امرأة رجلاً غير زوجها هل غير تفضيل الرجل على الزوج ؟ ثم الم يكتب له معلمه عزيزي ؟ كل هذا جعل منه طوبيا جديداً .. وطوبيا ما كان يوماً قاصراً عن الكلام . وانما كان متغلغلاً وراء حيائه وتربيته الاكليريكية .

•

حدث هذا الحوار في المحترف، فكان الفنان جالساً الى مكتبه وطوبيا ازاءه يحدق الى تمثال حواء المتهيأ للوضوح .. ثم وقف الفنان متضجراً قائلاً : ما بالها لم تأتِ بعد ؟ لقد تركتها تغتسل بالماء البارد فماذا دهاها ؟.

فخفق قلب طوبيا وشعر بمثل الدوار يعترض صدغيه . فنهض على كرسيه واستند الى تمثال آدم .

وتابع الفنان : أتراها لم تنتهِ من الاغتسال ؟

فقال طوبيا : من هذه يا سيدي ؟

ـ نجلاء ! لقد آن لها ان تحضر . إني اشعر برغبة ملحة الى العمل ، انا لا احب تبديد الايام عبثاً . ان الايام تتوارى بسرعة الفكر ، ولا يمكننا ان نتعقبها إلا بالعمل . على الانسان ان يحتفظ بايامه اعمالاً . ان العمل مستودع السنين !.

ولكن طوبيا لم يأبه لنظرية معلمه الحكيمة ، بل استقر فكره حيث نجلاء تغتسل . وحاول ان يتخيلها . فمرت في فكره زوجة أوريا التي اخبرته نجلاء عنها . تلك المرأة التي لعبت بعظمة داود الملك والموسيقي والشاعر .. وذكر كلمة نجلاء عنها : ان جمال جسدها يخسف لمعان المياه المترقرق على جسدها ! وسأل نفسه : أتكون نجلاء كزوجة أوريا ؟. ولكنه اجفل عند هذا السؤال ورفض الفكر الدنس وآلى على نفسه ان لا ينظر اليها عارية ..

•

دخلت نجلاء تتشح بوشاح حريري طويل فضفاض . ومشت مشيتها الموزونة كأنها قبّرة في مرج . ولما رأت طوبيا حنت له رأسها بخجل . فاجابها بمثل انحنائها .

وتقدم الزوج ينضو عنها وشاحها . فادار طوبيا ظهره للمشهد . اما نجلاء فقد سألت زوجها باستعطاف ألا تعفيني اليوم من المثول امامك ؟ إني احس حمى بطيئة تنتزع نشاطي !.

فاجابها مقهقهاً : انك تحسين غنجاً و كبرياء !

فقال طوبيا . اما انا ياسيدي فاني ارى وجودي غير ضروري فاسمح لي ان اخرج !.

فقال : ولكنك تبقى قبلي . انا لم اتعود المراوغة من امرأة ، انها الاعيب تأتي بها النساء ليستأثرن برغائبنا واميالنا ! قال هذا وجـذب الوشاح عن نجلاء بعنف ، بينما كان طوبيـا يولي المرأة الخجول ظهره . .

إنطلقت يد الفنان تعكس الجمال على الصخر الاصم المتصلب فيجعله متكلما لطيفاً لدناً . .

وحرص طوبيا حرصاً اكيداً الا تجمح عيناه ، ويرى نجلاء دون ستر ، فيستحيل جمالها في خياله قبحا في عينيه .

وانتهى الكلام عندمـا بدأت المطرقة تناقش الازميـل والازميل ينقش الصخر .

وهكذا استمر العمل نحواً من ساعة على وتيرة واحدة . ولما انتهت المدة اخذ الفنان وشاح زوجته والبسها اياه ضاحكاً . .

الغداء !..

الحب يستوضح الجمال ، والجمال يتألق لدى الحب . وهكذا بدت نجلاء بين رجلين ، كلاهما يسألها بنظراته تألقاً .

الاول بايمان الفن وصراحته . والثاني بسطوة الهوى ونشوته ! الفنان بمراميه الشعرية المجنحة الاماني . وطوبيا بافتتانه الحي الغامض الاتجاه ..

وكانت نجلاء اسمى جمالاً من كل وقت آخر ، اما لان اربع اعين تشرق عليها . او لان شعورها الجديد بحب طوبيا نوّر وجهها بوهج قلبها .

وكان الثلاثة يتناولون الغداء . الم يعد الفنان طوبيا بغداء لذيذ ؟ والغداء لذيذ شهي . فقد اجتهدت نجلاء بان تجمع معرفتها وذوقها وكل اهتمامها فيما طبخت . وربما اذابت روحها وعناصر قلبها ايضاً . وإلا ما هذه النكهة التي يتذوقها طوبيا ؟.

ومدت نجلاء يدها لتأخذ صحن طوبيا وتملأه ، ولما شاء طوبيا ان يمانع ، اصطدمت يده بيدها فشعر بهزة عميقة ، علمته ان الرجل يظل ضائعاً حتى يجد المرأة .

وتكلمت نجلاء : كيف وجدت طعامنا يا طوبيا ؟ انني اعتقد ان الطعام ايضاً يجب ان يذعن لاوامر الفن . لان الطعام الشهي

لذة مجهولة . ولكنها ليست بعيدة عمن يريد ان يكتشفها . والمرأة وحدها توجه الرجل نحو هذه اللذة . والطعام كغيره من الاعمال الناجحة فنياً بالذوق والائتلاف !.

فقال الفنان وهو يلتهم طعامه بنهم : ان نجلاء تحاضر عن فنها يا طوبيا ، فيجب ان تقف عن المضغ لئلا تتلهى بازدراء الطعام فيفوتك استيعاب المعاني .

فحدجته نجلاء بنظرة نطق الامتعاض فيها ، ولم تتكلم .

وبادلها الزوج النظر غاضباً . ولكنها غضت نظرها وهي تضغط شفتها السفلى بثغرها الناصع .. وقهقه الفنان لغير سبب . قهقه ساخراً كأنه يريد ان يؤلم نجلاء اذ حسب سكوتها اهانة موجهة اليه. اما نجلاء فقد تظاهرت انها تصب لوناً ثانياً من الطعام لطوبيا وقالت : كل ! ان لحم الحجل شهي . لانه يحتفظ بنكهة البراري في دمه الحار .

وسأل طوبيا : وانى لسيدتي الحجال ؟.

فقالت : هدية من احد الاصحاب ..

انكمش طوبيا في اعماقه ، وشعر بمخلب الغيرة يمتد الى قلبه ، فتظاهر بانه يجفف العرق عن وجهه ليخفي وهج غيرته ، وفكر..

أيكون لنجلاء اصحاب ؟ وكأن نجلاء لحظت عليه ذلك فقالت : ان جوزيف يعرف الكثيرين من ابناء الجبال وهم يحبونه كثيراً . لذلك فانهم يهدون اليه دائماً من صيدهم ومن ثمارهم .

فقال الفنان : صحيح ! ان ابناء الجبال ابر عهداً ، واصدق وفاءً من غيرهم !

فضحكت نجلاء وقالت : ولكنهم اغبياء باندفاعهم . عمي باستسلامهم

فقال طوبيا : الغباوة يا سيدتي كثيراً ما تكون سلامة في القلب وحياة في الضمير .

فقالت : انا لا احب الغباوة ولو كانت منحة سماوية . فعلى الرجل ان يكون يقظاً نبيهاً . وعلى المرأة ان تكون ذات دهاء!.

فقال الفنان : والكبرياء ؟ والادعاء ؟ والاغراء ؟ كل هذا يجب ان يكون من صفات المرأة . اليس كذلك يا نجلاء ؟

فقالت : جوزيف ! انك شديد الوطأة بتعبيرك . فكم اكون سعيدة لو كانت حياتك الزوجية ، تامة كحياتك الفنية !.

– حياتي ، او الحياة معي ؟؟.

– فسر كما تشاء فالمهم ان تدرك انك لست وحدك ذا شعور!

انتهى الغداء ولكن على شيء من الضباب بين الزوجين . وانتقل الحوار الى الفن شأن الماضي فكان الفنان شاعراً بشرحه . فيلسوفاً بتحديده !.

صراع

مضى على تمثال حواء خمسة اشهر وما برح يستغيث تحت ضربات المطرقة الحادة ، والازميل السنين !. فقد انتهى تكويناً ، ولكنه لم ينتهِ صقلاً . وقفة كلها تحفز . ونظرات كلها استفهام . وشعر طويل يلف صدرها ، ويتهدل حتى الركبتين ، فيستر من جسدها ما تريد الانثى ان تخفي من جسدها .

كوعها الايمن ملقى على صخر ذي تخاريب ، وينعطف مستنداً الى رأسها المحنو باهتمام الى حيث تتجه نظرات آدم . وزندها الايسر يضغط اطراف الشعر لئلا ينزاح عن موضع العفاف . اما قدماها الغارقتان بين الاعشاب والازهار ، فكأنها تتحركان لتثبا وثوباً مجنحاً نحو المسارح البدئية الساحرة .

هذا هو تمثال حواء. بل هذا تمثال نجلاء تلك المرأة التي حولت بفتنتها اتجاهات طوبيا الى مرمى واحد هو الجمال . وطوبيا المطل حديثاً على عالم الفن . لم يرَ الا تمثال هذه الانثى مرجعاً لدروسه النظرية . فكان يقف امامه الساعات مستوضحاً قوة الفن . هائماً بكمال الخلق . مسحوراً بجمال الروح الكامنة في الصخر . وسأل نفسه مرات : أيكون جسد نجلاء هكذا ؟

ان طوبيا ما برح محافظاً على جنوح عينيه نحو نجلاء العاربة .

واذا ما سأل نفسه مثل هذا السؤال فلكي يقنع فكره بان من النساء من تتمتع بمثل هذا الاغراق في الجمال .

كان يسأل ولكنه لم يجب لا سلباً ولا ايجاباً . فقد احب ان يظل هذا السؤال موضوعاً لتأملاته .. على انه رأى الوجه وجهها . واليدين يديها . والشعر شعرها . اما غير ذلك فانى له ان يرى ؟.

وكان طوبيا يشغل اكثر وقته في المحترف . وكان معلمه يترك له الوقت الطويل ليتمرن عملياً على نحت تماثيل متنوعة الاوضاع حتى اصبح مسيطراً بعض السيطرة على الازميل ، كأنه رغبته الملحة ، وشوقه الجائع الى العمل ، وثبا به وثوباً الى هذه النهاية الجيدة ..

وكانت نجلاء تزوره دائماً في المحترف ، وترقب حركة يديه في سير العمل . وكان يبدو عليها سرور طافح بالسعادة في هذه الوقفات . وكانت يدا طوبيا تستمدان الرشاقة والابداع من عيني نجلاء . وكثيراً ما كان يجلس اليها مستمعاً شكواها وتذمرها من فظاظة زوجها . فكان يهون عليها الامر ويلقنها دروساً خلقية ، شارحاً لها حياة الزوجين وما يجب ان تزدان به من الوفاق والتسامح .

وكثيراً ما كانت نجلاء تتكلم باكية . وكثيراً ما كانت تستند الى كتف طوبيا ليكفكف دمعتها . وكثيراً ما اسمعته نجواها مجاهرة بحبها الشريف . ولكن طوبيا لم يرد ان يكون خائناً معلمه كما انه لم يرد ان يشوه جمال نجلاء بالدنس .. ومرت

الايام والصداقة بريئة . اما الفكر ! اما الشعور ! اما الاضطراب الذي تحدثه الغريزة ، ففي حرب ، وفي جهاد ، وفي جحيم !. واما الخطيئة ففي كر وفر بين طوبيا وبين نفسه ..

•

انتهى تمثال حواء . واعلنت الجريدة نهاية التمثالين وضربت موعداً للاحتفال بازاحة الستار عنهما ، في حديقة الفردوس ..

الفنان يزهو !..

بعد يومين فقط ! تقبل بيروت الى حديقة الفردوس لترى آدم وحواء تمثالين مهرهما الخلود بخاتمه الابدي !.

وبعد يومين تشرئب الاعناق الى الدكة المرتفعة بجلال ومهابة، فتجمع الآذان وحي الشعر وموسيقى الافكار !.

وبعد يومين سألقي في الجماهير المحتشدة ، محاضرة فنية فلسفية علمية . فاحدد الفن ! واحلل الروح . واكشف عن الابصار والبصائر غشاء الجهل، فيدرك هذا الشعب ان بابيتو العبقري ارتفع عن مستوى البشر قولاً وفعلا !..

نعم بعد يومين يا نجلاء ! ستُصوب الى جسدك العلوي ، اكثر من ستين الف عين. ويخفق الى سحرك اكثر من ثلاثين الف قلب!

انا وأنت يا نجلاء كائنان هبطا العالم مخترقين سحب الوحي والكمال ، واستقرا على الارض متفوقين على ابناء الارض !. انا بعبقريتي والعبقري كالنجم المذنب لا ينبثق دائماً — وانت بجمالك والجمال شعاع يدفق من عيني الله ليرفع مستقر النفوس :

نجلاء ! ليت لي جسداً شديداً منيعاً ، ضاجاً بقوى الجبال ! لانسخ آدم عن جسدي ، واقف امامك تمثالاً في حديقة الفردوس، كما اقف امامك الآن ، روحاً وقلباً وحباً !..

نجلاء ! ان جمالك مهبط الهامي ، اما حبي لهذا الجمال ، فخيال يجتاز الآفاق ويقف على الذروة المطلة على ما وراء الوجود ، ناقلاً عن هاتيك الاباد ، صور الخلود للفنانين ، ثم يهبط ساخراً بكل فان لانه خالد !

كان الفنان يتكلم مزهواً ، ونجلاء غارقة في سريرها تلفها غلالة شفافة كالضياء ، فيبدو جسدها الوردي كالاشعة من خلال الغيوم.

وكان طوبيا يصغي الى معلمه وهو جالس في الردهة الكبرى الزاهرة ، وفي صدره دخان الغيرة يكاد يخنق قلبه ، ويقضي على رئتيه ..

ونادى الفنان : ادخل يا طوبيا ، ان سعادتي تنادي العيون البريئة لترى الجمال يتجلى !

فاعتذر طوبيا وشعر بثل الدوار يعترض صدغيه .. ولكن الفنان لم يقبل عذراً ، بل خرج ضاحكا باشاً ، واخذه بيده وادخله قسراً ..

ولذ لطوبيا ان يدخل . ان في هذه الغرفة سر انفتاح قلبه . ومر بلسانه على شفتيه يرطب جفافهما ، بل شاء ان يستعيد خيال هاتيك القبلة الحارة التي الهبت قلبه ، واوقدت فيه شعلة لا تخمد لها اوار ! ولما دخل ، استوت نجلاء في سريرها محاولة ستر ما شف من جسدها ..

انه الجمال يتجلى ! لقد صدق الفنان بتعبيره . وإلا ما هذه الرؤيا المشعة في فراش ؟

ما هذه السحابة الهاربة من الشفق ؟ ما هذه الومضة التي تغلبت على الانطفاء ؟

اية متعة احسها طوبيا في اركان نفسه ؟ انها لمتعة اسمى من الشعر ! واشد من السكر ، وابعد من السحر ! انها لمتعة الروح التي لا جسد لها . بل متعة الجمال الذي صار جسداً .. وحدق طوبيا الى نجلاء بغير خوف ولا حياء ، حدق اليها بملء عينيه كأنه يرى جسده في مرآة ، فقال الفنان : ماذا ترى يا طوبيا ؟ فقال طوبيا والجرأة تجعل من حفيف ثوبه كلاماً : ارى شعلة من شعل السماء ، اتقدت في سرير رجل من ابناء الارض فحولها الحب جسداً لا يقاس ولا يحد ..

فانقض الفنان على طوبيا انقضاضاً اهوج واخذ رأسه بين يديه وراح يوسعه تقبيلاً ..

اما نجلاء فعادت تغرق في سريرها متسترة بكل ما حولها من الاغطية ..

وانتهرها الفنان : نجلاء ، دعي جمالك مشرقاً ! ان الخجل لا يدنو الا من الخطأة . وانت ! انت البريئة كاريج الزنبق ، فكوني كالربيع على القمم والروابي . فقالت نجلاء : أيمكنني ان اكون ربيعاً وفي عيونك وهج الصيف ؟

فغض طوبيا نظره ، وقال الفنان : اشرقي يا نجلاء انك اليوم لمثل السماء على الارض . وها اني أرى الله متألقاً فيك !

فرفع طوبيا رأسه وقال : سيدي لا تذل كرامتك المنطقية!

– كرامتي لا تذل يا طوبيا ، انا ابن الاجيال كلها ! الاجيال التي مرت جافة والتي ستمر ندية عابقة بالمجد . اتنكر علي عبقريتي وخلودي وقد فزت بكل خالد وعبقري ؟.

– لا انكر عليك الا زوغانك في التعبير ، فما اكثر ما تجنح وما اقل ما تستقر !

– هو الشعر يا طوبيا ، هو الشعر !.. له جزره وله مده ، له سموه وله إسفافه ، فتارة يغيض في اعماق النفس حتى تنكمش على ذاتها وتصير يأساً ، وطوراً يتفجر من القلب فيحول الشفتين جرحاً ينز بالالم ، وحينا يسطع نوراً من العقل فيرفع النفوس عن التراب ويوقفها سعيدة حالمة في غشاء الاثير !.

وانا شاعر يا طوبيا . أرى كل ما حولي راقصاً على موسيقى القوافي . وهذه التي تراها امامك كالنبراس المتالق في الظلمة ، هي قصيدتي الكبرى ، هي عنوان مجدي . وسترى وتسمع كيف اتجلي بعد يومين اني اعددت محاضرة لن يلقى مثلها على منبر . ولم يكتب بمعناها في سفر

– ولكني اخشي ان يصدمك دهرك بغير ما تود ، فهلا ترفقت بمحاضرتك لئلا تجنح الى الغريب الشاذ ؟

– سترى كفيك مصفقتين لكلماتي قسراً عنك ، كأنهما جناحا حمامة خائفة .

– لقد طالما صفقت لك مراوح قلبي يا سيدي ، انك ارفع ممن يؤخذون بتصفيق الكفوف ..

فنظر الفنان الى زوجته وقال : أسمعت يا نجلاء ؟ اني لم احرم شعاباً يرجع صدى مجدي . قال هذا وانحنى على زوجته فقبلها قبلة شعرية ، ثم ودع طوبيا قائلاً. انا ذاهب الى ديوان الباشا لاوفاوضه ببعض شؤون ، فاهبط ساعة تود الى المحترف فان الباب غير مقفل ..

تحطيم التمثال

طوبيا ونجلاء وحيدان في الغرفة . واحس طوبيا بقشعريرة تتمشى في جسده، فتمطى متثائباً، ووقف ليذهب. فقالت نجلاء: طوبيا لا تتركني، يجب ان تنتزع من اذني كل ما فيهما من ثرثرة. ان جوزيف اليوم اوقر مسمعي حتى ضقت ذرعاً . ان المواهب الفجة تتهرأ قبل ان تنضج ، وويل للذين تتهرأ مواهبهم ..

– سيدتي انك لاسعد امرأة تريد ان تكون سعيدة . ان في زوجك كنزاً قلما وجد في امة ..

– انا شقية يا طوبيا .

– أشقية انت وضياء السعادة منتشر على وجهك ؟

– ما زلت عاجزاً عن تحليل النفوس يا طوبيا. ولو كنت على شيء من علم الفراسة لعرفت ان نار قلبي اندلعت في اساريري بعد ان صار هذا القلب رماداً.

ان غرابة جوزيف تشقيني وتجردني من ارادتي . وما معنى امرأة لا ارادة لها مع زوجها ؟ الم يكفني شقاء واحتقاراً، انه حكم علي حكماً جائراً ، وعنفني تعنيفاً ،ؤلماً ، حتى اوقفني عارية لينسخ عن جسدي تمثالاً للمرأة الخاطئة ؟.

لم يجب طوبيا ، اذ بدا له ان الحديث سيجره الى مزالق

الخطيئة ، ولكنه نظر الى نجلاء نظرة طـائشة ومشى قائلاً :
فلتعذروني سيدتي ان لدي شغلاً في المحترف . .

لم تجب نجلاء ولم تناده . ولم تطلب اليه البقاء لديها بل عادت تستلقي في سريرها كأنها لم تسمع كلاماً منه ،. على ان طوبيا الهارب من التجربة، لم يرقه سكوت نجلاء على هذا الشكل الجاف، فراح وقلبـه يتمزق غيظاً ... ولما دخل المحترف احس كرهاً لنجلاء . لهذه المرأة المراوغـة التي تحتقر عبقرية زوجها في سبيل اميالها الدنسة !.

ورفس الارض برجله حانقاً .وحدق الى ما حوله من التماثيل وتنهد قائلاً في نفسه . أيكون الجمال ارجح وزناً من الفن ?أيمكن ان يستوي اغراء اللحم وخلود الفن في ميزان واحد ؟

وظهر امامه تمثال حواء . فخفق قلبه بقبول الخطيئة، وجرض بريقه مستسلماً لاميال الرجل الذي نسي ان عفافه حياً . وتخيل نجلاء في سريرها وغلالتها الناعمة تشف عن السحر والفتنة والاغراء الاهوج . بل تشف عن الانثى التي لا جمال إلا فيهـا . وبدا له التمثال جسداً حيـاً متوهجاً بالحرارة ، فلامس عينيه ليثق مـن يقظته ، فازداد ثقة بحياة التمثال ، ومد يده بارتعاش الى زنده البض ، واذ بيده تصطدم ببرودة الصخر ، فاجفل مرعوباً وابتعد عن التمثال خائفاً .

في هذه الفترة المزدحمة بالعوامل ، دخلت نجـلاء باسّة والقت بيدها على كتفه قائلة : هربت مني يا طوبيا ؟ انك مـا برحت غلاماً عاجزاً عن فهم السر الذي شاءتـه الطبيعة محوراً للوجود

أتجهل ان قلوبنا رهن اميالنا ؟. أتنكر قوة الحب ايها الاكليريكي الجاهل ؟ أتسد اذنيك عن سماع صوت الطبيعة ؟ قالت هذا وطوقت عنقه بزنديها وقالت : طوبيا ليس بوسعي ان احتمل اكثر مما احتملت . فقبلني يا حبيبي قبلني ، اعطني قلبك لهائاً .هبني جسدك ضماً وتقبيلاً .. انا شقية يا طوبيا فكن منقذي من شقائي.. وشدت به الى صدرها ، وادنت فمها من فمه . وشعر طوبيا بانفاسها حارة معطرة ، ولكنه حاول التفلت . واذا بالستار المسدول على مكتب الفنان ، يزاح ويخرج الزوج مستغرباً مستفهماً ، وبروز عينيه يصور غضبته !.

اجفلت نجلاء وانزلت ذراعيها بذعر . فتقدم الزوج منها ساخراً . فلاذت بطوبيا تحتمي به ، فبسط طوبيا ذراعيه دونها محاولاً الدفاع عنها . ولكن الزوج لم يدنُ منها ولا من طوبيا بل رفع المطرقة ونظر الى تمثالها مقهقهاً ، وقال :

لقد ظننت ان نجلائي لا تشتهي فاخذتك عنها يا حواء . اما وانها اخذت عنك في البدء ، فان شهوتها تنمو فيها مع نمو المدارك والعقول ، وتجتاز التفاحة لتلتهم ثمار العفاف . فلتحطم الجهود !..

قال هذا : وانهال على التمثال ضرباً اهوج ،حتى اطار رأسه. وزنديه وفخذيه . وشوه ما بقي من الهيكل الباقي . وما كاد ينتهي حتى كانت نجلاء تسقط مغمى عليها . ولكن طوبيا لم يكن مسعفاً لها هذه المرة بل هرب خائفاً هول المطرقة .

طوبيا يكذب

لم يدرِ طوبيا كيف عبر الشوارع ، ولا كيف وصل الى بيته ، فقد كان يتلظى بالخجل والندم ، بل كان يتميز غيظاً على اضاعه الجهود ، وقتل نتاج الشهور . فما ذنب التمثال ليُحطم ؟ ان هذا الايطالي جبان ارعن ! وانف ان يقول معلمي ، لقد احس احتقاراً وكرهاً لهذا الرجل ، الشاذ الخلق ، الضعيف الارادة . بل احس كرهاً لنجلاء المائعة المراوغة ، تلك التي طرحت نفسها له مراراً كأنها ليست مقيدة بالسر الذي قدسته الشرائع وقوته التقاليد . لقد نسيت انها ذات رجل . ونسيت ان لها عفافاً يجب ان تصونه لهذا الرجل . اما كان الاجدر بزوجها ان يحطم رأسها بدلاً من التمثال ؟ . لقد خانت العهود الزوجية . وحنثت بالامانة لغير سبب لذلك فانها خائنة !.

وزفر طوبيا زفرة حملت معها جزءاً من قلبه ! بل حملت صوت الضمير المخيف ! واذا به يسمع في قرارة نفسه زمجرة هذا الضمير !.

طوبيا !. انك لشريكها في الخيانة ! لقد كان بوسعك ان تقصيها عنك ، او تقصي نفسك عنها ، ليكون شرفك مماثلاً لفضل زوجها عليك !.

طوبيا ! . الاخلاص جوهر الرجل الشريف . وانت ! انت الذي عبثت بجوهرك فلست شريفاً !..

وانفتح فم طوبيا ذعراً . وادار عينيه في ارجاء البيت باحثاً عن مخرج ليهرب من ضميره ، ولكن الى اين يهرب ؟.

ان الرجل الذي يتجرد من شرفه يصبح كسيحا . بل يصبح أشل لا يستطيع ان يجر عضواً من اعضائه . وسأل طوبيا نفسه : ما الشرف ؟!.

واصغى الى سؤاله لينال جواباً . لينال تحديداً للشرف . لينال عذراً عن ميعانه . ولما لم ينل غمغم قائلا : الشرف كرامة مقدسة في سمو الانسان ! فهل اكون مقدساً هذه الكرامة ؟.

وقضى بقية نهاره مفكراً . وفي الليل لم تعرف عيناه اغماضة. ونهض في الصباح خائر العزم مكفهراً . فسألته امه: أمريض انت يا طوبيا ؟.

– لا ولكني لم انم في هذا الليل !

– ولماذا ؟.

– لا ادري .

لم يدرِ ؟! هذه كذبة تمر جديداً في معبر ضميره . وطوبيا لم يكذب قط في حياته ، فما باله يسوء خلقاً يوماً فيوماً ؟.

خرج من البيت تائهاً . ولما مر في اول شارع، رأى الاعلانات هنا ، وهناك ، وهنالك . وكلها تدعو ابناء بيروف الى الاحتفال نهار غد الاحد بازاحة الستار عن تمثال آدم وحواء في حديقة

الفردوس . ومر في الشارع المعروف بطريق النهر . فرأى اقواس
النصر تخيم فوق الطريق والاعلام العثمانية خفاقة مزهوة يصفقها
النسيم ، فاستغرب ما رأى . واشكل عليه امر الحفلة ، وإلا من
اين للايطالي تمثال حواء ؟ لا شك في ان الحفلة ستكون خذيا
لهذا المغرور الغريب !

موكب قلما رأت بيروت مثله موكبا . وهذا رستم باشا غارق في عربة فخمة ، يجرها ستة جياد ، وعلى يمينه ويساره كتائب الجند ببزاتها الرسمية الجميلة ، والموسيقى العثمانية تصدح نشيد الدعاء برسوخ عرش السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان!.

اطلت الجماهير على الحديقة ، فاذا بالفردوس يتألق بازاهيره الفواحة العبير ، الزاهية الالوان . المخضلة الاغصان .

هذه فسقية من الرخام الناصع تتدفق فوارتها خيوطاً دقيقة كحبال الشمس . وهذا منبر للخطباء والشعراء مزين بالرايات العثمانية الحمراء ، وهذان التمثالان وراء ستار ابيض ناصع كثنايا الاقحوان ..

جلس متصرف البلاد في مقدمة الصفوف ، تحيط به الحاشية ، وابناء الاسر ، وذوو المقامات الدينية ،وبعض من قناصل الدول الاوربية ..

وهذا طريق بين صفوف الناس ، مفتوح للمرور ، مفروش بالازاهير . وهؤلاء الحرس يحافظون على النظام، وعلى الامن ، وعلى الاداب ..

وزعق النفير معلنا السكوت لافتتاح الحفلة ، واذا بالفنان

فوق المنبر يستعد ليلقي محاضرته ، ولونه الفاقع يدل على انه مضطرب خائف ..

•

مولاي المتصرف ! يا ابناء بيروت ..

اليقظة في الامة ، مظهر من مظاهر نضجها . ونضج الامة عنوان الثقافة التي بلغتها . فما هجعت أمة الا كان انهيارها دليلاً على شلل في اوصالها . لان الجهل شلل القوى الاجتماعية التي يقهقر مسير الامم في كل زمان ومكان !.

وكأني ببيروت اليوم ، تعلن يقظتها ، مقدرة روح الثقافة السامية مقدرة الفن الخالد !.

والفن فكرة مشاعة في كل امة ، بل حلم متجسد ترف عليه حمامة الاعجاب ، فيسطع مرافقا الاجيال ! ويخلد عاضداً التاريخ ! وينطق معبراً عن العصور !.

والفن ثلاثة : روح . وشوق . وثبات. فالروح يجد الفكرة. والشوق يخلق الجمال ، والثبات يوجد الجسد ..

وها نحن اليوم امام الفن ! بل امام تاريخ حي يهتف في شعوركم ، ان انظروا فتسمعوا . واسمعوا فتدركوا !. وعندما تدركون ، تصبحون امة تفضل الطبيعة على تقليدها . والحقيقة على تقاليدها ..

سترون آدم رجلاً عاريا فتلمسون قواه الطبيعية في جسده المنيع ، فتعجبون غير آبهين لعريه الذي برزته التقاليد تمثالا ، وحظرته الآداب انسانا ..

فلماذا ؟؟ لاننا اعتدنا ان نجعل من عيوننا شباكا نصطاد بها ادناسنا !..

ولو فرضنا أنكم رأيتم حواء امرأة عارية لها دمها الحار واغراؤها الساطي ، لصرختم مستنكرين ، وحكمتم على الفنان بالنبذ ، ونسبتم اليه الاباحة المحظرة في شرع كل امة ، ودستور كل دين ، وهكذا يثبت انكم لم تدركوا معاني الفن ، ولم تفهموا السر الصارخ في صمته . وإلا لكنتم كالفنانين لا تفرقون الجسد البض النابض بالحرارة ، عن الصخر الاصم الناطق بقوة الخيال ..

سترون آدم وحواء.. رجلاً صخراً في هيكله برودة الحياة، وامرأة لحماً ودما في حرارتها الموت . وسيكون حكمكم على المشهد الجديد ، برهاناً على ثقافتكم ونضجكم الاجتماعي .

هذه كلمتي يا مولاي ! فقد ابدلتها بالمحاضرة الضافية التي كنت اعددتها لهذا اليوم. ولكن حواء . حواء العصر ! وقفت في محترفي حيث استلهم السماء افكاراً للارض . وقدمت التفاحة لشاب بريء وكان ما سترون !. فاجذب خيطك يا مولاي ليرى الناس ادم الفن !. واجذبه ثانية ليروا حواء الشهوة . وعندئذ يمجدون الصخر ويحتقرون الانسان . وعندئذ يدركون ان اجسادنا مهاوي جهودنا وان عيوننا شباك ادناسنا . لتحي الفضيلة !..

•

وجذب رستم باشا خيطاً متصلاً بالستار ، فانزاح الستار عن ادم ، وتجلت العظمة ، فدوت الحديقة بالتصفيق الحاد . وحملت

هينمات النسيم اصداء الاكف توزعه على شجيرات الفردوس المتألقة تحت الشمس ..

وجذب خيطاً ثانياً ! فماذا بدا ؟؟.

غرابة فنية ! جنون مطبق ! دناءة فاضحة !..

بل بدت نجلاء ! نجلاء زوجة الفنان الشهير، الفيلسوف الشاعر. نجلاء بلحمها ودمها . بجسدها الجميل وشعرها الطويل المسترسل ..

وانتفض الباشا غاضباً ، وضج القوم مستهجناً ! وعلت قهقهة نجلاء الجنونية تطغو على الضجيج، فسكت الناس ، كأنهم ارادوا ان يسمعوا خطوات العقل هارباً ..

واستمرت نجلاء ترسل القهقهات الغريبة الحاملة لوناً من الوان الفحش ، وجفافاً من نضوب العفاف .

وكان طوبيا يرى ويسمع ، وكم كانت نجلاء قبيحة الشكل في عيني طوبيا .. وهوت نجلاء العارية عن مرتفعها الى الارض . فاخترق طوبيا الصفوف حتى وصل اليها ، فجذب الستار الذي كان يستر جسدها ولفها به وحملها غير شاعر بثقل جسدها المتراخي.

واختل نظام الصفوف ، وسادت الفوضى ، وطوبيا الراكض بين الجماهير يخترق فوضاهم حتى خرج من الفردوس حاملاً حواء الساقطة مغمى عليها ، ووضعها في اول عربة اصطدم بها وقادها الى سريرها .

وهناك على ذلك السرير جلس طوبيا يدلك صدغيها شاعراً بروح الاخوة يدفعه الى اسعافها . منتظراً وصول الطبيب الذي

بعث من يدعوه ..

ولما وصل الطبيب قص طوبيا عليه حكايتها . ولما استفاقت كان هذيانها يثبت جنونها ..

وبعد هنيهة دخل الفنان محاطاً بالجند ، فخرج طوبيا متألماً على معلمه ان ينتهي الى هذا المصير ..

مفاجأة قاتلة ! ..

- انتهت الحفلة يا طوبيا ؟
- انتهت يا امي ، ولكن على شكل وحشي !.
- و كيف ؟!.

وقص طوبيا على امه حكاية الفنان دون ان يحشر نفسه في المآزق . فقد اراد ان تكون بعيدة عن المؤثرات الضارة بقلبها الضعيف . ولكن هذه الام الفطنة الذكية الدقيقة الشعور لم تقبل الخبر كما سمعته من ولدها ، لانها لمست في كلامه زخرفة وتمويهاً ...

وطرق الباب ، فأجفل طوبيا كأن الطارق رسول مقبل على امه ليصرح لديها بالحقيقة ..

ولما فتح ، اطمأن الى اسراره اذ وجد الطارق الياس امين الخوري . على ان اطمئنانه تحول الى دهشة اذ وجد الرجل ممتقع اللون، ممزق الثياب، مجرح الوجه، فسأله مستغرباً : ماذا دهاك؟!

لم يجب الياس، كأن لسانه غاض في حلقه ، بل نظر الى طوبيا نظرة كسيرة قرأ في بريقها ان مصيبة ألمت به . فقاده برفق ، واجلسه باشفاق ، وحدق اليه متألماً وهو يلهث مندلق الشفة السفلى ، تائه النظرات !

واقبلت الام تستفهم بكل ما للنساء من حب التقصي فأشار الياس بيده المرتعشة أن اصبري !.

وجلس الثلاثة دون كلام . وبعد هنيهة وشاها الحزن بسكونه الضاج ، تنهد الياس بحشرجة جارحة وقال :

سيدتي لقد جمعت خمسة وعشرين الفاً من الديون التي لكم بذمم الناس، ولكنني مرضت في هذه المدة الاخيرة فلم استطع الوصول الى هنا لاقدم المبلغ شاكراً سيدي طوبيا على ثقته بي . وفي هذا الصباح رأيت نفسي نشيطاً فجئت بالمبلغ . وما كدت اقطع ثلثي الطريق ، حتى تصدى لي اربعة رجال اشداء وانتزعوا منطقتي . ولما شئت الدفاع ، اوسعوني ضرباً وفروا بالالوف !

ونظر طوبيا الى امه ليرى وقع الخبر عليها . فوجدها صفراء وصدرها يعلو وينخفض ، ثم فتحت فمها لاهثة . ثم غطت متوترة الذراعين . ثم لوت عنقها على صدره فاقدة الحياة !.

ذعر طوبيا واستغاث ! وصرخ الياس واستجار ! وتراكض الجيران قلقين مضطربين !.

ولكن ما نفع كل هذا ؟. لقد ماتت الام فكان موتها آخر امل بقي في صدر طوبيا . فالمصائب انهالت عليه دفقاً ، فكبا به الصبر. وتضعضع منه الثبات، فانهارت رجولته وصار طفلاً يبكي!.

ودفنت الام بمأتم مهيب. فأبّنها المطران يوسف الدبس بكلمة لها شأنها في المواقف الخاصة ، ولما اخرج نعشها من الهيكل ، رثاها طوبيا بكلام اقتطع معانيه من قلبه ورئتيه . فقال :

يا امي !..

ايها الظل الوارف الذي ما برح ستراً لجسدي .

لقد اجتاحك منجل الموت ، وتركني هائماً في صحراء شقائي ، تسف على عيني رمال الموت وتهب على وجهي لفحات الجحيم !

يا امي !.. ايها المنظار الجهير الذي كنت أرى فيه المسافات البعيدة الخطرة فأتقي مزالقها، واتوقل المرتفعات كالغزال المروض، فارى اعماق الاودية من مشارف القمم ، وعندما انحدر ، اجدك اسمى قمة الوذ بها واظل ظافراً ..

يا امي !.. القبر يضم جسدك . وجسدك يضم قلبك ، وقلبك يضمني ، وانا اضم المصائب والتجارب !.

سلسلة حلقتها الاولى حفرة كريهة مخيفة . وحلقتها الاخيرة انا فما اشقاني بعدك يا امي !..

يا امي !.. يا انشودة الحياة في فمي ! ويا امل الصبا في قلبي ! ويا حلم المستقبل في مسيري ! انك لم تموتي وانما لبيت نداء الدعوة الخالدة . اما انا فقد ظللت حياً لاموت كلما اجتمعتِ بافكاري!..

زوج

لقد استحالت بيروت في عيني طوبيا ظلاماً وناراً فليس له فيها ذكرى تندي على قلبه ما يجعله يتخيل طيف السعادة . فباع بيته الصغير ، ومـا يحتوي عليه ورحل الى الجنوب .. وفي الجنوب نزل ضيفاً على ظافر بك درويش ، فنسي بعضاً من احزانه اذ لمس في هذا الزعيم تقديراً للثقافة والتهذيب ..

وظافر بك ، اقطاعي راسخ القدم في الزعامة شديد البأس في السطوة . حاكم بامره في بلدته وجوارها . عـلى انه يتحلى بصفات تشفع به زعيماً اقطاعياً مستبداً . فهو كريم مضياف يقدر الادباء والفنانين والرجال الاشداء ، والفرسان. وبالرغم من كونه امياً، فانه مولع بالتواريخ ، واحب تاريخ لديه هو التوراة !..

وسأل ظافر بك طوبيا عن كآبته وحزنه ، فاخبره حكايته مجردة خاصة به دون ان يحشر في السياق ذكر المرأة . فاكبر عاطفته ، وبالغ في تقديره . حتى فضله عـلى الاخ دانيال الكاتب لديه في شؤونه الخاصة .. والاخ دانيال شاب متعـلم ولكنه لم يبلغ من الثقافة التي بلغها طوبيا ، اذ انه كان معداً ليكون راهباً، ولكن لم يستطع احتمال التبتل ، فخلع عنه الزي الاسود وتردى الثوب الشعبي وسكن في القرية يخدم البك عند الحاجة ..

وشاء ظافر بك ان يكون للمنطقة مدرسة تعنى بتهذيب النشء، فحدث طوبيا بالفكرة. وسأله عما اذا كان في نفسه استعداد. فقبل طوبيا المهمة واصبح معلماً في البلدة، ومستشاراً في ديوان الزعيم ..

ومضى على طوبيا خمس سنوات معلماً. فظهرت النتائج الحسنة على التلامذة، فاذا بهم يقرأون جيداً ويكتبون حسناً، ويفكون اغلق الاعمال الحسابية في القواعد الاربع الضرورية ..

وفي هذه المدة كان طوبيا يعطي الدروس ليلاً لابنة الزعيم، تلك الفتاة المتقدة بالذكاء. المنورة في الجمال. المموهة بالسحر. حتى اصبحت تقرأ قراءة اصولية. وتكتب كتابة رقيقة، فضلاً عن انها كانت تروض نفسها على الفروسية، من ركب الجياد وامتشاق السيف. ولعب الرمح، حتى اشتهرت في العشيرة كلها وتحدث الناس عن «مرام».

وطلبت مرام يوماً من طوبيا ان يصحبها الى البراري فتكون واياه فارسين وحيدين في مروج الربيع الدفيقة الاريج .. على ان طوبيا لم يعطها جواباً، بل استشار الزعيم عملاً بما في نفسه من الاخلاص والتهذيب. فوافق الزعيم، ورافق طوبيا بابتسامة لطيفة قلما ارتسمت على شفتيه الجافتين الغليظتين.

وركبت مرام تختال على ظهر جوادها مدغدغة ناصيته، والجواد ينتصب على رجليه طوراً، ويثب كالسهم تارة، وطوبيا يلازمها حثيثاً، فيدركها في العقبات وتسبقه في السهل، وتلتفت الى

الوراء تبحث عنه وضحكة موسيقية يتجاوب صداها في هاتيك المروج بين الاودية الخضراء المخضلة العطفات !.

وانتهيا اخيراً الى سنديانة مسنة ظليلة . فنزلا يرتميان في ذلك الظل المنعش ، ويصغيان الى خرير العين العذبة المياه ، البراقة القطرات !.

وتمرغت مرام فوق العشب والازهار كأنها تملصت من قيود الزعامة ، او شعرت بدافع الاغراء الذي يملأ كيان الانثى عندما يروقها الرجل ..

وفاحت رائحة الخندفوق تسكر قلب طوبيا ، وتلعب بشعور مرام فيتبادلان كلاماً افعل بالنفس من رائحة الخندفوق ..

ونظر طوبيا الى مرام نظرة ايقظت قلبه الهاجع ، فرأى في وجهها قسمات من وجه نجلاء فتنهد في اعماقه كأن السنوات الخمس لم تكن كافية لمحو هاتيك الذكرى !.

وجلسا يأكلان! وكأن مرام شعرت بما في قلب طوبيا فتهيبت ورأت ان تغربه بسكوتها .. وسكت طوبيا ايضاً ، على انه ظل يختلس النظرات من عيني مرام الضاحكتين المنورتين المشرقتين كشمس الربيع ، وطال السكوت ، ولم يبقَ من حركة سوى طنين النحل ولعس المضغ والازدراد ..

ونهضت مرام تملأ حفنتيها من العين وتشرب . وضحك طوبيا قائلاً : ما الطف كأسك يا مرام ، فبادلته الضحكة وملأت هاتيك الحفنتين السحابيتي اللون . وقدمتها اليه ، فأبى واعتذر . فقذفت

وجهه بالمـــاء وارتمت تضحك وتتدحرج على بساط الربيـع الناعم الفواح .

وظل طوبيا منطرحاً على جنبه يمسح وجهه بكمه ..

وعادت تملأ يديها ماءً . عادت تقدم له الكأس الجديدة الشهية. عادت تسقيه سائل فؤادها بشكل الماء ، ولما رأت منه امتناعاً ، ضحكت مستعطفة وقالت : ان ابيت فمصيرك الاغتسال!. فانحنى على كفيها يعب ما فيهما ، ولم يدرِ ما اذا كان يشرب خمراً علوية، ام اكسيراً يجدد الحياة !..

وعادا الى البيت حبيبين . عادا يسيران خبباً والجوادان يحاذيان متلاصقان جنباً الى جنب، ويد مرام تقبض على يد طوبيا. وطوبيا يحس ان روحه تنسل من جسده شيئاً فشيئاً ، لتحل فيه روح جديدة ، تعلمه كيف يمتزج الشباب بالشباب !..

لقد تبدلت مرام تبديلا لفت انظار الناس اليها .. وهل الناس غير مختبر طباع ، وتحليل غرائز ؟. هل الناس إلا مرقب يرصد ما يبدو جديداً ؟. فالصبية الهادئة الخجول بدت فجأة لعوباً جريئة ، ساحرة الضحكة . فتانة الخطوات . وليس ادل على تبديلها من هاتيك الموسيقى الجديدة التي قارنت صوتها ، وليس اثبت على تحولها من هاتيك النظرات الرقاصة الجريئة المرمى. اما ضحكتها، ضحكتها الصادحة كاغرودة البلبل ، فهذه وحدها تفصح عما في قلبها من لهيب الحب وصفاء النجوى !.

وجلست يوماً تقرأ لابيها فصلاً من سفر ايوب ، وتفسره له عندما تفوته المعاني . وابوها يصغي اليها بانتباه وعيناه تلتمعان ببريق السرور والغبطة . اما طوبيا المصغي الى هفواتها الصرفية والنحوية ، فقد اضاع اصغاءه ، وراح تائه الفكر في مهمه الاماني العذاب !. هل يتنازل ظافر بك درويش ، زعيم المنطقة باجمعها

وحاكمها الاجتماعي الشديد البأس ، ان يزوجه بهذا الملاك ؟. واذا أبى فماذا يكون نفع الحب ؟ فهل يستطيع ان ينسى حبها ؟ وحدق اليها وهي منصرفة الى التوراة ، حدق الى اهدابها المسبلة فوق الصفحات كأنها تعكس على الكلمات ظل ايوب نفسه ، فيتراجع الزمن ، وتهوي الابعاد والاجيال وتعود الآلام التي المت بجسد ايوب ، فتحل في قلب طوبيا ..

ما اشد وطأة الحب ، بل ما اجهل من يحب من تكون اسمى من الحب ! ..

قطع طوبيا النهار تفكيراً ، وانهى الليل دون ان تلامس جفنيه غفوة . فهو يطلب نهاية يستقر فيها مصيره ، وهل من نهاية الا الزواج ؟ هل من نهاية غير بناء عش آمن يكون مدرجاً للعيلة المزمعة ؟ . وفكر في العيلة . فكر في الحياة . فكر في السلسلة العظمى التي تربط الجيل بالجيل وتحمي مناعة البقاء ، بل فكر في هذه المعجزة غير المدركة التي اوجدتها القوة غير المدركة ،ونهض من فراشه خائر العزم كأنه شاء ان يحمي ضعفه بالهرب ، فالفراش لا يلين لبائس . ولا ينعم لمتيم ..

وهل طوبيا بائس ؟ . وهل كان البائس غير الفقير الذي لا يملك قرشاً ؟ إن طوبيا ليس فقيراً . فثمن البيت ما برح موفراً . واجور السنوات الخمس لم ينفق منها شيئاً . فالزعيم لا يسمح له ان يفرط بقرش واحد من ماله .

وضاق طوبيا ذرعاً . ان ما في نفسه من الالام لا يقوى على احتمالها صدره على سعته ومناعته . فماذا يفعل ؟ ..

وكشف نفسه الى دانيال . الى الشاب الذي كان معداً ليكون راهباً . ودانيال صديق حميم لطوبيا فقد قطعا السنوات الخمس أليفين متحابين متجادلين علمياً ونحوياً . بل قطعاها كاهناً وتائباً اذ كان يعترف كل للثاني بما يفعله في نهاره ويفكر فيه ليله ، وكم كان استغراب دانيال شديداً عندما صرح له طوبيا بانه يحب مراماً ، وانه يفكر في الزواج بها . على ان هذا الاستغراب لم يكن مخفى بل ظهر بالنصح الا يقترب من الزعيم لئلا يخذله . فتتضاءل منزلته لديه. ولكن طوبيا لم يزعزع كلام صديقه ما فيه من الجرأة . لان الحب لا يترك خوفاً في قلب .

سعادة !

ومرت الايام تطوي آمال الناس الماضية لتوقفهم لدى آمال جديدة ، وطوبيا ما برح مصراً على امله الذي لا يطوى ..

وجاءته مرام يوماً تلفت نظره الى نشيد الاناشيد . مسحورة بقوة النغم وعذوبته معجبة بصراحة النجوى وصدقها .

وطلبت اليه باغراء ان يقرأ واياها هذه القصيدة الخالدة المخلدة . فتكون الحبيبة ويكون الحبيب ، تكون ملكة التيمن ويكون سليمان ..

وقرأ . وقرأت . ولما انتهيا ، تفتحت عينا مرام عن بريق جديد وسألت طوبيا : أتحبني ؟ .

فقال ما نفع الحب اذا قضت عليه يوماً ارادة الزعيم ؟

فقالت : لا زعيم على الحب يا طوبيا . فقد اوجدت الشرائع قانوناً لكل متجه . اما الحب ! فهذا الذي ظل حراً طليقاً ..

– ايمكن ان تكوني زوجتي ؟

– اكون مهما شئت يا طوبيا ..

وشاءت ان ترتمي في حضنه ، فاعتذر بلطف وقال : مرام ! دعي هذه الازهار على وجنتيك بكراً حتى تصيري زوجتي فاقطفها ..

فارتعشت ابنة الزعيم وتوهج خداها بلهيب الخجل . ولما شاءت

ان تتكلم ، ظهر ابوها فجأة وانتهرها بصوته القاصف : مرام !!..
ايتها الطائشة الوقحة ، ألم تدركي بعد انك اسمى من ان تلقي
بنفسك في احضان الرجال ؟ فاطرقت مرام مصعوقة . ونهض
طوبيا يعتذر . على ان الزعيم لم يبد غاضباً على طوبيا فهل يكون
شاهد الموقف ؟ ..

وخرج طوبيا . ولكن ليس ذليلاً ..

وبعد ثلاثة ايام دعا الزعيم طوبيا وقال له : لقد راقني ادبك
يا ولدي فلا بأس من ان تكون مرام زوجتك . فانحنى طوبيا
مقبلاً يد الزعيم شاعراً بفيض السعادة .

يوم الجنوب !.

ظافر بك درويش يفيض كرماً ولطفاً . والجماهير تتألب افواجاً على الموائد الغنية الشهية الحافلة بكل مسكر ولذيذ . وسهول الجنوب وهضباتها مكتظة بالفرسان ، وقرع الطبول والزمور يملأ الارجاء ، وصدى المهرجان الكبير ينتشر في الآفاق ويتكسر هديراً غامضاً على ذراري الاثير ..

وطوبيا ! طوبيا الحالم بالف سعادة وراء كل نظرة من عيني مرام ، جالس على مرتفع بين الاعيان والوجهاء المشرفين على لعب السيف وميادين الجياد ، وحلقات الرقص ..

انه ليوم لم تشاهد البلاد مثله يوماً . ان عرس مرام يجب ان تشترك في افراحه الطبيعة باجمعها . الجماد والنبات وكل ما يدب على التربة الجنوبية . وليس كثيراً على السماء ان اشتركت ايضاً ، اليست مرام عنواناً لجمال السماء ؟.

كان طوبيا مصغياً الى هذه الافكار . مرافقاً احلامه البيضاء التي يراها في يقظته . شاعراً بنفسه انه رب البشرية جمعاء ، وانه يستعرض خليقته في يوم عرسه ليرى ما اذا كانت جديرة بان تقول له يا ربي ..

وكانت زغاريد النساء تزيده نشوة ، ولا سيما عندما يسمع اسم مرام يتردد في الاغاني والاهازيج ، فيحس نفسه مرتفعاً فوق

الجميع ، جالساً على سحابة بيضاء ، حاجباً الشمس عن البشر !.
شعور لم يحس ابلغ منه حتى الملوك في ايام ظفرهم !.

ودام المهرجان ثلاثة ايام بلياليها ، وقطعان الغنم تنحر على الطرق وفي الساحات . والخمور تراق كالنبع المتفجر في سفح !.

وفي اليوم الرابع مشت الجماهير الى حفلة الزفاف فضاقت ممرات البلدة بالناس ، وتعذر على الفرسان المرور ليواكبوا العروسين . وظافر بك يستميح الحشد اعتذاراً ، حتى وصل الموكب الى الكنيسة ..

وفي الكنيسة تجلت الروعة باجلى ما في الدين من طقوس وتقاليد فهناك مرتبة انيقة مجللة بالازاهير ، متألقة بالشموع ، وحولها ثلاثة اساقفة بالطيالس والتيجان المرصعة . وعشرات الكهنة بالملابس الكنسية الجميلة الرائعة . وكلهم محنو الرأس خاشع الطرف استعداداً للصلاة !.

ووقف العروسان الجميلان حول المرتبة الانيقة ، وباشر الاسقف الاكبر سناً الصلاة ، فلامس طوبيا عينيه ليرى ما اذا كان حالماً . ولما تحقق يقظته ، نظر الى مرام بشغف ، فوجدها مكفهرة الوجه ، حمراء الاجفان ، فما بالها ؟.

وخفق قلب طوبيا خوفاً ، وسأل نفسه : أتكون نادمة على رضاها بي زوجاً ؟. على ان صوت الاسقف اوقفه عن المضي في تصوراته ، اذ سمعه يسأله قائلاً : يا طوبيا ، أتريد مراماً كريمة ظافر بك درويش زوجة لك ؟. فاجفل طوبيا غير مصدق واجاب بصوت الهب حنجرته من الفرح والخجل . نعم !

وعاد الاسقف يقول : وانت يا مرام اتريدين طوبيا الحلبي زوجاً لك ؟ ففتحت مرام فمها لتجيب ، واذا بعينيها تجحظان ! واذا بفمها يفغر ذعراً ! واذا بصوت مخيف يخرج من اعماق صدرها واذا بها تسقط مغمى عليها !.

اضطرب النظام . وضج الناس . وعلا الصراخ ، وارجعت الكنيسة هذه الضجة صدىً زاد في تبلبل الموقف . فانحنى طوبيا انحناءً اهوج وحمل مراماً بين ذراعيه مثلما حمل زوجة الفنان عندما سقطت في حفلة التمثال واخترق الجماهير صائحاً كالمجنون : افتحوا طريقاً للعروسين !.

واجفل الناس من صيحة طوبيا المختنقة بالرعب والتطير . فتراجعوا مشدوهين يفتحون طريقاً ، وفي عيونهم بريق الاستفهام حائر الاتجاه .

وانطلق طوبيا يحمل عروسته مثلما حمل حواء معلمه . وكان سريعاً قويا . كأن في قدميه عاصفة هوجاء . بل كأن وشاح مرام الطويل ، وشاح العروسة الابيض المتهدل على جسده جناحان يندفع بها الى دار الزعيم .. وعلا الصراخ والعويل . وانقلب العرس مأتماً صادق الصرخات . واندفعت الجماهير وراء طوبيا . وطوبيا لا يقف ولا يلتفت . وكان دانيال يركض محاذياً العروسين يكلم طوبيا كلاماً حافلاً بالحزن والالم . وطوبيا لا يفهم ولا يجيب . فكأن نبضات قلبه السريعة حالت دون وصول اي صوت الى اذنيه . على ان طوبيا لم يستطع الاستمرار في ركضه فالطريق ذو عثرات ، واخاديد ، وعطفات . ومرام المتراخية

الجسد الفاقدة الحس نهكت قواه فسقط لاهثاً خائراً وعيناه الكبيرتان تدعوان الجماهير ، أن ارحموني !.

لقد سقط طوبيا على جذع شجرة . وسقطت مرام فوق صدره ، باكليلها . وشفوفها . وحلاها . وعطورها .

ووقف دانيال يرقب الوضع بنظرات غريبة . مشتعلة بالغيرة والحسد . وخشع الناس امام المشهد الشعري الغريب ، مشفقين على جمال مرام وصباها . لاعتقادهم انها ماتت .

ووصل والد مرام . وصل الزعيم ذو البطش والسلطان ، مقوداً من ذوي الوجاهة . ووجهه يلقي على الناس عظة عن العاطفة العميقة الغور . . ووقف لاهثاً . وتكلم متلجلجاً . يا وحيدتي ! أيكون عرسك ومأتمك في ساعة واحدة ؟. وبكى الاقطاعي الصليب الفؤاد . وتعالى صوت بكائه خشناً اجش . فبكت الجماهير على بكائه . فكان زعيما حتى في حزنه . .

وليس غريباً ان يكون بين الجماهير اطباء فالدعوة الى العرس كانت بالغة الاقاصي اللبنانية ، فاشار هؤلاء الاطباء ان ترفع مرام على ظهر جواد ، لتوصل الى سريرها .

ولما شاء الفرسان ان يرفعوها اعتلى طوبيا جواداً وقال : ارفعوها الى حضن عريسها ! وهكذا سارت الناس وراء الجواد الذي يحمل العروسين !.

طوبيا يهرب !

ثلاثة اطباء يفحصون العروسة . وطوبيا ينتظر خارجاً واذنه على باب غرفتها ليسمع ما يقال عن حياتها ..

وبعد هنيهة خالها دهراً . سمع لغطاً ، وتبع اللغط حوار . وكم كانت دهشته راعبة عندما سمع الزعيم غاضباً ، ويقول : مرام حبلى !. هذا لا يكون !.

فاجابه احد الاطباء : ليس غريباً يا سيدي ان تحبل ابنتك وخطيبها على اتصال بها .

فزمجر الزعيم وتوعد وقال : خطيبها ؟! أيستطيع هذا الارنب ان يسطو على عرينة الاسد ؟ ايكفر بنعمتي ويدنس عرضي ؟ سيدري ان دون انتهاك حرمة البيوت تحطيم الجماجم !.

اضطرب طوبيا اضطراباً انساه لوعته وحبه . بل انساه سعادته التي انسته نفسه انسانا ، واوهمته انه اله فوق السحب البيض . ولكنه تجالد وتمالك . وخرج منسلاً انسلالاً دقيقاً . واذا ما سئل الى اين ، اجاب لأعود بدواء الى عروستي !.

وفكر طوبيا بالهرب ! ولما دخل غرفته ليأخذ نقوده لحق به دانيال وسأله مستفهماً : ماذا جرى ؟ ؟ فقال لا شيء يا صديقي ، لا شيء ، انني ذاهب الى بيروت لابتاع دواء لمرام ..

– ولكنني سمعت ما سمعت انت ، اذ كنت واقفاً وراء النافذة . ان مراماً حبلى ، وانت المسؤول عنها .

ارتجف طوبيا وقال : ولكنني بريء يا صديقي يشهد الله .

– وهب انك بريء . وهب انك نجحت لدى الزعيم فلا بد لك من احد امرين ، اما الزواج واما القتل . واني ارى القتل في حل هذا الموقف اشرف جداً من الزواج ، اذ كيف يعقل ان طاهراً عفيفاً مثلك يتزوج بعاثرة لا تقيم للعفاف وزناً .

– و كيف يجب ان اتدبر ؟

اهرب وانجُ بنفسك ، انك لارفع من ان تهوي الى دركات الذل ...

– و كيف اهرب ؟

– لم يزل لدي الزي الرهباني الذي كنت البسه ايام المدرسة، فتنكر به واسلم ..

– شكراً يا صديقي ، لا شك في ان الله ارسلك لتحرسني كما حرس الملاك طوبيا التوراة ..

•

وانطلق طوبيا راهبا . انطلق يضرب في الارض على غير هدى . انطلق وفكره تائه بين نفسه وبين مرام . فمن يكون الفاعل الدنس ؟ من تراه تجرأ على قتل الطهارة في هذا الملاك ؟ من بذر في نفسها بذور الشر؟ الويل للحيوان الرابض في منعطفات النفس .. الويل للشيطان المنتصب في وجه ملاك الرحمة ...

ومر في بيروت . فتكاثرت ذكرياته ، واضطرب رأسه وقلبه في هذا الازدحام . وقادته خطـواته قسراً عنـه الى بيت نجلاء . فرأى الابواب مغلقـة ، والمحترف مقفلا . ولم يتوانَ عن السؤال عمن في البيت . فقيل له ان البيت مهجور ، لان شيطاناً يسكنه.

– البيت مسكون من الابالسة ؟ وكيف عرفتم ؟ .

فقيل له : لقد تراءى هذا الشيطان لنجلاء الايطالية فجنت .

– ومن هي هذه نجلاء الايطالية ؟

– زوجة صانع الاشخاص الحجرية .

– واين تقيم هذه المجنونة ؟ .

– في الجبال . بين الاحراج . فتارة تبكي وطـوراً تضحك . وآناً تغني ...

– واين زوجها ؟ .

– نفاه المتصرف الى بلاده لكونه غير مهذب ..

●

ومر طوبيا امـام داره . فتراءت له امـه من خلال دموعه ، تراءت له غضبى . فغطى وجهه بيده وغبر ...

بكركي

لم يجد طوبيا موئلاً يلوذ بـه الا قصر بكركي . فالبطريرك بولس مسعد ، خير ملجأ يلجأ اليه في هذه المحنة. فهناك صدر رحب وذراعان مفتوحان لكل ضال ... ودخـل الراهب المتدرج الى صرح التاريخ الفخم ، ولثم يد البطريرك ، ولما سأله : من اي دير انت آتٍ ؟ اغرورقت عيناه بالدموع واجـــاب : من دير المحن والشقاء يا سيدنا ..

فرقص حاجبا صاحب الغبطة يستفهمان بدون كلام . عـلى ان الراهب لم يجب بل أطرق خجلا .

وتكلم البطريرك مشجعاً : كن صريحاً يا ولدي انك لفي صرح لا يقيم للالغاز وزناً . فهل سطا اللصوص على ديركم فنهبوا محتوياته ؟.

– لا يا سيدنا . بل سطت المصائب على قلبي فنهبت جوهره!.

– أعدت للالغاز ؟

– وهل نحن الا لغز في هذا الوجود ؟

– قلت لك افصح ان شئت ان تنال مطلباً !.

– اود ان اعترف يا صاحب الغبطة !.

– بارك الله ايمانك يا ولدي . ان الكهنة كثيرون في هذا المرجع ، فاذهب واطلب من شئت منهم !

– ليت غبطتكم تسمع اعترافي يا مولاي . انه لحديث ككل حديث ، لا جريمة ولا خطيئة وانما تدبير جديد يغير مجرى حياتي .

– ان مجاري الحياة في يد الله يا ولدي . وشعرة واحدة لا تسقط من رؤوسكم بدون ارادة ابيكم ، تكلم !.

وجثا طوبيا بين يدي البطريرك الوقور . فاحس رهبة السماء تهيمن على الموقف . فتهيب ! وجرد حكايته منذ البداية . وطلب الى سيده ان يسلحه بامر لرئيس دير « قزحيا » لينضم الى جنود المسيح في الشمال ..

وكان طوبيا صادقاً في اتجاهه . منسحقاً في اعترافه نادماً عما مضى مستعداً لقبول ما سيكون . وهكذا نال ما طلب وودع ولي الصرح وانطلق يطلب الشمال ..

ثلاثة ايام سيراً نهكت قواه . واوهنت قدميه . وفجرت العرق من مسام جسده ، فابتل كل كساء على جسده حتى العباءة الرهبانية المنسوجة من الشعر !.

قناطر . نوافـذ . شرفات ! كلها تفتح الى جنوبٍ واحد ، كأن قرصاً من الشهد وقف عـلى دائرته ، فبدت نخاريبه بهذا الشكل الهندسي الاخاذ !

وسأل طوبيا احد المارة : ما هذه البلدة يا اخي ؟.

فضحك الرجل ضحكة تغرغر بالتهكم والالغاز وقال : أتجهل معقل المقدمين ؟ ألم ترَ مقابض المقدم رزق الله تعضد الزوايا والاركان بالايمان والجبروت ؟ أما سمعت يوماً ، أو قرأت شيئاً عن ذلك الجبار الذي شحذ دينه سيفه . وحمى سيفه دينَهُ ؟ أتجهل بشري ؟! ..

فارتعش طوبيا ، واحس رهبة المكان تحوطه بشعور غريب وبدت روح الرب ترفرف فوق القمم العالية لتحرس ارز الرب !. فخشع وتهيب ، وحاول بقدر مستطاعه ان يزن وقع خطواته . فالمكان مقدس تعصف فيه الارواح الخالدة .. في الاعالي روح لله . وفي الاعماق دماء الشهداء تعطر التربة المهجورة ..

واذار طرفه نحو الاعماق . فبدا امامه الوادي المقدس فجوة رهيبة تتبخر الاضواء بين فرجتيها ، فتستحيل غشاءً سماوياً شفافاً ، يبرقع الابعاد بحلم شعري باهر . فيه يقظة وفيه غيبوبة .

ووقف مسحوراً ! وقف يودع الانسان في جسده . وقف ينفض التراب، التراب الجائع عن روحه الزاهدة. وقف يستل قلبه من بين جنبيه لينقيه مما علق به من ذكرى نجلاء واغرائها ، وحب مرام وسطوتها . بل وقف لينذر نفسه امام قدسية الدهور ، ناسكا لهذه المغاور المقدسة !.

في هذه الفترة المنفصلة عن الغرور . والطمع . والشهوة . وحب التراب ، سجد سجود موسى امام لهيب العوسجة وقال بصوت مذبوح : اللهم امنحني هذه الاعماق نصيباً لايامي فاشرف منها على سمو ملكوتك . اللهم ادر عنان نفسي بيدك القوية . لقد غلبني العالم فتركت العالم !.

•

ونهض طوبيا منسحقاً . ومشى مطرقاً شاعراً بيقظة روحية تستولي على كل شاعرة وحاسة في كيانه . ولما بلغ المدينة التي بدت لعينيه كقرص الشهد. احس بامعائه تضطرب جوعاً ، فابتاع اكلاً وعبر الازقة لا يلتفت ولا يتريث واذا ما سأله سائل عمن يكون ، وماذا يطلب ، تلعثم بالجواب وغمغم قائلاً : قزحيا ، اين الطريق الى دير قزحيا ؟. فيرشده السائلون ويتابع المسير . وروحه الكبيرة تفتح امام بصيرته طريقاً رحباً من التفكير الطليق ، البعيد الاهداف . الكثير الرغبة في ملكوت الله ..

وانحدر طوبيا الى هاتيك الاودية السحيقة مصغياً الى انشاد الشحارير ، وهدير المياه البعيدة الصوت والصدى مأخوذاً بروعة

المكان . مسحوراً بالنسمات الندية ، الناعمة الملمس ، حتى اطل على قنوبين !..

وهناك في ذلك المقدس الابدي وقف مشدوهاً واتسعت عيناه اذ رأى ناسكاً شيخاً ساجداً امام زرقة السماء، رافعاً ذراعيه نحو العلى ، وشفتاه تهتزان كجناحي فراشة حائمة حول مصباح ضئيل!.

وهتف طوبيا دون ان يعي ! بوركت من واد كل ما فيه طاهر وعفيف ! ما هذه الاقداس التي تحول الجسد قفصاً لا يحس ، لروح كلها شعور واحساس ؟. وبعث طوبيا هتافه مشتعلاً بالايمان فرسم الراهب الشيخ اشارة الصليب على وجهه ، ونهض ملتفتاً نحو الصوت . ولما التقى النظران تكلم الشيخ مغمغماً : مبارك انت ان كنت رسولاً من رسل المسيح . اما اذا كنت خناساً جاء ليشتري نفسي ببريق العالم ، فلتلعنك السماء !.

فانحدر طوبيا مسرعاً نحو الناسك وركع بين يديه قائلا : باركني ايها القديس إني آت لاغذي نفسي باماتة جسدي: فارتفعت يد الشيخ المعرقة فوق رأس طوبيا لتبارك الشاب العفيف ، ومر طائر في الافق ، فانعكس ظله بين الناسك وطوبيا عابراً ..

في هذه الهنيهة سمع طوبيا اهازيج السماء في حفيف الاغصان. واستنارت نفسه بضياء جديد ..

في الغد ، كانت بوابة دير القديس انطونيوس الكبير تقرع عند منبلج الفجر ، بينما كان الرهبان يرتلون باصواتهم العالية المشتركة لحناً سريانياً جميلا للقديس افرام ، في كنيسة الدير المحفورة حفراً في سفح الجبل ..

فتحت البوابة وخرج صوت من الداخل : من تكون ؟ فقال طوبيا : مؤمن جاء يزور الدير .

– تفضل ادخل ان الرهبان في الكنيسة . ألا تريد ان تشاركهم في الصلاة ؟

– اني آت لاشاركهم في كل ما يعود لمجد الله .

– بوركت مؤمناً صحيحاً ..

دخل طوبيا الكنيسة ، فتفحصه الرهبان بعيونهم واحداً واحداً وتابعوا اناشيدهم الروحية : « هوذا الصباح قد حمل النور مصباحاً ليوقظ البشر من هجوع الظلام فيمجدوا مرتب الازمنة»

« انه يقرع ابواب العالم ليفتحها ! »

« لقد انتفض الراقدون كأنهم سمعوا صوت الصباح الشجي . »

« هوذا العالم ! الاسواق تتدفق بافواج السائرين كالينابيع . وذوو المراتب اجتازوا ابوابهم، وجلس كل ذي سلطان في كرسي نهيه » .

لقد اصغى طوبيا الى هذه الجوقة الروحية ، فانتعشت روحه اغتباطاً . وقال في نفسه : ما اجهل من يقطع مسافة العمر مستعبداً لجسده .

ان المسافة التي تصل الرحم بالقبر يجب ان تخصص للروح .

سيظل الانسان جاهلا حتى يعرف مركز جسده من روحه . ويفهم كنه روحه في جسده .

الجسد كوخ حقير مظلم تجوس في زواياه الهوام والديدان اذا لم تسطع الروح في ارجائه.

كان طوبيا يفكر وهو جاث ، وكانت ركبتاه مسمرتين في ارض الكنيسة وقلبه يخفق خفقاناً جديداً لم يحسه قط .

ولما اتم الرهبان صلاتهم وقدموا ذبائحهم دعا الرئيس طوبيا اليه وسأله : من تكون يا ابني ؟ فاعطاه طوبيا رسالة البطريرك دون ان يجيب . فقرأ الرئيس :

بعد البركة ! ان ناقل رسالتنا اليكم يدعى طوبيا الحلبي من بيروت . لقد انهى دروسه في المدرسة الشرقية الاكليريكية وهو تواق الى ارتداء الثوب الرهباني المقدس لانه يشعر بانه مدعو لهذه الدرجة السامية . فحافظوا عليه . واكرموه . انه مقيد للدير وللطائفة . ان علومه منارة في واديكم المقدس . نكرر البركة .

انفرجت اسارير الرئيس وقاد طوبيا الى غرفته الخاصة ليقوم بضيافته ، ويرتب اتجاهه . وسأل الرئيس : طوبيا ، في اي دير ارتديت هذا الثوب يا ولدي ؟.

فقال طوبيا والخجل يحرق وجنتيه ، ارتديت الثوب لاتنكر عن الرقباء لانني هارب من العالم !.

ــ العالم !

ــ نعم يا ابتِ . انما العالم مغرٍ مخيف ، لا يقوى على الثبات في مهاويه إلا من يضحي بضميره ونفسه وشرفه ، وعندما يضحي المرء بهذه كلها في سبيل الغلبة ، يصبح عضواً مشلولاً في هيكل المجتمع !..

ــ يتراءى لي انك ناقم يا ولدي . ومن كانت هذه حقيقته لا يجوز له ان ينذر نفسه لله راهباً ، لان الراهب مثال التجرد الانساني والكمال الارضي فهلا تنقيت مما يعصف بصدرك من احقاد ونقمة ؟!

ــ لم يعرف صدري حقداً ، ولم يحس ضغينة وقد اعترفت منذ اربعة ايام لدى صاحب الغبطة ..

ــ اعترفت ؟!.

ــ أفي الامر غرابة ؟.

ــ لا . لا . معاذ الله وانما كنت مستعداً ان اسمع اعترافك .

ــ لم يحدث معي شيء بعد اعترافي ، سوى التحاقي في قدسية هذا المكان .

ــ ليباركك الله .

ــ ولنباركه نحن ايضاً ..

•

انجلى الصباح ورصعت الشمس ادواح الغابة واعالي القمم .

فقرع جرس الافطار وهبط الرهبان جميعاً الى احد الاقباء ليتناولوا افطارهم .

وكان طوبيا معهم . مع القس لا مع الاخوة المتدرجين ، ان رسالة البطريرك اعلنت طوبيا شخصية تحترم في هذا الوسط المنظم . وبعد الافطار تفرق بعض الرهبان والاخوة في الحقول ، كل الى عمله . وظل في الدير بعضهم .. وشاء اعلم الباقين ان يحدث طوبيا . شاء ان يعجم عوده ويختبر معارفه وعلومه ..

انها الغريزة في مخلوقات الله كلها . فاذا ما دخل ديك جديد بين الديكة هجمت عليه واحداً واحداً لتختبر قوته . فان غُلب احتقر وعاش ذليلاً . وان غلب ساد وتبهنس! وما نراه في الديوك نراه في الغنم وغيرها . اما في الانسان ، فلا حاجة الى البرهان ما دام كل منا يحس هذه الحالة في نفسه ..

وتكلم الراهب العالم سائلاً طوبيا : أتعتقد أن آدم هو الانسان الاول على الارض ؟.

فابتسم طوبيا واجاب : كم كان سؤالك ذا قيمة لو لم تقل الارض .. وهل وجد الانسان الا للارض؟ وهل وجدت الارض إلا للانسان ؟ فالانسان والارض جزءان يتممان كلية الوجود ..

فقال الراهب : اراك تتهرب من الجواب السديد بمداورة وحذلقة ، فانا اطلب جواباً عن آدم لا عن الارض !.

– لا يا ابتِ . انك تطلب الانسان الاول لا آدم . واليك جواباً . اذا لم يكن آدم ذاك الذي نعرف اول انسان فيكون

غيره . فالعاقل من يتصور ان انساناً واحداً وجد في البدء ولك الخيار في ان تتخيل هذا البدء كيف تشاء !.

فرفع الراهب رأسه مستخفاً وقال : اذن انت لا ترى موسى سوى خيالي فيا روى .

ـ انا لا احفل بالصورة بل بالحقيقة . فالصورة واسطة للوصول الى الغاية . الصورة قشرة للب اسمى من القشرة . فليتكلم موسى مثلما يريد . وليروِ ما طاب له ان يروي . فلا فرق عندي ان اصعدني القمم . او هبط بي الى سحيق الاوداء ، فالمهم ان يريني الله في هذه الرحلة . وهل كانت توارة موسى إلا مرأى وجه الله؟!.

قال طوبيا هذا ونظر الى الراهب ليسمع جواباً . غير ان الرئيس اشار الى راهبه بعينيه أن اسكت !.

ومرت فترة صمت . فامتلأت ارجاء الغرفة بهدير الوادي واصداء فجوانه . وانطلقت عينا طوبيا من النافذة تتمتعان بالجمال وفتنة المنسك المقدس . هناك طيور تحط وترتفع . وهناك اشجار تميس وتتشابك . وهناك مياه تتدفق منحدرة كفوارة النور . وهناك جبل يتسامى بانتظام وروعة الطبيعة تزركشه بالوانها الشعرية وهناك قطعان الدير تبدو في الغابة البعيدة كزبد الامواج وهنا شجرة ضخمة مسنة تعكس ظلاً ظليلاً في فسحة عارية من السفح . وراهب يستلقي في ذلك الظل . كانه يودع آخر بريق من لألاء العالم ..

في هذه الهنيهة الحافلة بالتأمل والاعجاب . دخل اخ يحمل

القهوة ويقدمها لرئيسه . فاخذ الرئيس فنجاناً ، وقدمه لطوبيا وقال ممازحاً : ألا تحب ان تذوق قهوة الرهبان ؟.

فابتسم طوبيا وقال : أيكون في القهوة لذة اكثر مما في هذه الطبيعة الكارزة ابداً تمجد الروح ؟.

فاجاب الراهب العالم : وما رأيك في القهوة ، أليست صوتاً من كرازة هذه الطبيعة ؟.

– لا شك في ذلك يا ابت على أني لم أرَ شجرة بن واحدة في واديكم المقدس .

– وهذا فخرنا . لاننا نحفل بكل دخيل واجنبي !.

فاحس طوبيا انه هو نفسه الدخيل والاجنبي فقال :

– كم اتمنى ان تستثنوا الشياطين !.

– ولِمَ الاستثناء ما دمنا نرد كل غريب مكابر مدحوراً !..

– ليس الغريب الذي يحل بينكم غريباً ما دام يأتي نادراً محبذاً ، وانما الغريب ذلك الذي يأتيكم ليزعزع ايمانكم ويبعثر تأملاتكم . ولنفرض إني ذلك الغريب الذي تقصد ، اما قال السيد المسيح لأسمه السجود : «يأتون من المشرق والمغرب ويتكئون في حضن ابراهيم وابناء الملكوت يطرحون خارجاً ؟ ».

انا غريب يا ابتِ ولكني جئت لأصير شعلة مقدسة تنير نفسي بالايمان والتقوى ، انا غريب ولكن عن العالم لا عن هذا المنسك الذي بني على اسم انطونيوس الكبير ، وستبرهن لك الايام ان غربتي بينكم وطن نفسي وهذا كل ما اطلب ..

مجنون !

علت ضجة خارجاً فخرج الرئيس وتبعه الراهب وظل طوبيا مسنداً رأسه بكفه على حافة النافذة . ولكن الضجة ازدادت وسمع مثل صراخ وشجار فخرج، فاذا به تجاه مجنون ممزق الثياب مهشم الوجه يقوده ثلاثة رجال اشداء وهو يحاول التملص منهم وصراخه يشوه سكينة الدير . على ان الرهبان تجمهروا وشدوا وثاقه ورموه في مغارة مظلمة رطبة تخرج منها رائحة العفن واعماق الارض ..

كان المجنون شاباً في مستهل عقده الثاني ، ذا قوة جسدية قلما وجدت في اولئك الذين اختلت في رؤوسهم حركة النظام الطبيعي.

وكان هائجاً يهذي ويهذر وعيناه التائهتان تحاولان اختراق جدران المغارة العفنة ، ولكنها ترتدان عن الجدار جاحظتين عندما يهوي الحذاء على رأسه ، فيصرخ صراخاً كالعواء قائلا :

« انا ابن بشر ، انا ابن بشر ! »

وكان الضارب بالحذاء ، راهباً ضخم الجثة منتفخ البطن ، كثيف اللحية والشاربين ، غزير الحاجبين ، وله عينان صغيرتان مستديرتان كعيني الصقر ، غارقتان في محجريهما كنجمتين منعكستين في قلت ماء عكر ..

وتوالت الضربات بحذاء الراهب العامر الهيكل . وازداد

العواء من المجنون الضائع الاتجاه ، وطوبيا واقف امـام المشهد فاغراً فاه مستغرباً ، سائلاً نفسه : أفي مقدس من مقادس عباد الله انا ، ام في حظيرة لترويض الضواري ؟؟..

وتفحص وجوه الرهبان الواقفين حوله ، فوجدهم يبتسمون ابتسامات تنم على الرخاء التام كأنهم واقفون خاصة ليروا تعذيب ابن البشر ..

وبعد عراك طويل بين المجنون والراهب ، خـارت قوى الشاب وتدفق الدم من فمه وانفه . فانطرح منقلاً بزناجيره ، ولهاثه الصخاب ، يغرغر في حنجرته ، فيبدو صدره العريض خـافقاً مرتعشاً كأنه يقذف بما فيه من الحياة دون ارادة الموت .

وخرج الرئيس متهللاً . وتبعه الرهبان راضين عن هذا المشهد الاليم . امـا طوبيا فكان يحس نفسه شطراً من الشاب المعذب المهان ..

وسأل راهب طوبيا : ما رأيك بهذا المجنون ؟.

فسكت طوبيا على مضض . سكت ولسانه يلتهب في فمه فيوهج خديه .. على ان الرئيس شاء ان يشفع بسكوته فقال :

ان اخانا طوبيا متأثر على ما اظن أليس كذلك يا ولدي ؟

– هي الحقيقة يا ابتِ ، فالقساوة التي رأيت ارتني الانسان غير ما كنت اتوقع . بل ارتني الراهب دون ما في نفسي من الايمان بكمال الراهب ..

– ولكنها طريقة ديرنا المتبعة في شفاء المجانين .. الم تدرِ ان في الشاب مساً وان الشيطان رابض في خلايا دماغه المضطرب ؟.

- أمجنون هذا الذي تضربونه بمثل هذه القساوة ؟
- أفي شك انت ؟
- ولِمَ تعتبرونه مجنوناً ؟
- لانه فاقد النظام منحرف عن جادة العقل ..
- وكيف صار هكذا ؟
- استولى الشيطان على عقله ، فافقده اياه ..
- ما شأن العقل في الانسان ؟
- أتجهل ان العقل كل شيء في وجودنا العملي ؟ أتجهل انه الحاكم على الشعور ، القابض على الحس ، المالك على الارادة ؟ أتجهل اننا بدون العقل لا ندري كيف نسير ولا اين نتجه ؟.

فهز طوبيا برأسه وتضاحك مستخفاً وقال : أيسمح لي ابتي الرئيس بابداء رأيي الخاص ؟.

فغمغم الرئيس واجاب :تكلم . تكلم ..

- ما دمتم تدركون ان العقل هو الذي يدير اتجاهنا . وما دمتم تدعون من يخلون من العقل مجانين . وما دام ذوو المجانين يأتون بمجانينهم اليكم لتتم الاعجوبة ويشفوا ، فلِمَ لا تحسنون الاتجاه وانتم العاقلون الفاهمون المقصودون ؟ ألستم بمثابة العقل لكل مجنون يأتي اليكم ؟ فمن منكم يرى عقله يدير جسده بهذا الشكل القاسي المذيب ؟ من منكم ينهال على نفسه بجذائه ويرمي بنفسه بين الاقذار والوحول والاعماق العفنة ؟ من منكم يقيد يديه ورجليه بزناجير الحديد ويطرح جسده في الظلمة ؟. فاذا كان عقل الفرد لا يقسو بالفرد فما بالكم وانتم اصحاب العقول وحاملو

رسالات الانسانية والسلام ، تقطعون بهذا الشاب صامّين اذانكم عن صراخه العاقل القائل : انا ابن بشر ! انا ابن بشر ؟!

فاجاب الرئيس وقد بدت عليه دلائل الامتعاض : ولكنها الاعجوبة يا ولدي الاعجوبة ! انها تستدعي ما رأيته قاسياً لان الشيطان خزاه الله لا يطرد إلا بالحذاء .

فاستوى طوبيا رافعاً صوته عن ذي قبل وقال : انها البربرية عينها . انه الظلم المتشح بالرهبة ومظاهر التقوى . فالاعجوبة في الايمان والخشوع وليست في الحذاء . الاعجوبة مشيئة السماء وليست ارادة الارض . ولو ان الاعاجيب وقف على مطالب البشر لما كانت اعاجيب ، بل مكيفات واحالات وظاهرات يديرها الانسان ساعة يريد ، ويسجلها مع ما اكتشف واختبر واخترع في سجلات العلم .. فاذا ما طلبتم اعجوبة ، فاطلبوها بايمان واستسلام وتجرد . اطلبوها في اعماقكم ، في جوهركم ، في نفوسكم !. اخرجوا هذا الشاب من قبره الحي ، واوقفوه امام رهبة الهيكل واضرعوا لاجله ، امام الله ، والله هو الذي يعد له الطريق الاخير .. احملوه الى حجرة نقية الهواء ، غنية بالشمس ، لعله يستعيد القوى التي فقدها في تيهه وجهله ..

انه كالطفل يا ابائي ، يضحك ساعة لا حاجة للضحك ويبكي حين لا داعي للبكاء . فهل رأيتم أماً تضرب طفلها لتكوّن له عقلاً ؟.

فضج الرهبان ناقمين على طوبيا . وصاح احدهم : كفاك ثرثرة! ان شأنك في هذا الدير لشأن الطائع للقوانين وان ابيت ، فلست اول طالب دخل متفلسفاً ، وخرج يتعثر بخيبته !

فنظر طوبيا الى من انذره بالطرد ، فوجده ذلك الذي سأله عن آدم وعما اذا كان الانسان الاول .

فابتسم له ابتسامة صافعة وقال : هذا انت !. لقد تباحثنا منذ هنيهة كما اعتقد ، أليس كذلك ؟.

واراك فهمتني منذ اللحظة الاولى ، لاني لمست فيك علماً وذكاءً وعمقاً في الاطلاع !. فهلا تكرمت عليّ باسمك ؟. فنزلت كلمات طوبيا على الراهب نزول السوط اللاسع . فتلجلج بالجواب وابتسم ابتسامة جافة وقال : القس يعقوب .

فانحنى طوبيا على يد القس يعقوب يقبلها باحترام ، ويعده امام رئيسه بالطاعة .

على ان الرئيس لم يرقه هذا المشهد ، وقد حاز طوبيا الغلبة على القس يعقوب . اذ عزا هذه القبلة من طوبيا الى الدهاء ، فكأن طوبيا شاء ان يكم فم الراهب بكتلة من صلصال !. وإلا ما معنى دخول طوبيا الدير على هذا الشكل ! أيدخل آمراً مرشداً ناقداً رادعاً ؟ أيحق لهذا الدخيل ان يستهل طاعته بشبه خطبة تنم على التمرد والنشوز ؟.

وهكذا وقف طوبيا يستشف اعماق رئيسه . ويرى غضبة وراء هذه الاعماق تتحفز للانطلاق .. والا ما هذه الغضون الكثيرة التي ارتسمت بين حاجبيه؟ وما هذا الشرر المتطاير من بريق عينيه ؟ وما هذه الخطوات الهوج يضعها على ارض الردهة ذهاباً وجيئة ؟..

وساد الصمت . ولم يسمع طوبيا في ذلك السكون غير وقع

خطوات الرئيس العصبية . ولهـاث الوادي الواسع الاشداق والحنجرة ..

فانتحى طوبيا ركناً منفرداً ، واطل على الوادي يملأ عينيه باقداس الاجيال . ولو لم يقرع الجرس داعياً الرهبان للصلاة ظهراً ، لظل طوبيا غارقاً في تأملاته . مسحوراً بمشاهد « كنز الحياة » الكارزة ابداً بمجد الروح !.

في المساء كان لطوبيا حجرة مطلة على الوادي . اما ما تحتوي عليه هذه الحجرة ، فمتواضع حتى الزهد . فراش محشو بالقش . وسراج خزفي تعوم في زيته ذبالة من قطن وابريق للماء . وكتاب يجمع بين دفتيه قانون الرهبنة ولمحة عن بناء الدير في عهد البطريرك الدويهي الشهير . ونبـذة عن حياة القديس انطونيوس في صعيد مصر ...

ولما ادار طوبيا عينيه في ارجـاء الحجرة ، تكمشت نفسه على ذاتها واحس قشعريرة تتخطى اوصاله لتحتل شغاف قلبه . فانطرح على فراشه يبكي ..

زوور .

لم يستيقظ طوبيا على قرعات الجرس التي كانت تمزق سكينة الفجر شأنها في كل آخر هزيع . ولم يحس احداً ايقظه من رقاده المخمور بالاجهاد . ولما نهض من فراشه شعر بغربة قاسية، وبوحشة تعترض خطاه عندما اتجه نحو الكنيسة ليحضر الذبيحة الالهية .

أيكون غريباً عن هذا الجو المنزوي في هذه المهاوي السحيقة القانعة ؟ أتكون الدعوة التي شعر بها تدعوه للكهنوت ، وهماً وضعته في نفسه التربية الاكليريكية ؟

وركع في الكنيسة ليصلي . ولكنه لم يستطع جمع شتات افكاره . ولم يتمكن من فتح نوافذ نفسه . لانه كان في شبه ثورة بينه وبين نفسه . بل كان في شبه يقظة غريبة عن هذه النفس . انه لم يرَ نفسه جديراً بالانضمام الى الرهبان ، القانعين ، الآملين ، الجادين القاتلين اجسادهم في سبيل نفوسهم ! ان طريقه غير طريقهم! وانه يسمع اصواتاً غير هذه الاصوات التي تعيدها اصداء المعبد غامضة اجشة ! ان الفن يناديه فلِمَ يسد اذنيه عن هذا النداء المشرق بالامجاد . المتألق بالخلود ؟!

ان النحاتين في لبنان نادرو الوجود . وان خلاص النفس ليس وقفاً على سجن هذه النفس . وان بامكان الانسان ، المحافظة على

كيانه وعفافه حتى بين المحرمات والمعاصي !

وانتصب طوبيا واقفاً دون ان يكون له ارادة في وقوفه . ان الانجيل المقدس يتلى على المؤمنين . واصغى طوبيا الى عظات سفير السماء : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ! وماذا يعطي الانسان جواباً عن نفسه .. »

لم يدر طوبيا اية شفاه لفظت كلمات الواعظ الاكبر. ولم يدرِ اية قوة حولت اتجاهه الاخير، وحطمت مراميه الجائعة الى الشهرة من طريق الفن . بل لم يدر اية روح استقرت في خياله وحقيقته . فاذا به يجثو ، واذا به يبتهل ، واذا به يناجي السماء هامساً : ايتها الآمال التي تهيء نفوسنا للخلود. انك لجميلة، وجمالك في شوقنا اليك!

انك اسمى من الخيال لانك حقيقة ، وارقى من الوجود لانك بريئة من العدم !

ان الازمنة التي يتلهى الانسان باحصائها ، انما هي شعاع لا يخبو الا في مرابعك . وان قوس قزح انموذج ضئيل للاديم الذي يتخطر عليه الخالدون فيك .

اننا لا نفهمك ايتها السماء ، ولكن مجاعتنا اليك برهان على اننا لا نحتاج الى من يفسرك لنا .

ألست المرتفع الاثيري الذي هبط منه هذا الكلام الذي سمعت؟

مباركة انت ايتها السماء ، ومباركة الارض ايضاً . لان الارض اكثر احتياجاً الى البركة التي تتدفق منك !.

انني احسك في نفسي ايتها السماء . فهل ترين هذه النفس حرية

بان تكون مصباحاً يتألق في رحابك الذي لم تدنُ منه حدود ، ولم ينعكس عليه ظل مقياس ؟ .

انك لسامعة ايتها السماء . لانك السكينة التي يتجوهر فيها الضجيج ، والصمت الذي يتبلور فيه الانشاد . بل انك المنفعة التي تنشر طيبها على الذين يصغون الى الحق المباح في عظات مليكك الفقير !...

انتهت الذبيحة ، وطوبيا ما برح يناجي السماء بكلمات شعرية تذوب رقة وايماناً . ولما خرج من الكنيسة ، وجد الرهبان يرمقونه بنظرات مستفهمة كأنهم يسألونه : الى اين تريد ان تتجه ؟؟

ان المتدرجين لا يحق لهم ان يظلوا في الدير لئلا يستولي عليهم الكسل وتجتاحهم جيوش الفكر الدنسة ، فيخسروا دعوتهم العليا ويطردوا مرضاة الروح .

وأقبل قيم الدير يوزع الاخوة كلًا الى حقل . وطوبيا ينتظر اشارة من هذا القيّم الآمر ليعلم ما اذا كان باستطاعته ان يحتمل العمل الذي يسند اليه . على ان القيم تجاهل وجود طوبيا ولم يحول اليه حتى نظرة عابرة . فعز عليه ان يحسبه القيم عضواً أشل لا عمل له في حياته الجديدة !.

بل عز عليه ان يظل وحده في البهو وقد تفرق الرهبان والاخوة حتى الرئيس نفسه !.

وتنهد طوبيا كاسف النفس . وتكلم همساً : كثيراً ما يحن المرء الى ما يظن نفسه يكرهه ..

ولو سئل طوبيا منذ هنيهة اي عمل تقوم به اسوة باخوانك لاجاب : لا استطيع العمل الشاق لان جسدي لم يتعود !. امـا وانه لم يسمع سؤالاً من احـد . فقد رأى نفسه غريباً . والغربة وحدها تحز الآلام في النفس . وتفجر الدموع في العيون !.

رفائيل الراهب

الايام تعبر مسافات الزمن ، والزمن يلقن طوبيا في عبـــور الايام كيف يسلس انقياداً للرئيس . و كيف يمتزج باخوانه وآبائه امتزاجاً جعله محبوباً من الجميع ..

وما احبه هؤلاء الاباء والاخـوة ، حتى تكشفت لهم مواهبه الفنية ، وصفاته التقوية ، وظهر بينهم ذلك العالم المختمر ديناً ودنيا.

ولكنه ليس طوبيا هذا الذي اجتمعت فيـه محبة الرهبان بل الاب رفائيل . فطوبيا صار راهباً . بـل مثلاً في الدير حتى تمناه الجميع رئيساً بدلا من الرئيس .

ومضى في تجارته الروحية ، راهباً بكل مـا تحتوي عليه هذه اللفظة من خشوع ، وزهد ، وفقر ، وطاعة . امـا العفة فهذه صفة لازمته مذ عرف جسده مجاعة الجسد ، وفهمت نفسه تهاويل الجمال. ولو لم تتراءَ له من وقت الى آخر ، نجلاء باغرائها وسحر انوثتها . ومرام بخفتها وقوة نظراتها ، لكان قديساً لا أثر للتراب في جسده. ومع ذلك فقد كان ظافراً لدى كل ما ينتابه من التجارب والافكار. على ان ظفره هذا كان يذيب قواه ويجهد نفسه اجهاداً متواصلا حتى بدا هزيلا غائر العينين ...

●

اذا قيل ان « قزحيا » دير العجائب والمعجزات ، فالقائلون

علـى حق فيما يروون ويتناقلون . وهذا الاب رفائيل ، يتصفح السجل مؤمناً مصدقاً ، مذعناً للارادة العليـا التي تدير الغرائب وتكيف الاسرار . ولكنه مـا برح يستهجن الطريقة القاسية التي يعامل بها المجانين في كنف الحلم والوداعة . وبعد جدال متواصل بينه وبين الرئيس ، نزل الرئيس على ارادة الاب رفائيل وفوض اليه ان يتعهد المجانين بما يراه موافقاً . وحظر علـى الرهبان جميعاً ان يبدوا اية اشارة ضد ارادة الاب رفائيل القديس ..

ومضى في طريقته الحكيمة السائرة على نور العلم والايمان فبدت النتائج حسنة باهرة . واصبحت تعزى العجائب اليـه لا الى صاحب المقام ..

وتناقل الناس اسم الراهب الجديد . وللناس متجهات رحبة عندما يريدون نشر الاخبار .. واحس الاب رفائيل ثقل التبعة الملقاة على تقواه ، فهل كان تقياً حقاً ؟ أيكون في نظر نفسه شأنه في نظر الناس المبشرين بقداسته ؟

واختلى الراهب يحاسب نفسه كانه كاهن اعترافها . اختلى يعنف هذه النفس ، ويبكتها عما مضى وعما سيأتي . اختلى يعرض ماضيه خطوة خطوة . مسترجعاً طوبيا الفنان بما يعتلج فيـه من ذكريات ..

وغاص في تأملاته . وكشف الغطاء عن نفسه . واشعل حبات قلبه انسحاقاً ، فتألقت اعماقه بنور الندامة الحقيقية واذا به يرى الجراح الـفاغرة في نفسه . أليست الخطيئة سوطاً يلسع النفس فيدميها ويفجر منهـا دم الرجس ؟. أليست الخطيئة كالخمرة كلما

ذاقها المدمن طلب المزيد ؟ أليست الخطيئة كالجذوة الملتفة برمادها تشتعل وتشعل كلما هبت عليها نسمة عابرة او نفخة شفاه مقرورة ؟ أليست الخطيئة جرثومة تتوارثها الاجيال، لتعلنها تاريخاً او سفراً. او دستوراً ؟؟ اذن ما هذه القداسة التي يتوهم الناس انها تنير جسد طوبيا ونفسه، فيتصل بالله وتحدث العجائب على يديه ؟ أقديس من يرى التجارب اشخاصاً احبهم وذكريات تمناها لو تعود ؟ أقديس من يستعين بالعمل تارة والجدال طوراً لينجو من افكاره المضطربة؟ أقديس من يرى العالم طاقة من الزهر في يد امرأة جميلة ؟

لا ! لا ! انه ليس قديساً . انه خاطيء وويل للخاطيء !.

وانتفض من تأملاته المزعجة. ورسم على وجهه اشارة الصليب. وخرج من حجرته تائهاً خارج الدير . .

كان الوقت ليلاً ، وبدر نوار يتخطر بين السحب الربيعية الشفافة ، فتمر على صفحته الناصعة كالبرقع الهفاف. وتنجلي كالغبار عن المرآة ، وبين مرورها وجلائها تبدو حركة لطيفة على اعشاب البر وازهاره ، فتضحك وتكتئب . وتشرق وتغرب ، وعينا الراهب متأرجحتان بين الافق والارض ، يرقب حركة الليل الصامتة ، وفي نفسه ضجة ، وفي قلبه استغاثة !.

انه ليحس رهبة مخيفة في ذلك الليل المقمر ! انه يحس ضعفاً في وقع خطاه . واشباحاً في اظلال الاشجار والصخور ، بل يحس ان قدميه تطىء اجساداً بشرية حية، ويشعر ان مادة لزجة تلتصق بخفيه . أتكون دماً ؟.

وانحنى يحدق في التراب . ويلامس باصابعه المرتجفة اعناق

الازهار ، والذعر بارز في عينيه . فماذا دهاه ؟.

وتخاذلت قدماه . وحبا كالطفل يطلب ملاذاً يلقي بنفسه في كنفه . فلم يجد سوى شجرة كثيفة الظل فانطرح على جذعها لاهثاً واغصانها المتشابكة تحميه من وجه البدر الساخر بابناء الارض ..

وحاول ان ينام ليحلم . وتمنى ان يطوي الليل قبل مروره ليطل الصباح ويستأنس بالاغاريد والالوان ، ولكنه لم يستطع .

أينام من تأججت نار الشهوة في جسده ؟.

أينام من استيقظت فيه الحواس وتفتحت فيه مسام الجسد !؟

اينام من يسمع في الهينمة صخب العاصفة ؟. أينام من يسمع في دبيب النمل ، وقع سنابك الخيل ؟.

واصغى الراهب المضطرب . ان اصواتاً تتلجلج في الجبل ، وتتجاوب في الوادي فيحملها سكون الليل صدىً مبهماً . ما هذه الاصوات ؟ ما هذه الضجة ؟ انها تنجلي شيئاً فشيئاً . لقد اقتربت . انها اصوات جلاجل ووقع سنابك على الحصى . أمن قافلة تهبط الدير في مثل هذا الوقت ؟ وشعر الراهب بشيء من هدوء الاعصاب وارتاح للخاطرة التي مرت سؤالاً في سكونه . ليت للدير زائرين ، بل ليت له مجنوناً يأتيه في مثل هذه الطفرة الجامحة فيستعيد اتزانه وروح التقى والايمان .واقتربت الجلجلة . انها لقافلة ذات شأن . وان الوادي يعلن ضجتها صريحة .

تشدد الراهب وتشجع . وانتصب واقفاً كأن روحاً جديدة دبت في قواه. وخرج من الظل . وخطا نحو اشعة القمر المنسكبة كاطمئنان المؤمن. فوجد نفسه شديداً لا اثر للضعف في مفاصله..

هـذا كبير القوم يقبل . انه يعتلي جواداً اشهب فاستقبله الراهب برحابة بالغة وطلاقة لسان لطيفة : اهلاً بالامير !.

ترجل الفارس ، وصافح الراهب محاولاً تقبيل يده . فسحب الراهب يده بحركة احترام . وقبل كتف الفارس بدالة ابوية .

وتكلم الفارس بنبرة لا تخلو من العظمة والروعة : قد نكون مزعجين يا ابتِ . فنعكر عليكم هدوء ليلكم. ولكننا لا نستطيع ان ننام على الطريق ومعنا سيدة محترمة جنت منذ عشر سنوات. ثم شفيت ثم جنت . ولم نجد لها دواءً حاسماً إلا في هـذا الدير وذلك بقوة الايمان الصحيح !.

فقال الراهب : الدير دير المؤمنين يا سيدي وما نحن الا طوع اشارة كل زائر كريم مثلكم فاهلاً وسهلاً .

واقتربت القافلة . خمسة جياد وثلاثـة بغال . وتأبط الراهب ذراع الفـارس وقاده برفق في ذلك الطريق العسير . وسأله من اين انتم آتون ؟

– من بيروت يا ابتِ . وقد خرجنا منذ اربعة ايام . نسير ليلاً ونرتاح نهاراً ومجنونتنا المسكينة تارة تهذي وتضج ، وطوراً تسلس وتستـلم .

– واين هذه المسكينة ؟

– هذه هي يا ابتِ . قال هذا واخذ بعنان جوادها فاوقفه ، وقال : قفي يا نجلاء ! انك الآن في الوادي حيث تقابلين القديس انطونيوس عليه السلام ..

فاجفل الراهب وخاطب نفسه : نجلاء ؟ منـذ عشر سنوات ؟

اتكون إياها ؟.

ولكن صوت المجنونة لم يترك للراهب فرصة الاسترسال في الاستفهام بينه وبين نفسه . واذا بها تصيح : انطونيوس ؟! ومن هذا انطونيوس !؟ أفنان يعري النساء ، ام اكليريكي لا يأبه بالجمال ، ولا يسمع نداء الحب ؟.

وقهقهت المرأة ! انها لقهقهة تلقي الذعر ! لقد اعـادها صدى الوادي راعبة راعدة. فاحس الراهب رعشة تمشت باردة في جسده، فتنهد تنهيدة سمعها الفارس ، فحسبها تأسفاً على عقل نجلاء . فجاء يشكره قائلاً : هون عليك يا ابت . فنحن لا نشك في انكم معشر الرهبان تتألمون اكثر من اهل المجانين فشكراً لكم انكم رسل المسيح المضحون بدنياكم في سبيل دينكم ..

ومشت القافلة . والراهب يتلفت واداً لو يرى وجه نجلاء . ولكنه لم يستطع اذ كانت ملثمة ولم يبدُ من وجهها الا عيناها ..

دخل الجميع المعبد خاشعين حتى نجـلاء . وسجدوا في ذلك الكهف الذي حوله الايمان مقدساً من مقادس الزهـد . وانيرت الشموع على المذبح الغارق في ظلمة الليـــل وخشوع الايمان . واتجهت العيون الى صورة اب الرهبان كأنها شموع ايضاً . امـا نجلاء ، فقد لبثت واقفة ويداها ملتفتان على صدرها ، وافترارة قلقة تبدو وتختفي حول ذلك الفم البرعومي الجاف. والاب رفائيل شاخص اليها كأنه حارس على خلجات صدرها وخطرات روحها . بل كأنه ظل جنونها الهادي الساحر الكثير الاستفهام .

وعلا صوت الرئيس بدعاء تقليدي ، ضارعاً الى الله ان يشفي أمته نجلاء . وان يبعد عنها الروح الشريرة القلقة . وان يرد اليها قواها العقلية والجسدية وبعد ابتهال خمس دقائق على هذا النحو هتف الجميع : آمين .

وقهقهت نجلاء . وصرخت باعلى صوتها : آمين آمين ! ما معنى هذه الآمين؟ أتصلون وانا عارية امامكم ؟ ألا تخجلون ؟ألم تروا رستم باشا ينهش جمال جسدي باهداب عينيه ؟. اخرجوا من هنا ! ان جوزيف آتٍ لينحت تمثالاً عن جسدي ، انا حواء قبل الخطيئة . فمن منكم يستطيع ان يكون آدمي ولا يشتهي التفاحة بين اصابعي ؟..

وراحت تقهقه كالزوبعة بين الاغصان المتشابكة . ثم امتدت يداها المتشنجتان الى ثوبها تمزقه . فقبض عليها الاب رفائيل بكل قواه وهزها بارتجاف قائلاً .

نجلاء أفيقي !. انك امام مذبح الرب ولست امام النحات !.

تهيبت المجنونة واستسلمت . ثم ركعت بين يدي الراهب ضامة يده الى صدرها . ناظرة اليه بعينين غارقتين بالدمع . ثم اغمضت تينك العينين فانهمرت دموعها على صدرها وعلى يد الراهب فاحس حرارة دموعها براءة وتوسلاً. انها حرارة دموع لا مطامع فيها، حرارة قلب خلي من الاميال. بل حرارة نفس اضاعت المتجه الصحيح . وضاعت عن انها أضاعت .. وعادت تفتح عينيها . عادت تحدق الى الراهب بغير دموع . عادت تصوب اليه نظرات طفل وادع لاذ بمن يحميه . ولما اغمضت عينيها ثانية ، شعر الراهب

بان شفاه روحها تقبله . وهل كانت شفاه روح المرأة إلا اهداب عينيها ؟ .

وانحنى الراهب ينهض المجنونة الضائعة . انحنى متوسلاً بعينيه وارتجاف شفتيه . انحنى صارخاً بصمته. ولما وقفت ، بدا للراهب انه سلخها سلخاً من مخالب الشيطان .

واجتمع الرهبان يحيطونها باهتمامهم . فدهن احدهم جبينها بالزيت المقدس ، وسقاها ثانٍ ماء من جرن التبريك ، وحرق ثالث امامها بخوراً عن مذبح الله ، ورسم رابع اشارة الصليب على رأسها . اما الاب رفائيل ، فقد اخذ يدها وقادها برفق الى الحجرة التي اعدت لها لترتاح بقية الليل .

ومشت نجلاء مستسلمة . مشت كأنها عروسة خارجة من المعبد بعد صلاة الزفاف . بل مشت كأنها ودعت جنونها الى الابد !.

وادخلت الحجرة ! فادارت عينيها كأنها تتفحص ما فيها من أثاث . وأي أثاث في مساكن ناذري الفقر ؟. هذا فراش على الارض . وهذا ابريق في احدى النوافذ، وهذا سراج من الخزف على الرف ، وهذا صليب معلق على الجدار بمسمار تأكله الصدأ وتعاقبت عليه ملامس الايدي منذ اكثر من مئتي عام ..

انها غرفة نسك وتقشف . بل خلوة ابتهال تنفتح فيها نوافذ النفس القانعة ، فتشرف على الوحدة الكائنة في النفس !.

وشاء الراهب ان ينهي هذه الحيرة البارزة من عيني نجلاء فقال : نامي يا ابنتي وغداً ترين ان أب الرهبان يزورك ..

فقالت : يزورني ؟. ولماذا ؟ ومتى عرفني ؟ واي دالة له عليّ ؟

قل له اني اكره الرجـال . ولا سيما الذين يدعون الفن ليشهروا بجمال الطبيعة الخفي ..

اخرجوا جميعاً من هنا . اني تعبة واود ان ارتاح .

قالت هذا وراحت تفحص مزلاج البـاب الداخلي وتطلب المفتاح قائلة : اعطوني مفتاح غرفتي اريد ان اقفل البـاب ، واذا ما جاء جوزيف يسأل عني قولوا له انها لا تقابل رجلاً . أسمعت ؟ اعطني المفتاح .

فقال الراهب: لا حاجة الى المفتاح يا ابنتي ان المرأة الفاضلة تحتفظ بفضيلتها ولو نامت على مفترق الطرق ..

فقهقهت المجنونة ساخرة وقالت : المرأة ؟ الفضيلة ؟ الاحتفاظ! انك مجنون يا راهبي اللطيف . ولو كنت فنـاناً لسمعت صوتك سخرية تقواك . اذهبوا وناموا ! ودعوني أنم . وفي الغـد اراكم على وضح النهار . واريكم ان في عيونـكم جوعـاً لا يتلاشى بغير المرأة !..

قالت هذا وصاحت بهم: اخرجوا. اخرجوا! ودفعتهم دفعاً . وأغلقت الباب واطفأت السراج .. عـلى ان الراهب لم ينم . بل ظل ساهراً على باب حجرتها لئلا تهرب او تمزق جسدهـا . فهل نامت نجلاء ؟ وجلس الراهب يفكر وذهب الباقون ليناموا .

الشفاء

ما ارهب الطريق التي تؤدي الى مكمن الذكريات . وما اسرع الفكر يعرض هذه المشاهد ، في ومضة واصغاءة . فليس عجيباً ان تمر حوادث عقد كاف في خاطرة خاطفة . وليس غريباً ان يسلس المرء ليكون طريقاً لمرور هذه المواكب . وهذا الاب رفائيل ، يسند هيكله المديد الى احدى الزوايا ، ويغمض باصرتيه ليرى ماضيه في بصيرته . انه ماض لا يمكن ان يستقر والتبتل في مستوى واحد . انه جهاد نفس تريد ان ترغب عن العالم بمشاهد العالم . جهاد قلب احب وجهل انه احب ، بل جهاد روح ما برحت مبعثرة الدوائر ، ضائعة الاتجاه ، تائهة في مهمه الجسد !

ورسم الراهب اشارة الصليب على وجهه . وسأل يسوع اسعافاً ، سأله مناعة ، بل سأله نسياناً ليستطيع ان يحتفظ بنفسه نقية متألقة بنور السماء ..

واجفل الراهب خائفاً مذعوراً . ان صوت تحطيم خرج من غرفة نجلاء ، وامتد صداه في فجوات الوادي فعاد مخيفاً يقف له الشعر . فماذا جرى ؟ واندفع نحو الباب بهوى لا يعرف اعتدال ، ودفع الباب بقوة هوجاء فانفتح كأن عاصفة اقتلعت مصراعه . وهوى جسد المجنونة مصطدماً بالباب . فصاح الراهب : الويل لي لقد قتلتها !.

وانطرح على الجسد يرفعه ، انطرح يتثبت من حياة ضحيته . ولكنه لم يستطع ان يتبين شيئاً فالظلام حالك في الحجرة. والخوف مستول على حوله وقوته .. وراح يمر بيده على الجسد الطريح واذا بسائل ساخن يلتصق باصبعه . فهلع قلبه وبعث بخفقاته سريعة كخفقات النزع. ونهض يبحث عن ثقاب، ولما وجد، انار السراج وعاد الى المجنونة فوجدها فاقدة الوعي والدم يرعف من انفها . ويلطخ وجهها وصدرها . فماذا عساه يفعل ؟ أيستغيث ؟ أيدعو الرهبان ليشهدوا هول الجريمة . أينادي الفارس ورجله ليقول لهم لقد قتلت المرأة التي سلمتموها اليّ ؟ ووقف يحدق الى اصابعه المدماة . ان في هذه القطرات اجزاءً من قلبه . وكاد يبكي على ضعفه. لم يطل اضطرابه. بل عاد الى صواب الرجل العاقل الحكيم. وادار طرفه يبحث عن ابريق الماء . ولما رآه محطماً . خرج هرولة وانحدر الى الاقباء حيث مائدة الاكل. وجاء بالماء والخمر . وبعض المناديل البيضاء . وركع يغسل الدماء عن وجه مجنونته ، ويحاول ايقاف الرعاف . ولما وقف تدفق الدم اجلس المرأة بهدوء واحتضنها بعطف وراح يجرعها الخمر بحفنة يده ويفرك صدغيها ويصفع خديها . وبعد محاولة طويلة تنفست نجلاء وفتحت عينيها بذهول وغمغمت : اين انا ؟ فاجابها والفرح يعقد لسانه . انت هنا يا سيدتي في كنف العجائب !

فرفعت رأسها عن ذي قبل وقالت : العجائب ؟

– نعم . نعم انت في دير قزحيا حيث تنعمين بالشفاء !

– الشفاء ؟!

– الشفاء والبركة والعافية والعمر الطويل .
– ومن انت ؟ واي شأن لك في وحدتي ؟ و كيف جئت بي الى هنا ؟ وما هذه الدماء التي تصبغ ثوبي ويديك ..
– لقد وجدتك على قارعة الطرق . مرماة الى الحضيض . فحملتك . وغسلت جراحك وانعشتك بالخمر . ودعوت الله لتحيي .
– انت ؟!
– نعم انا . أفي الامر غرابة ؟
– الست راهباً ؟
– لي الشرف ان اقول نعم .
– أيحق للراهب ان يحمل امرأة في ظلام الليل ليدخلها غرفته، ويحتضنها في وحدته ؟.
– الواجب يبرر ، والانسانية تعفو .
– أتعرفني ؟
– اعرفك لاني اعرف الانسانية جمعاء . الستِ جزءاً من الانسانية ؟
– انك تتكلم كرجل شريف !.
– أليس الشرف ملك الجميع .
– وهل يحافظ الجميع على الشرف ؟
– هبي اني من الذين يحافظون !
– اني اعرف صوتاً كصوتك !.
– الاصوات البريئة كلها شبيهة في اذان الابرياء .
– واراني اعرف عينيك !.

- أليست العيون كلها عيناً واحدة اذا تجردت من الشهوات ؟.
- أمجرد انت ؟
- فوق ما يستطيع الانسان ..
- من انت وما تدعى .
- انا راهب من رهبان هذا الدير . وادعى رفائيل .
- رفائيل ؟؟ !
- أتعرفين احداً بهذا الاسم ؟
- لا ولكني اكره الاسم لانه اسم فنان تاريخي عظيم وانا اكره الفنانين .
- ولِمَ تكرهين الفنانين وهم وحدهم يحتفظون بتاريخ العالم الحقيقي .
- لانهم يعلنون شهرتهم بذوب العفاف . ويكتبون اسماءهم بدم القلوب ..
- والرهبان ؟ أتكرهين الرهبان عباد الله !.
- أليست العبادة فناً تطلبه مواهب النفس ؟
- لا يا سيدتي . العبادة عطش في الروح لا يروى بغير عطش الجسد .
- ما الروح وما الجسد ؟؟
- الجسد سراج . والروح شعلته المتألقة .
- أينار السراج بدون زيت .
- ان الله هو الذي يسكب في اجسادنا الزيت ليتمجد بالانوار!
- وما الزيت الذي يسكبه الله في اجسادنا .

– عندما يدرك الانسان اسرار الله يصبح إلهاً مثله .
– ألا تعتقد ان في هيولاك عناصر من الالوهة ؟.
– ان في جسدي ضعفاً وحقارة ، في جسدي وهماً وغموضاً . بل في جسدي ذكريات ليتني انساها !
– عندما يحاول الانسان نسيان ماضيه . يكون سائراً في مواكب ذكرياته التي احبها . أكانت ذكرياتك عزيزة لديك .
– لا ادري ما اقول ! أتشعرين بنشاط يا سيدتي ؟ انهضي ! فلست خائفاً بعد اليوم على اضطراب الشعور فيك .
– أكان شعوري مضطرباً ؟ أكنت في حالة جنون !.
– لقد كنت كذلك !
– اشكرك يا ابتِ . لقد سجلت لك في نفسي منة لن انساها واصبح في نفسي منتان : لك منة . ولصديق قديم مثلها ..
أتريد ان احدثك شيئاً عن صديقي القديم ؟. لا تخشَ ليس في الحديث ما يثير الجسد ضد النفس . ان هنالك اخلاصاً وعفافاً ..
فتنهد الراهب طويلاً وسحب يده بهدوء عن رأس نجلاء ووقف مطلاً على الوادي يجفف العرق البارد عن وجهه ، ثم قال: تكلمي.
قالت : كان صديقي شاباً بالغ الجمال. وكان اسمه طوبيا الحلبي وكان ناضجاً حتى الذوبان . تقياً حتى الانخطاف . عفيفاً كالزهرة النابتة على الشفير . بل كان خجولاً كالطفل الدارج الذي لم يذق حنان الام !..
فتململ الراهب ، وقال : واي شأن لي يا سيدتي باسرارك الخاصة ؟.

- اسراري ؟ ألستم معشر الرهبان والكهنة معدين لاقتبال الاسرار ؟ فما ضرك لو سمعت حكايتي كاعتراف !

وقبل ان يجيب الراهب سلباً او ايجاباً . قرع جرس الدير داعياً الرهبان الى صلاة الفجر . فاجفل الاب رفائيل وسمع في صوت الجرس المتأرجح في قبته تبكيتاً وتعنيفاً .

وكأن نجلاء استعذبت هذه الموسيقى تمتد في ذلك الهدوء . فتمزق سكون الطبيعة الهاجعة . وتصطدم بالفجوات والمهاوي فيعيدها الوادي اوسع انتشاراً .

فاصغت الى صوت النحاس المحرك في النفس هواجع الايمان وتقدمت تقف قرب الراهب ، الباعث نظره في بقايا الليل المنتشرة في غموض الابعاد ، وسألته : أنحن وحدنا هنا ؟.

- لا يا ابنتي اننا كثيرون . وسترين الرهبان بعد هنيهة ، عندما تذهبين الى الكنيسة . ألا تحبين الصلاة ؟.

فغمغمت : الصلاة !؟ نعم كنت اصلي . ولكن متى ؟ واين لا ادري . ومع ذلك ، فالصلاة وشاح جميل يوشح ذاتنا الخفية لتبدو جميلة امام الله .

وسر الراهب بالتشبيه . وهمس في نفسه : ساعظ يوماً عن الصلاة لاقول ما قالت نجلاء !.

●

كان الفجر يفتر شيئاً فشيئاً . ونور السراج يتضاءل مع الافترارة الخفية الثغر . وكان صياح الديوك يملأ الفراغ الذي تركه الجرس بعد سكوته . وسرت نسمة منعشة تقتحم النافذة المطلة

على الوادي ، وتتغلغل في شعر نجلاء المشعث ، ولحية الراهب الكثيفة . فتهتز الشعور والشواعر .

ونظر الراهب الى المجنونة نظرة جريئة دون ان يرف له جفن. نظرة فاحصة مستفهمة لا اثر للذكريات فيها .

فاذا بنجلاء الماضي تعود . ولولا الهزال المستغيث في اساريرها لظن نفسه في المحترف .

وسأل الراهب نفسه : أتكون شفيت ؟ اني أرى نظراتها مستسلمة لعقلها . وارى عقلها مستقراً في قبضة ارادتها . وارى ارادتها تمشي مع شعورها الجديد البالغ من الهدوء والرزانة ما يذكرني باول نظرة . .

والتقت عيناها عينيه . فغض حياء . وسألها : من تكونين ياسيدتي . ومن اي بلد انتِ ؟.

فابتسمت بوقار وقالت . ستعرف من انا عندما نصبح في الكنيسة . اما الآن فليس اجمل من ان نظل جاهلين .

ارتعش الراهب في اعماقه . أتكون عرفته ؟ على انه شاء ان ينهي الحوار فخرج من الغرفة وتبعته نجلاء . .

وقابلها خارجاً الرجال الذين اتوا معها . فسألت احدهم : من تكون ؟ واقتربوا واحداً واحداً فرحبت بهم وبدت تناديهم كلا باسمه . ولما اقترب الاخير ، اندفعت الى عنقه تغمره بذراعيها وتقبله ، قائلة : عفيف اخي ! متى جئت ؟ وكيف امي . وكيف جوزيف فاغرورقت عينا اخيها بدموع الفرح . وقال : انها بخير يا اختي . وانت كيف حالك ؟ قالت : انني احس نشوة جديدة .

ولكني اشعر بانحطاط في قواي وارتعاش في قلبي ..

– تقوي يا اختي و كوني شديدة الايمان فالقديس انطونيوس ابو العجائب ..

– ولكني بحاجة الى طبيب . ان الدماء التي فاضت من انفي اضعفتني . ولولا حضرة الاب لكنت مت ..

– لماذا يا اختي لماذا ؟

– لقد حملني هذا القديس عن قارعة الطرق مهشمة مدماة . وجاء بي الى غرفته فغسل كلومي وانعشني بالخمر وباركني ، وحدثني كثيراً عن الله .

– وكيف وصلت الى قارعة الطرق ؟.

– لا ادري يا اخي . اني ما برحت محاطة بالاسرار كأنني في حلم طويل مزعج . او كأني في يقظة جديدة مفرحة ..

ألم تسمعوا قرع الاجراس ؟ ألم تسمعوا دوي القرعات في الوادي ؟ انها انشودة الصباح تنطلق من هذا الدير فتنبه حتى السكون . هنيئاً لهؤلاء النساك ! انهم يجوهرون نفوسهم بالوحدة وينقون ضمائرهم بالتقشف . ويسعدون بالايمان .. هيوا بنا الى الكنيسة . أتكون بعيدة يا ترى ؟

قالت هذا ومشت امامهم دون ان تسمع جواباً . ولكنها اضاعت المتجه ، فقادها الاب رفائيل وادار اتجاهها قائلاً : من هنا يا ابنتي ، من هنا !..

ليس غريباً ان يحس الراهب بوخز ضميره . ان كلمة ابنتي ضجت في اذن نفسه فارجفت منه الجوارح والضلوع .. بل ارته

نفسه حقيراً ضعيفاً ! « من هنا يا ابنتي من هنا ». أتكون ابنته وفي قلبه غير شعور الاب ؟ أتكون ابنته واذا ما لامست يده يدها تراجعت الذكريات اليه واستقرت في خياله كأنها الساعة ؟ من تراه يعشق ابنته ؟ ولكن هل شعر الاب بعشق ؟!. اللهم احم جسده !..

ودخلوا الكنيسة . وصعد الراهب الى حيث الرئيس فهمس اذنه قائلاً : شفيت المرأة من جنونها .. فسر الرئيس ونظر اليها بشيء من الاعجاب . ثم اعلن الصلاة .

وليمة الموت

لقد سر الرهبان ان يحتفلوا بحدوث الاعجوبة . بل سرهم ان يكرموا ضيوفاً مؤمنين اندفعوا بقوة الايمان مسير اربعة ايام ، ليطرحوا هذه الحسناء المجنونة في دير المعجزات .

وكان الاحتفال بالغاً حدود الغبطة ، والاقرار بحدوث الاعجوبة . فذبحوا كبشاً مسمناً وفتحوا دناً من الخمر معتقاً . وصنعوا المآكل الشهية الدسمة ، وتخلف جميع القسس والاخوة عن عمل الحقل للاحتفال بهذه المنحة السماوية . . وانطلقت الاجراس تتأرجح في قبابها ، كأنها تدعو الناس لينظروا نجلاء الجميلة نفضت عنها جنونها . .

وكان الاب رفائيل سعيداً متهللاً . كان يطىء الارض باقدام اخف من ارتسام الظل . اليست الاعاجيب تعزى الى فضيلته ؟ ونسي انه فكر كثيراً واشتهى كثيراً . نسي انه كان منذ ساعات مائعاً امام الجمال . ضعيفاً لدى الشهوة . رازحاً بثقل المعصية . انه نسي كل ذلك . ففرحه بنجلاء انساه كل شيء .

ومدت الموائد في اقباء الدير الفسيحة . وزينت بالازاهير والرياحين ، كأنها وليمة عرس . واجلست نجلاء الى يمين الرئيس ، بعد ان ارتدت اجمل ما في حقيبتها من ازياء وحلى . وجلس الاب رفائيل قبالتها وجهاً لوجه . .

وادبرت الخمور . فشربت نجلاء حتى اشتعلت وجنتاها . ولما بلغت النشوة مبلغها من الجميع قدمت المآكل على اطباق نحاسية بيضاء لماعة وراح المحتفلون يأكلون ويتندرون ..

فقال الرئيس: يحق للاب رفائيل ان يفتخر ويسر . فقد حصلت الاعجوبة على يده .

فقال الاب رفائيل : ان الله وحده الذي يحول مصائبنا كما يريد . والايمان شرط اولى في استلفات نظر الله لتتم الاعجوبة . واما ان اسر فسروري بهذه السيدة ان تعود سليمة معافية . واما ان افتخر فافتخاري بالرب . أليس كذلك يا نجلاء ؟..

ارتجفت نجلاء كانها عرفت صوت طوبيا منطلقاً من فم الاب رفائيل . وقالت :

انا لا اجد الاعجوبة في ان يعيد الايمان عقلاً الى رأس امرأة . وانما الاعجوبة كل الاعجوبة ، ان ترى هذه المرأة ماضيها كله في حاضرها . اليس كذلك يا ابتِ !.

فرفع الرهبان رؤوسهم عن اطباقهم مستفهمين ، وظل الاب رفائيل مطرقاً اذ خشي ان تكون عرفته نجلاء وعندئذ يزاح الستار عن الفصل الاخير من رواية طوبيا الحلبي .

وظلت نجلاء سائرة في حديثها: الاعاجيب بالنسبة الى حدوثها المغلق ، خطرات روحية تسيطر على سير الروح ، فتعيد هـذا السير الى انطلاقه ، وعندئذ يتم ما يعرف بالاتجاه النفسي الكامن في عقولنا الباطنية . ولو كانت معرفتنا اصفى ضياءً ، او جهلنا اكثر ظلاماً ، لما اعرنا هذه الانقلابات اية اهمية مع كل عظمتها .

لان الاعجاب صراع الجهل والمعرفة .

فاجاب الاب رفائيل دون ان يرفع رأسه : قد يكون تحديدك يا سيدتي يشمل التغيرات الجسدية اما وان ما حصل لك من طريق الروح ، فلا شك في ان يد الله لامست عقلك وروحك واعادتك سليمة لانك كنت مجنونة !.. ومع ذلك أتشكين في تأثير القوى الخفية التي نعبر عنها بالله ؟ أتشكين في ان الله عندما يشاء يحول طريقنا المرسوم ؟

فاجابت : لا يا ابتِ ما شككت يوماً في كل هذا . وهذا صوتك يعيد اليّ صوتاً سمعته ولم ادرِ اين ومتى . فهلا رفعت عينك لأومن اكثر بيد الله .

لقد جُننت مرة يا أبت ثم شفيت ، ولما بحثت عن الرجل الذي كان سبباً من اسباب جنوني . قيل لي انه قتل في الجنوب لانه اعتدى على عفاف مرام ابنة الزعيم .

لم اصدق ان طوبيا الحلبي ينهار الى هاوية الشهوة ، وروحه الجبارة تحلق بالف جناح .

ارتعش الاب رفائيل ، فامتدت هزات الارتعاش الى كل جارحة في جسده . ثم توهج وجهه بالخجل القرمزي الحار ، وفكر : أتكون عرفت نجلاء المجنونة ، طوبيا الحلبي في الراهب رفائيل ؟ اذن على رفائيل ان يكون جبار الجسد كما تراه نجلاء جبار الروح . عليه ان ينفض غبار الشبهات عن ثوبه الماضي وزبه الحاضر . عليه ان يكون طوبيا المنيع لا الاب رفائيل الضعيف .

فكر في كل هذه ، ثم استجمع قواه العقلية المبعثرة في مجاهل

تفكيره ، ورفع صوته قائلاً : لقد مات طوبيا الحلبي يا سيدتي ، وروحه النقية تنير امامه طريق الحياة الصحيحة . وما مات طوبيا الا لانه بريء وعفيف وشريف . ولكنه مات جسداً لا روحاً. مات اسماً لا كياناً . مات فناناً لا راهباً . مات طالباً في محترف نحات ، لا رسولاً من رسل المسيح في صومعة .

فأنا ، انا طوبيا الحلبي الميت ، وانا الراهب رفائيل الحي ! انا البريء في الجنوب ، الخاطيء في الشمال . ولكنني في الحالتين ما زلت بريئاً ، وعفيفاً ، وشريفاً ..

ثم نهض الراهب عن المائدة تائهاً في ارجاء القبو !

ونهضت نجلاء وراءه تصيح : أنت طوبيا؟ انت رفيق وحدتي وتهاويل احلامي ؟ انت حرز اسراري ؟. اذن لم اكن واهمة عندما رأيت عينيك تطردان شياطين الجنوب من رأسي . لم اكن واهمة عندما شعرت بملامسة يدك تعيد القوة الى جسدي .

لقد احببت طوبيا حتى صار الحب اقوى من ثبات العقل ، فجُنِنتُ . اما الآن فاني احترم الراهب رفائيل حتى ارى الاحترام عبادة المرآة التي تؤمن بقوة اعاجيب الحب ، فاهتدي .

فقف يا طوبيا ! يا ابتِ الراهبَ . قف ايها الهارب من الذكريات !

إنك اقوى من الماضي لانك سيد مستقبل نفسك . وانك ارفع من الحاضر لانك تذلل طريق غدك بما صدمك في امسك ، وهكذا ستظل ظافراً ..

قف يا ابت ولا تتوارَ . اني ملتمسة بركة من يديك وصلاة

خافقة من شفتيك فلا تبخل عليّ بمواهب روحك وقد منعت عني جمال جسدك. لقد طردت الجنون من نجلاء الماضي فهلا طردت الجهل الذي كان يقودها الى المعصية ؟

لقد توارى الماضي يا رفائيل ولم يبقَ منه سوى الذكريات ، وما كانت الذكريات سوى معالم لطريق الآتي . فقف لئلا اعتقد أن جنوني انتقل اليك .

ووقف الراهب ! وقف بثبات وعزم وجبروت . فكأنه صخر انهار من القمة ، وتدحرج الى الوادي ، فاستقر سليماً . واقتربت منه نجلاء وانطرحت بين قدميه خائرة العزم ، مرتجفة الجوارح والاعصاب ، ثم رفعت صوتها بانسحاق : باركني ايها القديس ! وارفع يدك فوق رأسي وصلِ . ان همسات شفتيك الطف من اهتزاز خوافي الجناح . وان اغماضة عينيك تفتح كوى السماء ليهبط الروح القدس من الاعالي ..

وكم كانت دهشة الرهبان بالغة عندما سمعوا هذه الابتهالات الشعرية . فوقفوا جميعاً والشده يشد بعيونهم الى نجلاء. وقفوا ليصغوا باهتمام . فخاطبتهم قائلة : اشهدوا ايها الرهبان وقيدوا في سجلكم ! إني منذ الساعة اصبحت امرأة شفافة الجسد والروح . ان نفسي صارت هيكلاً لجسدي . وان جسدي صار سخرية لنفسي . اما روحي ، فقد صارت مصباحاً ينار امام الله، ما دام في الوجود انسان يشعر بوجود الله ، ليؤمن بشعوره ..

قالت هذا ، وسقطت اغماءً ، ولما حاول الرهبان انعاشها ، ابتسمت ابتسامة مشعة وغاض ارتعاش جسدها في سكون الموت..

وصاح الاب رفائيل : ماتت ؟!

انجدوها ! جرعوها الخمر ! ادلكوا اطرافها وصدغيها ! ليتها ظلت مجنونة ولم تمت .

عبثاً حاول اخوها ورجاله ، دلكاً وتحريكاً . فنجلاء صارت في عداد من لم يولدوا ، ومن امسوا في سجل الفانين ، ومن اندمجوا في النظام الاسمى الذي جعل الموت يقظة لهجوع الحياة ..

ماتت ! ولكن بعد ان استعادت عقلها ، فكان موتها كارثة احسها اخوها ورجاله . ولما حملت الى الحجرة التي قضت ليلها فيها ، كان بكاء الرجال يزيد الحالة تفجعاً وذهولاً .

•

قرع جرس الدير ثلاثاً متقطعات ، على ثلاث دفعات متساوية ايذاناً بالجنازة والصلاة . ولما اجتمع سائر الرهبان والاخوان في الكنيسة ، رفعوا الصلاة عن نفسها الى الله ، ليقبل روحها في ملكوته السماوي ..

اما الراهب رفائيل ، فكان واجماً تائه النظرات ، لا تهتز له شفة ، ولا تحترك فيه نبضة تنفس .

لقد شدهه الحادث المفاجيء ، وفجر في نفسه المأ صامتاً ، فكان بكاؤه دون نشيج ، وكانت صلاته دون كلمات .

وارتفعت ابتهالات الرهبان في الكهف العجيب المعد معبداً لله باسم انطونيوس الكبير ، وخرجت كلمة آمين من عشرات الافواه ، كموجة ضربت اعلى صخور الشاطيء بقوة الدفع ، ثم عادت تتمزق قطرات بعامل الجذب ، حتى صاح اجمل الرهبان صوتاً : « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك » .

ارتجف الراهب رفائيل كأنه دفقة من الموجة الممزقة ، واصغى الى قول داود ينطلق من حنجرة رنانة الصداح ، وراح يردد المزمور كأنه قائله الاول ، ولكن دون ان يحرك شفتيه ..

وتساءل الراهب : ما الرحمة ؟ مسكين داود ، لقد نهكته الخطيئة فلجأ الى الله ، ولو انه عرف الله قبل الخطيئة لما احتاج الى البكاء . ولكن ؟ أليس في بكاء داود منهل لعطاش الروح ؟

ان خطيئة داود كانت بمثابة حاجز دعيم بين الله والانسان ، ولما ازال داود الحاجز بمعصيته ، تفجرت نفسه في ابتهالاته واصبح الله لدى كل دعاء ، وكل نجوى ، وكل صلاة .

ان العالم مدين لخطيئتين اقترفهما عظيمان . آدم وداود . فكما ان الخطيئة كانت سبباً لازاحة ستار الجهل عن المعرفة ، هكذا فان الخطيئة الثانية كانت طريقاً للوصول الى التوبة . ومع ان التوبة الحقيقية هي المعرفة الحقيقية ، فان الرحمة كانت ضرورية للحالتين فكان الفداء ..

فارحمني يا الله ، واقبل افكاري المضطربة كمعرفة . واقبل طريقي اليك كتوبة . واقبل نجلاء بين مختاريك لتكون رحمتك جزاء التائبين ..

انتهى الرهبان من صلاتهم ، ورفائيل غائص في هذه الافكار كأنه مستقل عن اخوانه ، وكأن هذه الصلاة التي ملتها الشفاه ونبت عنها الاذان ، صارت غريبة عن معتقده ، وعن نفسه وعلمه ولاهوته ، وقدبدت له نسخة تعاد في كل ظرف، وتتلى امام كل جثة ، وكأن الانسان المجدد ابداً ، وقف عاجزاً لدى صلواته ، فلا يستطيع ان يحذف منها حرفاً ، ولا ان يزيد عليها حرفاً ، وهكذا تحجر السابقون في مـا ابتكروا وسنوا واشترعوا . وهكذا خنع اللاحقون في ما حفظوا واذاعوا وعلموا ..

قبرت نجلاء في الغابة المجاورة ، ونثر على تراب القبر الزهر ناضحاً بالدموع ، واصبح هذا القبر مزاراً لرفائيل يؤمه كل صباح ومساء ، فيركع على ترابه وحصاه ، ويرفع صلاة عميقة الى الله ، وفي نفسه من الالم مـا يجعل صلاته جديدة ، وروحه متموجة في كلمات الصلاة ..

هوار !

مرت السنون، ولا جديد في الدير ، الا اعتزال الاب رفائيل في حجرته الخاصة ، يسجل ذكرياته في كتاب خاص .

وما اكثرهذه الذكريات تشعباً في نفسه، وما اعمقها استقراراً في شعوره . انها صور تتراءى له حلماً ويقظة . واحاسيس تلازمه روحاً وهيولى . فطوبيا الماضي مـا زال اياه في الراهب رفائيل . فالتجربة تحيط به من كل جهة ، وتنمق له الدنيا بازهى الوان ، واصفى تهاويل ، ولكن المناعة كانت تتغلب على الانهيار ، فتبدد كل فكر ، وتحول دون كل انزلاق في مهاوي المعصية .

فنفس الراهب ما برحت سليمة من الجراح البليغة . انها نفس جميلة لا عيب في نصاعتها ، ولا ندبة ظاهرة في جوهر وسامتهـا .

ولكن ؟ أليس صفاء النفس ونقاء الروح ، اياهما الجاذبين اللذين يشدان بالتجربة ، فتنعكس صور الماضي في صفحة الحاضر ؟

وماصور الماضي؟ هل غير امرأة احبته ، وفتاة احبها؟ وطوبيا كان في الحين أبياً عفيفاً . فنجلاء التي طبعت على فمه قبلة اغتصاب ملتهبة ، ودفعته عنها لئلا يحتقرها ، كانت في نظره اشرف جـداً من مرام ابنة زعيم الجنوب ، تلك التي حبلت بالاثم ، واتخذت منه ملجأ يقيها الفضيحة والعار ...

كانت هذه الافكار تعاوده عندما يصلي عـلى سبحته . وكانت

تزدحم عليه عندما يأخذ كتابه ليتم فرضه كراهب ملزم بالصلاة . اما عندما يركع على قبر نجلاء ، فكانت افكاره تسمو الى الله ، حيث يرى الرحمة تغسل ارواح الخطاة في الابد العلوي ..

وهكذا طال اعتزال الراهب ، وقد لازم حجرته دون ان يشترك في عمل مع اخوانه الرهبان ، فلم يجد الرئيس بداً من مصارحته بالحال ، فقرع باب حجرته يوماً ودخل عليه ، فوجده راكعاً امام المصلوب وخطوط الدموع ترسم على وجهه الشاحب اثلاماً حمراء ، كأنها الجراح .

تهيب الرئيس وقد رأى كفي رفائيل مرتفعتين الى العلاء ، واصابعه المنفرجة تبدو كأنها اغصان شجرة عراها الشتاء باعصاره وسمومه . اما عيناه فكانتا منفتحتين كثغرتين في كوخ لفه الظلام واتقدت في داخله النار . واما جسده الهزيل فكان يرتعش بارتعاش الكلمات التي يرسلها صلاة وانسحاقاً ، كأنه غرسة ضعيفة في مهب عاصفة .

وتقدم الرئيس من الراهب يهزه مناشداً : ارحم نفسك يا أبت ، ارحمها . انها نفس تمجد الله فلا تفرط بها في سبيل العبادة ، لتظل مثالاً للعبادة .

انتفض الراهب مشدوهاً وقال : هذا انت يا رئيسي ؟ ليتك تركتني في اختطافي ، اذن لاتيتك برؤيا ساحرة .

فقال الرئيس : رؤيا ؟ وماذا تراءى لك ؟

فاجاب : رأيت ابا الرهبان انطونيوس الكبير ، يسير حافياً على رمال الصعيد ، وهواء الصحراء يتلاعب بثوبه الاسود ، كأنه

علم على مدخل حصن منيع .

فاستفهم الرئيس : وهل كلمك ابو الرهبان ؟

فاجاب : لا ، بل ابتسم لي ، فرأيت في الافاق البعيدة كرة من نور ، وسمعت في الهواء تراتيل ..

فتنهد الرئيس وقال : أتدري يا أبت انك تجهد عقلك كثيراً ، واني لاخشى ان تفقد هذا العقل بوسواسك ..

فقال : ليتني افقده يا رئيسي : لان جمال الحقيقة في وجـــوه المجانين .

فقال الرئيس: وماذا ابقيتَ للعقلاء ؟

فضحك الراهب مستخفاً وقال : ومن هم العقـلاء ؟ اليسوا السائرين وراء المجانين ليقلدوهم ؟ ليتني أجن كما جُنت نجـلاء لابلغ حكمتها .

فقال الرئيس – وقد ضمن كلامه بعض التأنيب : أتدري انك اسير افكارك ؟ أتدري ان تهجدك وانسحاق توبتك هما الخطيئة البارزة بين خطاياك ؟

أنا اعتقد يا ابتِ ، أن احب خطيئة الى التائب ، انمـــا هي خطيئة بلغت من نفسه مبلغ الانسحاق . ولذلك لم أرَ احب اليك من ذكر نجلاء . فعلى الراهب ان يكون عفيفاً حتى في فكره ، ومنيعاً حتى بينه وبين نفسه . وكأني بك تجهل انك سائر الى حيث تخشى ان تصل .

فقال الراهب : أتقرعني على الصلاة ؟

فقال الرئيس: صلِ ، ولكن تمجيداً لله فقط . فالصلاة لاجـل

محاربة الفكر ، تجسم الفكر . وتكرار الندامة على الخطايا التي مرت عليها الندامة انما هو الحفاظ على الخطايا . وإلا ما الحاجة الى الذكريات القلقة التي كانت سبباً لقبول المعصية، ولو فكراً عابراً؟

إنك تنشد القداسة يا رفائيل ، ولكن القداسة ليست صلاة ونسكاً . وليست قرع صدور وتمريغ جباه . بل القداسة نفس خلت صفحتها من انعكاسات تهاويل محظرات الله . وانت قديس يا رفائيل ، ولكنك لم تعرف كيف تقطع قيود الدنيا. ولم تعرف كيف تهتدي بعد الى مفتاح هيكل الروح لتسجد فيه دون سيطرة الجسد . فمن هي نجلاء هذه لتزور قبرها كل صباح وكل مساء؟ ومن هي مرام التي تهمس اسمها همساً وانت تهذي في رقادك ؟ انها خطيئتاك المفضلتان . ولولا هاتان المرأتان في حياتك لكنت بريئاً، وقديساً ، وآية الجبل .

كان الراهب يصغي الى الرئيس بشوق وانتباه ، كأنه وجد في كلامه فلسفة تلازم الناس في حياتهم ولا يأبهون لها . غير ان كلمة « لو » الاخيرة فتحت في نفسه جواً واسعاً للكلام فقال : ولولا هاتان المرأتان في حياتي ؟ ان كلمة «لو» يا رئيسي هي ندامة في ذاتها . ولكنها ندامة عابرة لا تستقر امام جراح النفس طويلاً.

وكلمة « لو » خرجت الساعة من فمك اشفاقاً عليّ ، وتعزية لي دون ان تلطف شفاه الجراح او تضمد ناغرها . ومع ذلك فاني وجدت فيها حقيقتي وحقيقتك ، وحقيقة كل انسان .

« فلولا » شرور الناس المضطربة القلقة ، المغشاة بكل وهم وجهل وغرور ، لما احتاج العالم الى مثل ، ولما احتاج ذوو المثل

الى ندامة . لذلك تراني في حالتي هذه احاول ان ازجر كلمة «لو» من سجل ايامي ولم استطع . وهل كانت الايام مثقلة بغير لو ؟.

« فلو » كل شي يا رئيسي . انها خطايانا وندامتنا . شذوذنا وشهواتنا . مطامعنا ومنازعنا . ولا فرق عندي ان لفظناها باسف وألم وبكاء ، او اطلقناها تخلصاً من تبعاتنا ، لنغرق في تبعات سواها .

و«لو» وحدها كانت طريق اتجاهي ، فضلالي في مهمه دنياي.

«فلو» لم يمت ابي قبل وصولي الى درجة الكهنوت ، لما ذهبت الى النحات الايطالي لاتلقن مبادىء الفن .

و«لو» لم اتعرف الى النحات لما كنت رأيت نجلاء . ولو لم اهرب من نجلاء لما احببت مراماً ابنة زعيم الجنوب ولو لم تعثر مرام لما كنت راهباً . ولو لم أصر راهباً لما كنت معبراً لاجتياز الافكار القلقة ، وعرض الصور المغرية . فكلمة «لو» اذن هي الحلقة الرابطة كل مصير بصاحبه . وكل صاحب مصير بالعالم. بل هي التي تجمع العالم وتفرقه ، لانها مفتاح لكل نظام ، وتفسير لكل حلم ، وحل لكل لغز . بل كلمة «لو» هي التي تورث الندم وتدفع الى الندامة . وهكذا تثير كل هدوء في كل نفس فتبلبل الحياة . . .

لذلك يا رئيسي انا لست قديساً لان «لو» تلازم افكاري وتعرقل خطواتي . وعندما اقضي على «لو» في مراحلي المقبلة ، أصير ذلك القديس . فهل تجيز لي يا رئيسي ان أنعزل في احد كهوف قنوبين ؟

تاهت نظرات الرئيس في سقف الحجرة ، كأنه يبحث عن جواب . اما رفائيل فقد وضع رأسه بين كفيه ، واكب منتظراً الجواب . ومرت فترة صمت كانت بمثابة زمن في إنتظار الراهب .

أحس الرئيس أنه عي لدى السؤال ، فلجأ الى القانون . فقال: ان للنسك قانوناً يا ابنِ . وقانون النسك يحظر الوحدة التامة في المغاور . وفي قنوبين اليوم ناسكان ، والقانون لا يجيز اكثر من اثنين في غار واحد. ولا يجيز انعزال واحد منفرداً الا اضطراراً.

فان أقمت مع الاثنين فتكونوا ثلاثة وهذا غير جائز . وان اقمت وحدك في غار مستقلاً عن الاثنين فغير جائز ايضاً ، لذلك يجب ان تستقر في هذا الدير ، والغد يفتح طريق ذاته ..

فقال الراهب : استقر ! وما معنى الاستقرار اذا خنقت اماني المرء في نفسه . وماذا اصنع لاستقر ؟

فاجاب الرئيس : إن احد الناسكين أمسى في آخر ايامه ، فان مات ، تحل ثانياً مع الباقي .

فانتفض الراهب بارتجاف وقال : اذن فنحن بحاجة الى الموت مثلما نحن بحاجة الى الحياة .

الرئيس : هذا علم الله في سنّة الوجود . اما الآن فان جسدك بحاجة الى الاكل ان شئت ان تحيا لتنتظر .

الراهب : أ أحيا لانتظر حياً ليموت ؟ فالحياة ليست اكلاً وشرباً ، وليست وقفاً على مشيئة حي . وهذا الذي يجعلك تنتظر موت احد الناسكين بالمحافظة على حياتي .

فقد اموت الساعة، وقد اموت غداً يا رئيسي، ويعيش ناسكك

العجوز طويلاً ، لان الله لم يعطِ احداً علمه . وقد يكون علم الله بريئاً من حدوث الموت في غير حينه ، لان الناموس الازلي سُن مرة واحدة لنظام الابد .

الرئيس : شعور رؤوسنا كلها محصاة، وشعرة واحدة لا تسقط بدون ارادة الله .

الراهب : ان ارادة الله جعلت الشعرة عرضة للسقوط ، اما ان تمتد يده العجيبة وتنتزعها فهذا تحقير للعدل الاسمى . بل هذا جهل ننسبه الى المبدع ونسمه بطابعنا الضعيف .

الرئيس : احذرِ الشطط يا ابت . انك عالم وقديس ، فلا تتمادَ في اجتياز حدود اللاهوت .

الراهب : اللاهوت ليس شريعة ، بل سياج للشريعة . ومع ذلك فالقدر في لاهوتي ولاهوتك لا مكان له في ميزان العدل الاسمى ، لانه ينافي النظام الذي تحسبه شاملاً دقيقاً .

ثم ما هو الموت ؟ ولِمَ وجد ؟ أقصاصاً عن الخطيئة ام اتماماً لدورة الوجود ؟

الرئيس : قصاصاً عن الخطيئة !

الراهب : هذه رواية موسى . ورواية موسى كانت فلسفة في قصة التكوين ، ولكنها لم تطبق علمياً ولم تطابق عقلياً . وإلا فاية خطيئة اقترفها الطفل ليموت ؟ ورث الخطيئة عن آدم اليس كذلك ؟ فهب ان آدم لم يخطيء. أكان الانسان يعيش الدهر ؟

انما في عالم الجماد مثلما في عالم النبات . وفي عالم الحيوان مثلما في عالم الانسان ، فماذا عمل الصخر ليتفتت ؟ وماذا عملت الشجرة

لتنخر منها الجذوع ، وتيبس منها الجذور . وماذا عمل وحيد القرن لينقرض ؟ أليس لكل هذا نهاية ؟ فاين التفاحة في حياتها ؟

الرئيس : أتنكر خطيئة آدم ؟

الراهب : وماذا عمل آدم ، أكل تفاحة ؟ فلماذا وجدت التفاحة اذن ؟ اليس كلنا يأكل التفاح ، فاين المعصية ؟

خرج الرئيس من حجرة الراهب ، ولكن بانتفاض الغاضب. وفي الغد سرت الهمسات بين الرهبان ، ان رفائيل صار ملحداً ، بعد ان أصيب بمس في عقله . ومضت ايام كان الرهبان يتحاشون التحدث مع الملحد ، خوفاً من ان يسمم عقولهم بالحاده .

وقد شعر الراهب بهذا النفور منه وهذا الابتعاد عن مكالمته فاقام في حجرته غارقاً في التفكير الصحيح ، حتى صار هيكل عظام .

لجنة تحقيق !

لقد عرض رئيس الدير قضية الراهب للمقام البطريركي وكان ذلك في عهد البطريرك يوحنا الحاج الذي خلف البطريرك بولس مسعد بعد وفاته . فارسل المقام لجنة مؤلفة من اربعة كهنة وطبيب . وكان الكهنة جميعاً من حاملي شهادات الفقه الكنسي الجامع العلوم الروحية كلها . ولما وصلت اللجنة عقدت محكمة واستدعت الملحد ذا المس ، فاذا بالراهب يقف امام المحكمة ، وقد برزت عيناه من الهزال ، وارتسمت حولها الخطوط الزرق المحاطة بالبقع البنفسجية . اما يداه فقد تشنجت فيهما العروق كانها جردت من الجلد او كُشط من خلالها اللحم ، فوقف يترنح كالمخمور ، واللجنة تحدق اليه بشده يستدر الاسف والاشفاق ..

ولما تمالك ، تألق وجهه بابتسامة بريئة وقال : من يريدني ؟ اطباء الروح ام اطباء الجسد ؟ ان روحي تماشي جسدي ، ولكن ليس في هزاله . وان جسدي يحمل روحي ، ولكن ليس بقوتها . وهذا رفائيل ماثل امامكم جسداً وروحاً . فلا تضلوا الطريق الى نفسه ، فليس في كيانه مجاهل ومتاهات .

فقال الطبيب : كم ساعة تنام في الليل ؟

فاجاب : ان الشيء الذي لا ثمن له لا يحصى . وساعات حياتي كالهباء الذي تذريه الريح ، لذلك لم افكر يوماً في ان افرق يقظتي

عن هجوعي ، ولا ايامي عن سني ، لان الساعة من الدهر هي كل الدهر ، وليس من جديد في الاستمرار ..

فقال رئيس اللجنة : ان لكل شيء ثمناً يا ابت ، فالله لم يخلق شيئاً رخيصاً

فقال الراهب: ولم يخلق شيئاً غالياً . فالبشر هم الذين وضعوا اثماناً للاشياء . ولولا مطامع البشر ، لرأيت كل شيء هبة ومنحة .

فقال الطبيب : ان انزواءك في حجرتك مضر ومميت ، فالافضل ان تقابل الشمس ان شئت ان تحيا ..

ابتسم الراهب ، وكلم رئيس اللجنة : أرأيت كيف نضع ثمناً للاشياء ؟ ان حضرة الطبيب يشير الي بالالتجاء الى الشمس ، ليقبض ثمن اشعتها مالاً ، ومع ان الشمس هي الهبة الكبرى ، والمنحة العليا ، فان العلم يريد حصرها في قماقم العقاقير ، ومخازن الادوية .

وضحكت اللجنة ، وقد تكون وجدت جديداً في حديث الملحد الهزيل . ولما هدأت موجة الضحك ، قال رئيس اللجنة : لقد اتصل بصاحب الغبطة انك لا تقر بكل ما تعلمه الكنيسة ، ومثل هذا الشذوذ يحسب عليك بدعاً واصحاب البدع ملحدون في نظر الكنيسة .

فقال : أتريد ان تذكر لي بدعة واحدة مما صدر عني ؟

رئيس اللجنة: لقد جاهرت باعتراضك على مشيئة الله ، وقلت: ان في عالم الحيوان مثلما في عالم الانسان. وتعني بذلك ان الحيوان يموت ، ولم يخطيء ، فما هو التفسير ؟

الراهب : التفسير كما قلت يا أبتِ ، ان الحيوان يموت ولم يخطيء وهذا ما ينفي ان الموت ليس قصاصاً عن الخطيئة . ومع ذلك ، ألم تفكر يوماً فيما تحسبونه عليّ مجاهرة ؟.

رئيس اللجنة : الافتكار غير القول .

الراهب : اني افضل الف مرة القول على الفكر في مثل هذه البحوث ، ألم تسمع المثل القائل ، إن من اخفى علته قتلته ؟.

لقد تحدثت يوماً الى رئيسي لاني احترمته واعتبرته فاضلاً فاهماً عن علم واختبار ، فاية بدعة في مثل هذا الاستفهام !

رئيس اللجنة : الاعتراض على مشيئة الله كفر .

الراهب : ومن منكم عرف مشيئة الله ؟ ان ذريرة الرمل لا يمكنها ان تصير كثيباً لانها هباءة لا تستقر ، وجزء لا يكتمل إلا باتحاده بالكثيب . فهبوني ملحداً ، فا كون ذريرة رمل منفردة عن كثيبها . فهل رأيتم كثيباً ينهار ليضم اليه « رملة » منفرطة ؟

تراقصت نظرات اعضاء اللجنة استفهاماً ، وساد الصمت هنيهة ، كان الراهب في خلالها يحسب نفسه فائزاً وقد افحم الملافنة .

اما رئيس اللجنة فقد اعطى الراهب كتاباً من غبطة البطريرك الى رئيس الدير ، وقال : اقرأ . فقرأ الراهب النص التالي :

البركة الرسولية تشمل ولدنا رئيس دير قزحيا المحترم .

لا مانع من ان تسمحوا لولدنا القس رفائيل بالانعزال في قنوبين بعد ان تقرر اللجنة سلامة ايمانه ، ونحن نرى ان في الوحدة شفاءً لمرض النفوس ، وتعزية للكآبة التي تستولي على ارواح المفكرين . وقد استدللنا من عريضتك ان رفائيل كثير التفكير ،

بالغ التقوى ، وفي جوهره قداسة تبحث عن مخرج من ظلام الافكار القلقة ، والذكريات المغرية ..

هذا ، وانا نسأل الله ان يرعاه بعنايته ليكون مثالاً للناسك الصحيح ، لتشع انوار طهره في مقادس الاجيال .. والبركة تكراراً

الحقير البطريرك
يوحنا بطرس الحاج

طوى الراهب الامر ، واعاده لرئيس اللجنة وقال: قد أكون اجرب بالنسبة الى سلامة اخواني الرهبان ، والراعي الحكيم يفصل الشاة الجرباء عن القطيع .

وقد اكون سليماً في نظر سيد لبنان الروحي ، فاراد ان تكون هذه السلامة في مأمن من الاخطار ، فأمر بابعادي . وفي الحالتين لست مريضاً ، ولا ملحداً ما دام هزال جسدي يهب المناعة لروحي . فهل يأذن لي موفد الرئيس الاعلى بالانصراف ؟

فاجاب رئيس اللجنة : كما تشاء يا ابت . ووقف رئيس اللجنة احتراماً فوقف الجميع ، وخرج الراهب وخطاه المثقلة بالايمان تضع نظاماً لسير ذوي الفضيلة .

اما ماذا تكلم المجتمعون بعد خروجه ، فلم يدرِ ، لان الناس لم يتعودوا تبليغ الكلام البريء الى من يوجه اليهم ..

الوداع !

في صباح جميل ، تجمع رهبان الدير حول الاب رفائيل يتبركون بوداعه ، وفي عيونهم من دموع الصدق والاحترام ما يبرهن له عن منزلته الرفيعة بينهم .

ووقف الراهب المتأهب للرحيل الى المنسك يودع اخوانه قائلا : وداعاً يا ابائي . وداعاً يا اخواني . وداعاً يا رفقاء ايامي التي مهدت حياتي للوحدة مع الله .

دخلت عليكم غريباً ، وغريباً سأخرج . ولكنني لم احرم التعزية التي كانت بلسماً لجراح نفسي في كنف هذا الدير العجيب.

اما وأني منسلخ الساعة عنكم ، فلا بد لي من كلمة اوجهها اليكم ، ولعلها كلمة اخلاص ، واخلاصها في صراحتها .

ان الفضيلة فيكم توازي المقاصد التي ترمي اليها نفوسكم. ولكني لم اجد سياجاً لهذه الفضيلة . مع اني لا اجد فرقاً بين الفضيلة والقربان في الهيكل . كما اني لا اجد فرقاً بين طلاب المعجزات ، والجائعين الى خبز السماء .

فكل معجزة تحدث في حينها المعد لها ، انما هي فضيلة تزدهر في نفس كل منكم فيتمتع برائحتها اللاجئون الى الشفاء .

وكل مهزلة يراد تصويرها معجزة في نظر البسطاء ، انما هي

طعنة في صدر الايمان ، وقضاء على مـا بقي في نفوس طلاب المعجزات من التقوى .

كثيرون يدخلون أديرتكم خاشعين ، ثم يخرجون متذمرين . وكثيرون يدخلون مرائين ويخرجون مؤمنين. واكثر من هؤلاء واولئك ، هم الذين يدخلون ويخرجون ولا يدرون ما اعطوا ، ولا يشعرون بما اخذوا ، لان الفضيلة في دنياكم ، كرمة مباحة للجميع ، ولكنها دون سياج ، ودون قاطف يوزع عناقيدها على الجائعين .

ان النظام في اديرتكم إخواني ، ليس نظاماً في معناه الصحيح لانه البحث عن عدم النظام . وماذا يمكننا ان نقول عمن يبحث عن عدمه في اشراق وجوده ؟ الم تروا كما أرى ان مستودع الايمان خاوٍ فارغ في نفسه ؟ ألم تروا كما ارى ان الشكوك لا تملأ فراغاً في نفس ، ولا تشبع جوعاً في ايمان ؟ ألم تروا كما أرى ، ان الفراغ لا يملأ بالفراغ ، والعدم لا يتجسد بالعدم ؟.

ان لكل حدث ذكرى ، ولكل ذكرى مكاناً في الرأس الذي يحتفظ برسوم الاحداث . فهلا تذكرون اخاكم رفائيل الخاطىء الذي كنتم وما برحتم تحسبونه قديساً ؟

اما أنا فسأذكركم لان ارواح الاحبار والنساك ستنير زوايا افكاري ، فاراكم صوراً واضحة ، ولكم اشكالكم التي حفظتها وأنا معكم .

جميلة هي الذكريات. واجمل منها ، المناعة التي ترافق الاخطار في مرورها .

ان الذكريات عالم ثان وراء العالم . بل هما عالمان ملتصقان لا ينفصلان . وسيظل عالمي وعالمكم واحداً ، وليس من فارق سوى الطريق . وليس من طريق سوى محجة الايمان التي اقصد..

فوداعاً يا اخواني . وداعاً يا مشاهدي ايامي وما رافقها من اضطراب وهدوء . ومن جموح واستسلام .

وداعاً ! وليكن ابو الرهبان الاكبر شاهداً هذا الوداع ، حتى نلتقي وراء زرقة الامل، ونجتمع في الملكوت المعد للابرار..

كان صوت الراهب ينطلق من حنجرته كالهديل ، وقد تموج ببحة من البكاء ، وبنبرة من الموعظة ، وبهمسة من الصلاة ، بل تموج بالالم الذي يخرج من النفس ، كأنه الاستغاثة الملحة .

وفي هذا الموقف العاطفي المتجرد من الانانية المتصلبة . علا نشيج الرهبان ، ووقف الرئيس محدقاً الى الارض ، يعبث بلحيته المسبلة على صدره بجلال .

طريق قنوبين

خرج الاب رفائيل من الدير ، ومشى امامه أخ يحمل له ما يحتاج اليه في عزلة نسكه . وما كاد يبتعد بضع عشرة خطوة ، حتى سمع الجرس يدعو الرهبان للصلاة عن اخيهم الراحل ، كأنهم يقيمون عن نفسه « جنازاً » وهو حي .

وفكر الراهب : ترى لماذا يخشى الرهبان على الراهب منفرداً ، أفي العزلة خطر ؟ أفي الوحدة جنوح ؟ أتكون حجرات الكهوف غير حجرات الدير ؟ اليس السماء سقفاً واحداً لبيت الوجود ، متى كانت الغاية من الوجود طريقاً للابد ؟.

كانت العقبات والمنحدرات تقطع على الراهب تسلسل افكاره ، وكان عجزه عن اللحاق بالاخ السائر امامه يزيد افكاره تشعباً وتبعثراً . .

فكان لا يكاد يشرف على ناحية جديدة من تصوراته ، حتى يصطدم بسواها ، الامر الذي حول هدوءه اضطراباً . وشجاعته خوفاً ، وحكمته حيرة وجهلاً .

وسأل الاخ السائر امامه : ألا نزال بعيدين يا اخي جبرائيل؟

فوقف جبرائيل ، ومسح عرقه بكمه ، ثم تنفس لهاثه دفعة واحدة وقال : المسافة في الاقدام اكثر منها في الأقدام يا أبانا .

لم يجب رفائيل على الحذلقة في جناس الاخ ، لانه وجد فيها

حقيقة وجيهة . وكأن الاخ وجد في سكوت الراهب مدخلاً للكلام فراح يثرثر : الحياة غريبة يا ابانا . وقد يكون الانسان هو الغريب في الحياة . ومع ذلك فالغربة لا بد منها ، لانها وطن الجميع ..

فقال الراهب: اين نحن من قنوبين؟ ومتى نصل ؟ إني ضعيف، وتكاد قواي تتلاشى . فهلا اتئدت في مسيرك امامي ؟.

فقال الاخ: سنصل يا ابانا سنصل.فهل تريد ان نقف عن المسير؟ أنتَ تطلب قنوبين ، ولو كنت تريد سواه لامكنني ان اجد لك كثيراً من الكهوف والمغاور ، ولكني افضل الغار الذي يكون قرب عين ماء .

فقال الراهب : لا بأس إمش . قال هذا وراح يفكر : عين ماء ؟ هذه ناحية جديدة من الحرب . وغداً ، يبدأ الصراع بين مطالب الجسد واماني النفس . بين حب البقاء ، والانتصار على ما في العمر من مغريات الدنيا .

الماء ، الخبز ، الصلاة ، التأمل ، النوم في حينه ، واليقظة في اشراقها. الان فهمت خشية الرهبان على طلاب الزهد والاعتزال.

ان الحقائق مغطاة بكلمة. وان الكلمات محجوزة وراء سؤال. ولولا سؤالي للاخ ، لما خرجت الكلمة التي ازاحت الستار عن حقيقة النسك .

وطال السكوت ، وطال السير ، حتى اشرف السائران على منحدر سحيق ، فقال الاخ : الى تحت يا ابانا يجب ان ننحدر ، ولكن انحدارنا سيكون صعوداً لنفسك البريئة ، فهنيئاً لك ،

فهلا تذكرني يوماً في صلاتك ؟

فقال الراهب: ان الصلاة نفسها ذكرى يا اخي ، فعندما اقول ارحمني يا الله ، فكأنني اقول : اللهم ارحم سائر البشر . فالرحمة ليست قطرة مطر تصيب انساناً دون آخر . بل الرحمة كالشمس ، تشرق على الواحة والصحراء معاً. وعلى المرجة المزدهرة ، والمزبلة النتنة . ولولا الرحمة لهلك تسعة اعشار الناس في معصياتهم ..

فقال الاخ : والمطر ينهمر على الارض كلها. فاجاب الراهب: والمطر رحمة يا اخي . ولكنني عندما اقول القطرة ، فانا اقصد السحابة التي ترشح عابرة ..

امام الموت !

انتهى المنحدر ، والاخ جبرائيل ينتظر وصول الراهب اليه . ولما وصل الراهب قال الاخ : اتود زيارة الكهف الذي يقيم فيه ناسكان منذ امد طويل؟ فاحدهما شيخ هرم والثاني في مستهل الشيخوخة. ولا شك في انك تستأنس بهما لانهما وديعان وحكيمان.

فقال الراهب : خذني إليهما لعلهما يزودانني بارشاداتهما . وتابع جبرائيل المسير بعد استراحة قصيرة. ثم وقف امام غار في السفح، وقال : انهما هنا .

تهيب الراهب ، وتسارعت نبضات قلبه ، وقد اصغى الى هدير الفراغ في الوادي السحيق . ثم حدق الى الفجوة المظلمة التي رآها باباً للكهف ، ومشى نحوها قائلاً : يجب ان ندخل .

القى جبرائيل حمله خارجاً ، ورسم الصليب على صدره وقال : إتبعني !.

وما كادا يتوسطان الكهف ، حتى فاحت رائحه البخور تجتاح رائحة العفن في الاعماق المظلمة . ولما تبعا الرائحة الحاملة معها روح القداسة ، دخلا حجرة منارة بالزيت والشموع ، واذا بهما امام مشهد مروع ، فاجفل الراهب مثلما اجفل الاخ !.

وماذا هناك ؟ ناسك بلغ منه الهرم مبلغ الجفاف ، وقف امام جثة ناسك في بداية شيخوخته يتلو صلاة الجنازة . وقـــد ارتفع

دخان البخور من مجمرة متوهجة بالنار ، مثلما ارتفع صوت الهرم مرتجفاً : إرحمني يا الله كعظيم رحمتك .

ووقف الراهب والاخ يعاونانه بصلاة الجنازة حتى النهاية . ولما تمت الصلاة تكلم الهرم : تباركت السماء ! وتباركت ارادتها . لقد اوحت اليكما بالمجيء إليّ وقد رأتني عاجزاً عن اعادة التراب الى التراب . فهيا نفتح حفرة للميت . .

بعد ساعة ، كان الميت في احشاء الارض . وكان الناسك الهرم يتحدث الى الراهب قائلاً :

رأيتك أمس في الحلم ، وفي هذا الصباح مات رفيقي . ألستَ الآتي لتكون لي رفيقاً ؟

فقال الراهب : إني آتٍ لأكون رفيقاً للذي مات . أما وارادة الله هي الكلمة الفاصلة ، فإني رفيقك ان شئت ان تباركني لاكون اقوى من الدنيا .

فقال الناسك : ان الدنيا في جوابك لها يا اخي . فقل لها ثلاث مرات « لا » فتتوارى ، وعندئذ قل « نعم » ما تشاء لانك تصير اقوى من الدنيا .

الراهب : وماذا حدث لرفيقك المسكين ، وانت الذي كنت مزمعاً ان تسبقه ؟

الناسك : كان رفيقي يستخلص السم من رؤوس الافاعي ليقتل به الشيطان . وقد عثر في هذا الصباح على افعى رهيبة . ولما اقترب منها ليشدخ رأسها ، افرغت في قدمه غضاريف سمها فصرعته .

الراهب : أما كان رفيقك يقول « لا » لدنياه ؟

الناسك : كان رفيقي اقوى من الدنيا . لانه كان يقتل الشياطين بسم الافاعي .

الراهب : مسكين رفيقك ، لقد قتل ايامه وهماً ووسواساً ، حتى تحول وهمه صوراً يراها ، واشباحاً يحسها ، وارواحاً يكلمها . ولو أنه رأى في الحية ما يراه في الحمامة ، لما قضى عمره في اللحاق وراء الافاعي .

الناسك : لقد كان لرفيقي سرب من الحمام ، ولكن سربه تبدد ، وقد قضى الصيادون على معظمه .

الراهب : هنا المثل يا أبت القديس ! لقد شاء رفيقك ان يعيش وديعاً ، ناسياً ان الوداعة يجب ان تحتمي بالحكمة . ولما قضى على الحكمة بقتله الافاعي ، تبددت وداعته فمات في جهله .

الناسك : النسك لا يحتاج الى الفلسفة يا اخي . فهلا عمدت الى البساطة والتجرد في التعبير ؟

الراهب : النسك لب الفلسفة يا أبت ، لانه التصوف المشرق . واشراق الصوفية في النفس ، برهان على نمو الفلسفة في العقل .

الناسك : من تكون ؟ ومن اين انت آت ؟

الراهب : انا راهب من دير قزحيا ، أتيت الدير منذ بضع عشرة سنة هارباً من الدنيا . ومع اني قلت لدنياي اكثر من الف مرة «لا» ، الا انها كانت تصارعني ، وكادت تصرعني . على اني ظفرت اخيراً ، ورأيت ان ارفع راية ظفري في ظلام كهف مقدس لتخفق فوق نفسي ..

الناسك : أجئت لتكون ناسكاً !

الراهب : جئت لاحيا لله ..

الناسك : الحياة قاسية في دنيا الله يا اخي . فالغذاء للاماتة والتقشف. والفراش قش من هشيم الوادي . والغطاء مسح شائك من الشعر . والوسادة « قرمة » من الحطب ، محددة بقشرها ..

الراهب : والصلاة ؟ أممنوع على الناسك ان يصلي ؟ ان مناجاة الله الذ من كل غذاء ، وانعم من كل مهد ..

الناسك : ان الآم الجسد والروح في صراعهما تفوق الاحتمال. واني أرى في غضون جبينك نعمة غابرة ، وغنى مندثراً ، فهل كنت ابن وجيه ؟

الراهب : ان من يفتخر فليفتخر بالرب يا قديس الله ! فانا ابن ظروفي ، وظروفي كانت سلسلة من الآلام ، وكل حلقة منها متصلة بالعالم .

الناسك : من يصل حياته بالعالم ، عليه ان يظل في العالم .

الراهب . لهذا أتيت الى عالمك ليصير عالمي ، وقد قطعت سلسلتي ، ونثرت حلقاتها في كل مكان ، فامسيت طليقاً لاربط نفسي بالوحدة ، مع الله ..

الناسك : الله في كل مكان يا اخي .

الراهب : ولكن ليس كل مكان في الله ، يا قديسي ..

الناسك : اني لواجد في امرك غرابة يا اخي . ففي منطقك من العلم ، بقدر ما في علمك من الاختبار . وفي نفسك من الترفع بقدر ما في ترفعك من الكبرياء . ومع ذلك فالنسك يستهويك

كأنك جاهل ما النسك ، وما في سنيه من جهود واجهاد . فهلا قربتني الى نفسك ، قبل ان تدخل الشكوك الى نفسي ؟

الراهب : نفسي ؟ انها مكشوفة دون غطاء ومباحة لكل باحث . وملك لكل صديق مخلص . وفي هذه الحالات الثلاث ، ترى جسدي ليس غريباً عن روحي يا قديسي . ومن تفاهمت روحه وجسده كان شأنه شأنك وشأني ، وشأن كل من عرف العالم غريباً ..

الناسك : نحن الغرباء وليس العالم .

الراهب : ان غربة العالم تبدو جلية في تباين أجزاء العالم وتساويها . فاذا ما رأيت الانسان واحداً فكأنك ترى طرق مراميه متساوية . ولو انك رجعت الى ماضيك وما تشابك فيه من متاهات وهدايات ، لوجدت نفسك اياي ، ولمست حقيقتي في حقيقتك . ولكن ألا ترى مثلي ، ان الرجوع الى الماضي انما هو هدم بناء الحاضر ؟ ألست في منسكك القاسي ، وحياتك المتألمة ، ذلك الذي يحاول ان يرفع السدود بينه وبين ماضيه ؟ لذلك يا قديسي ، لا حاجة الى حفر القبور للتثبت من وجود الرفات ولا حاجة الى فحص الرفات للعثور على خواتم الذهب في سلاميات الاصابع . فالموت واحد والحياة واحدة ، ومرامي الانسان واحدة . وما دامت بهارج الحياة معدة لاستمداد الموت ، وما دام الموت طريقاً للوصول الى الله ، فلنمت كما يريدنا الله ان نكون ..

وسكت الراهب فجأة ، لان السعال الجاف ، إنتاب الناسك القديس ، فجحظت عيناه في وقبيهما الضامرين ، واحتقن وجهه باحمرار ازرق الحواشي ، وبدا جسده ينتفض متخبطاً كالطائر المذبوح ، واذا بالرغوة المدماة تدفق من فمه وتخضب لحيته البيضاء ، المسترسلة على صدره بدون نظام ..

وصرخ الراهب يدعو الاخ جبرائيل بذعر وخوف ، وعبثاً كرر الصراخ ، فلم يسمع جواباً : فاحتضن الناسك الغارق في خفقان نزعه ، وحمله الى سريره ، واي سرير هناك !؟

وسقط الجسد الخائر في لبدة من الحشائش اليابسة ، ووقف الراهب مذهولاً مشدوهاً مردداً : ما اصعب طريق السماء ..

وتراءى ابريق الماء للراهب ، فوثب اليـه وثوباً ، وانتزعه انتزاعاً اهوج ، وعاد يجرع الناسك قطرة فقطرة ، وبعد كل قطرة يلفظ الناسك مجة من الدماء قرمزية الرغوة .

وكان الجسد يتلاشى شيئاً فشيئاً ، حتى اذا ما مرت بضع عشرة دقيقة في هذه المحاولات ، كان الناسك جسداً لا حياة فيه ...

وتمتم الراهب : ارحمه يا الله . ان سخافة الحيـاة في عظمة الموت . وان الصراع المستمر ، انتهى الى مجة من الدماء ، فهدوء الى الابد ..

فاين توارت حركة هذا الجسد ؟ و كيف خرجت الروح منه؟ إني لم أرهـا ، فما معنى الابصار اذا كانت لا تنفذ الى جواهر الاشياء ؟ أوجدت العيون لترى الفاني والذي سيفنى ؟

فما لذتها اذن في ملك ليس لها، ما قيمة الشيء الذي لا يدوم؟

ما معنى النور ؟ واي شيء هو الظلام ؟ صدق الذي قال : كل شيء باطل ! ولكن ، ألم تتلاشَ الاحلام باليقظة ؟

فلِمَ لا نحسب الحياة حلم الموت ؟ ولِمَ لا نحسب الموت يقظة الابد الذي لن ينتهي ؟ جميلة هي الاحلام ! وجمالها في ان نعرف كيف تنام هانئين ..

قال الراهب هذا ، وخرج يبحث عن الاخ جبرائيل ليعاونه في دفن الناسك القديس . ولمـا ابتعد قليلاً عن المنسك ، رأى جبرائيل نائماً في ظل دفلى ، يتنفس تعب الطريق في شخيره . فحدق الراهب الى الاخ طويلاً ، كأنه يقرأ في اساريره اسرار الوجود ، وفكر : ما الفرق بين الرقادين ؟ هذا يحلم، وذاك يحلم ، فاي الحلمين اجمل ؟ ان احلام جبرائيل طريق لحلم الناسك . وأنا ما هو موقفي أنا ؟ لقد كنت مثل جبرائيل ، وسيصير جبرائيل مثلي يوم أصير مثل الناسك ، فاي فرق بين الانسان والانسان اذا كانت النهاية واحدة هي الموت ؟

الفرق في الطريق . في الاحلام . في الوصول الى النهاية .

وامتدت يد الراهب تهز جبرائيل : انهض يا جبرائيل ، لقد انطفأ نور الكهف ، وزالت دنيا من العالم !.

فانتفض جبرائيل ذعراً ، وتلفت مشدوهاً ، وقال : ماذا

جرى ، هل قررت مصيرك ؟ ان المياه هنا كثيرة ، فاختر اي كهف تريد .

فقال الراهب : لقد مات الناسك ، فهيا ندفنه .

فحملق الاخ في وجه الراهب وقال : احذر ان تكون قتلته قتلاً لتظل وحيداً وعندئذ تمسي مجرمـــاً ، ويصبح كهفك مغارة لصوص !

فقال الراهب : لا تكن ثرثاراً ! فالشكوك تقود الى الويل ، والويل يقود الى الهلاك . فالناسك كان « مسلولاً » وعندما انتابته رعدة السعال ، تفجرت رئتاه وقضى !

الاخ : كان مسلولاً ؟ ومن ادخل عليه وباء المجازفين ؟ ان السل مرض الذين لا يعرفون قيمة لنظام الحياة .

الراهب : ان الضعف توأم النمو . وان الرئة كالثوب ، فان استعمل الثوب كثيراً يبلى . وان اهمــل كثيراً ، يتهرأ وينحل . ومع ذلك ، فاي شأن لي ولك في بحث ما هو معد ليكون ؟ ان جسد الناسك بلغ نهايته ، وان الثرى والاثير ، تقاسمــا الهجعة واليقظة . وهذا هو نظام الوجود ..

الاخ : ما لي اراك لا تقيم وزناً للحياة والموت ؟

الراهب : وأي وزن تريد ان يقام لجسر يصل الضفة بالضفة والناس يتلاقون ذهاباً وجيئة ؟ أليست الطريق كالحياة ؟ أليس الموت كالجسر ؟ أليس الجسر كالعالم ؟ أليس العـالم منفرجاً بـين جبلين ؟ لقد انتهى العالم بالنسبة الى الناسك . وغـداً ينتهي عالمي وعالمك . فكل شيء نسبي في نظام المنظم . وفي هذه النسبة يجب

ان نستقر ، وعلى هذه النسبة يجب ان نوطن النفس ، فعدل الله غير محدود ، وكم من طفل مات شيخاً ، وكم من شيخ مات طفلاً، وكم من فكرة مخطئة لمعت في نفسي وأرتني نظام الله ناقصاً . اما الآن، فقد علمت ان النقص فيّ لا في نظام الله ، وكل رذاذ ينفصل عن مجرى الجدول يجهل انسياب الجدول ، ويجهل اتجاه المياه . . .

الاخ : ألست رذاذاً منفصلا عن جدول العالم ، وقد انفردت ناسكاً ؟ فلماذا انفصلت ؟

الراهب : لاتبخر بالشمس واصل الى البحر بدون هدير .

لاترك الوصول في المسيل وامتزج بالاوقيانوس الاكبر بدون رغوة .

الاخ : وما قيمة القطرة في الاوقيانوس ؟

الراهب : قيمتها ؟؟ انها جزء من عظيم !..

صلاة !

في المساء كان الاب رفائيل وحده في المنسك . فقد مات الناسكان ، وتركه جبرائيل ، وسقطت العتمة على الوادي تحمل في رهبتها نعاب البوم ، وعواء الثعالب .

انها الوحدة ! اشد هولاً من ازدحام المدينة ، واكثر رعباً من السجن الذي يعقبه الاعدام .

وقد تكون الليلة الاولى الطف مروراً مما سيعقبها من ليالٍ ، لان نفس الراهب ما برحت في فوران حنينها الى الوحدة .

لقد اضاء الناسك الجديد شمعته ، ورتب المهد الذي سينام عليه ، ثم تناول عشاءه ، من الخبز والزيتون والبصل ، ومن الخل الممزوج بالزيت . ولما شبع ، شكر الله وركع ليصلي ..

إنه يتلو الصلاة التي علمها الناصري لتلاميذه . فجذبته معانيها الى التفكير في الصلاة . ولما انطلق فكره بين الارض والسماء ، احس ان وراء كل كلمة الف صلاة ، ووراء كل صلاة الف مدخل للوصول الى الله .. واستمر فكره في الانطلاق حتى بلوغ الانخطاف في استخلاص المعاني السامية من هذه النجوى الالهية . ولما عاد الى نفسه ، تساءل قائلاً . ما هذا الجديد في صلاة قديمة ؟ لقد طالما ردّدت هذه الصلاة ، وطالما مللتها معتقداً أن تكرارها يُضجر الله. اما الآن ، فقد ثبت لي ان المصلين كثيرون ، ولكن

ليس كلهم يصلي . ولو ان واحداً يصلي لاجل عذوبة الصلاة ، وحاجة النفس اليها ، لما احتاج الباقون الى صلاة .

ان الصلاة الصاعدة من اعماق الروح ، هي نداء ترفعه الارض الى السماء ، فاذا هذا النداء قرعة ملحة على باب الملكوت . وها أنا ارفع هذا النداء : أبانا الذي في السماوات !

اهتز الكهف بصوت الناسك ، وخيل اليه أنه يسمع صرير باب الله ينفتح . ثم تراءى له النور يتفجر في حنايا الكهف ، وسمع صوتاً يجيب : إن أباكم في السماء وفي الارض . إنه وراء كل فكر سليم ، وامام كل نظرة بريئة . فاذا ما ذكرتم اسمي ، كان إسمي رفيقاً لكم . واذا ما عملتم مشيئتي ، كانت مشيئتي دستوراً لاعمالكم . ولكنكم لم تفعلوا الا مقلدين ، لانكم ورثتم الايمان عن آبائكم كما ورثتم الدار والعقار ، والثور والحمار .

فقال الناسك : ليتقدس اسمك ، ولتكن مشيئتك .

الصوت : باسم من تتكلم ؟

الناسك : باسم جميع الامم .

الصوت : وماذا تطلب ؟

الناسك : اعطنا الخبز كل يوم ليومنا ، لانك غد الجميع .

الصوت : الخبز غذاء الجسد ، والارض تدارك الارض ، فماذا تطلب للنفس ؟

الناسك : إغفر لنا ذنوبنا وخطايانا .

الصوت : المغفرة لا تطرح لغير سبب ، إنها جزاء كل عمل

صالح ، وصلاح الاعمال ، يجب ان يكون اسمى من الخطيئة . فكيف أغفر لكم ؟.

الناسك : كما يغفر الانسان للانسان بعد الاساءة .

الصوت : إنكم لم تغفروا اساءة ، ولم تناموا على ضيم . فمن يغفر اساءة أخيه ، عليه ان يستفيد من غفرانه ، لان الغافر لا يسيء !.

الناسك : نحن ضعفاء يا أبانا ، فلا تدخلنا في التجارب .

الصوت : انكم اقوياء، ولكن في طريق الشر فقط. والتجارب من الشيطان الذي يزرع الشر . وانتم حلفاء الشيطان ومن يحالف الشرير يتحول شريراً ..

الناسك : اذن نجنا من الشرير !

الصوت : النجاة قيد في عنق ، وليست جناحاً في منكب . فاذا ما وضعت لكم قيود النجاة في اعناقكم ، صرتم من ذوي الدب ، لا من ذوي الاجنحة . ومع ذلك ، فاني أحطت دنياكم بسبل النجاة ، فلم تسلكوا على سوى مهاوس الاخطار .

الناسك : وكيف ننجو يا أبانا ؟ اليست الصلاة سبيلاً من سبل النجاة؟ أما سمعتنا نصلي؟ اما ارتفعت اليك صلاة الشعوب والامم .

الصوت : ما كانت صلاتكم يوماً إلا تمتمات حفظتموها لترضوا آباءكم ومعلميكم .

الناسك : وكيف نصلي ؟

الصوت : لتكن صلاتكم عبير نفوسكم . بل لتكن صلاتكم نداءً ترفعه ارواحكم . وعندئذ تروني مقبلاً عليكم ، دون مكان

وزمان . ان ملكوتي كمهد الطفل . لا علو ولا عمق . لا بُعد ولا قُرب . لا امس ولا غد . لا قبل ولا بعد . وما الازمنة التي تحسبونها اجيالاً ، واحقاباً ، ودهوراً ، واباداً ، الا مقاييس للارض فقط . اما السماء ، فانها غبطة لن تزول ، ودوام لن ينتهي.

الناسك : اني اسمع صوتك ولا اراك ، فمتى اراك ؟

الصوت : انك تراني كلما شئت ان تراني . فاغمض بصرك بالشوق . وافتح بصيرتك بالايمان فتجدني في نفسك قبساً ، وفي روحك أفقاً واسعاً يفجر الاقباس . اما الآن ، فاني تارك فكرك ، لاعود اليه كلما دعوتني .

واجفل الناسك ، فسمع هديراً في الوادي كاصداء التراتيل ، فنهض خائفاً ، فاذا به منسلخ من غفوة وحلم ، فكأن الصلاة خدرت حواسه ، فكانت هذه الحواس تسمعه هذا الحوار الذي اعتقده صوت الله . .

وتساءل الناسك : أهذا هو الانخطاف يغرق فيه المنعزلون زهداً وتقشفاً ؟ لقد سمعت صوت الله في غفوة عابرة . وسأراه غداً في اغماضة طارئة . ان الله ليس بعيداً عمن يطلبه بشوق وايمان . .

ونام الناسك في ذلك الليل ، نوماً عميقاً ، فكأن هذا الفراش الممهد بالهشيم ، سرير وثير من القطن المندوف .

المنسك الجديد !

ونهض في الصباح غريباً في وحدته ، ضائعاً في مسكنه، حائراً في ما يصنع ، متسائلاً كيف يتصرف . أيقيم في هذا الكهف ام يبحث عن سواه ؟ وانطلق في اعماق الكهف يستهدي الممرات والدهاليز ، تقوده شمعة ترسم على طريقه ظل جسده ، فيستأنس بهذا الظل ، ويراه رفيقه الصامت .

ان الكهف عميق ، ولكن دون منافذ للهواء والشمس ، ودون ثغرات للنور المتساقط من النجوم ، فماذا يصنع ؟ لقد عثر في هذا الكهف على معاول ورفوش ، وعتلات ومهدات . فضلاً عما جاء به معه من الآت النحت . فهل يستطيع ان يعدل في وضع هذه الفجوة السحيقة في احشاء الجبل ؟ وراح يلقي نظرة هندسية على المكان . ولما لم يجد حيلة لخرقه ، انتقل يبحث عن سواه .

ان وادي قنوبين عامر بهذه الكهوف ، فاي داع يجبر رفائيل ليقيم في مأوى تتفشى به جراثيم السل ؟

وراح يتوغل في الوادي صعوداً وانحداراً ، ناشداً حكمة الاخ جبرائيل الذي جاء به. فعين الماء ضرورية للمنسك . فالمنسك ليس انتحاراً ، بل هو اماتة العنفوان ، لجم الحيوان ، ومطالب الجسد ضرورية بضرورة بقاء الروح في الجسد حتى ينتهي الاجل . والا لكان الموت اقرب طريق للتخلص من جهاد الدنيا .

كانت هذه الافكار تمر في رأس رفائيل ، فكانت بمثابة هاد الى حقيقة النسك وحكمة الوحدة . ألم يقل البطريرك في رسالته : الوحدة شفاء لمرض النفوس ، وتعزية للكآبة التي تستولي على ارواح المفكرين ؟

وتساءل عما اذا كان مريضاً في نفسه . وراح يسترجع ايامه مذ دخل المدرسة الاكليريكية ، حتى دعاه أبوه ، وحظر عليه الكهنوت ، فالى دخوله على النحات ، فالى كلف زوج النحات به ، فالى سفره الى الجنوب وتدريسه مراماً ابنة الزعيم . فكان يرى هذه المراحل محفوفة بالاخطار والصراع وفي مثل هذه المصارعة لا بد من مرض النفس . والا لماذا ترهب ؟ وما معنى مجيئه الى قنوبين ناشداً الوحدة ، طارحاً جسده في مجاهل شظف العيش ، ونفسه في مجاهل التأملات ؟

كانت عيناه تبحث عن المنسك الجديد ، وفكره يبحث في مرض نفسه ، واخيراً عثر على المكان المنشود ، وقد وقف امام نبع يتدفق من قلب الصخر ، ورأى عوسجة كبرى تخيّم على فجوة كبيرة في صدر الجبل . ولما ازاح العوسجة ، ظهرت له مغارة كبرى قسمت حجرات ، ولكل حجرة ثغرة ينسكب منها النور ، ويدخل منها الهواء ، وتبدو منها النجوم ، ولما ارتاحت نفسه الى سكناها ، نقل اليها امتعته ، واقام فيها ..

انهيار!

خمس سنوات طواها الناسك في منسكه ، لينشر سواها .
وخمس سنوات كافية لتشعب منه الافكار ، وتحولها جادات وتزهات . فالناسك ليس صخراً يحتمل برد الشتاء وحرارة الصيف ، بل انسان يشعر بما يشعر كل من ضجت اوردة جسده بالدم الحار ..

انه يحس الالم كما يستروح النشاط . ويشعر بالكآبة ، كما يهزه المرح . فالجسد هو الجسد ، ان سكن القفر ، او اقام في مرابع الهناء ، والناسك ذو ذكريات طالما مهد لها الطريق في نفسه للوصول اليها ، او للمجيء اليه . ولولا هذه الذكريات المنتصبة أمامه كاخيلة واطياف ، لتبلور جسده بصفاء روحه ، وتألقت عيناه بنور ايمانه ، وكان قديساً عجيباً ، لو شاء لجعل التراب تبراً ..

وابناء القرى المجاورة اطلقوا عليه اسم القديس ، واحاطوه بالخشوع ، وتحدثوا كثيراً الى زائريه عن عجائبه ، ولكنه كان يتبرم بمثل هذه المبالغات تسجل الاوهام فتصير ايماناً .

قد يكون ازال البرداء بصلاته عن بعض المؤمنين . وقد يكون ابعد عن الزرع حشرات التلف ، وعن الشجر قواضم الجذور . وقد يكون صنع اكثر من هذه واهم ، ولكن هذه الظواهر ما كانت في نظره الا مشيئة الله تكافيء المؤمنين ، لان

الاعاجيب في طالبيها اكثر منها بمحدثيها ..

ومن هو محدث الاعـاجيب ؟ ووقف الناسك لدى سؤاله وقوف المعجب بحدوث الاعجوبة . وقف غريباً عن دنياه كأنه جديد في هـذه الدنيا ، أقديس هو ؟ ان الله لم يظهر له الا مرة واحدة ، وذلك في حـال صلاته . ولكنه منذ ذاك الحين ، لم يستطع ان يصلي كتلك الصلاة ، فكيف يرى الله ، او يسمع صوتـه ؟.

أيستطيع ان يرى الله ، من كانت صلاته محفوفة بالذكريات والتحسر على ما فات من متع الجسد ؟

ليته بادل نجلاء حباً بحب . ليته احتضنها ولو مرة واحـدة وافرغ ما في قلبه من كبت العاطفة ، ودخان الشوق ..

بل ليته ماشى ابنة زعيم الجنوب في رعونتها وانتهاجها مسلك الطيش ! ولكن ما معنى التحسر بـ «ليت» بعد فوات الاوان ؟

ان اضطرام الشوق جرثومة الطهارة . فلِمَ لم يقضِ على هذه الجرثومة باطلاقها مع النظام الذي يسل الانسان من الانسان ؟

قد يكون العالم تافهاً في نفس من دخل العالم وعرف ملاذه . اما وانه حرم نفسه من هذه الملاذ فكيف يمكنه ان ينفي متعة العالم التي جعلها الله ناموساً لاستمرار الوجود ؟.

ان انظمة العالم وشرائعه ، وما يرافقهما من نهي وتحظير ، انما هي مولدة تبعات اكثر منها مصلحة نفوس ولو ان التبتل يقود الى السماء وحده ، لفني العالم . واية حاجة الى السماء بدون العالم ؟ أليست السماء في عرف المذاهب ، جزاء المستحقين في الارض ؟

كان الناسك تائهاً في مهمه افكاره ، والنار تزفر امامه بحدة والتهاب، وجذوع الشجر تتلاشى في هذا اللهيب الاكّال فتستحيل رماداً . وكانت حلكة الليل تستولي على الارجاء ، والامطار تهطل بغزارة الطوفان . والافاق مكفهرة بالغيوم الدكن المولدة الصواعق . واصداء الرعد تترجع في الوادي وتدخل كهفه مخيفة راعبة ، كأنها تهدده بالموت ، قصاصاً عن افكاره الخاطئة ..

كل هذا ، وافكار الناسك متلاحمة ، متلاصقة ، وفي هـذا الانهيار المسترسل الرؤى ، تنتصب نجلاء امـام رفائيل ، باغراء يخدر فيه المناعة ، ويشل منه الدفاع ، فتستيقظ غرائزه ، وتتململ الشهوة في جسده العفيف ..

وانساب الزمهرير من الثغرات الى حجرة الناسك ، حـاملاً معه البرد والرذاذ ، ولكن اين قوة عناصر الطبيعة من عناصر الطباع ؟ ان البرد اضعف من ان يزحزح الناسك عن مكانه . ان عينيه محدقتان الى النار ، وفكره متوغـل في صميم الدنيا ، واية قوة تطفيء النار ، وتواري وجه الدنيا عمن علقت رجـلاه في ورطة الذكريات ؟.

ليت للناسك ديكاً يصيح في منسكه . اذن لعرف كم هزيعاً مر من الليل. ولكن لماذا تمنى الناسك ديكاً في مثل هذه الازمنة النفسية ؟ أليؤنس وحدته ، ام لينبهه الى انكاره سيده ، برجوعه بعد المشيب الى الشباب ؟

وانتفض الناسك عندما التقت كلمتا المشيب بالشباب في عرض واحد . وبهذه الانتفاضة انقطع مجرى افكاره ، فاحس البرد في

فقرات ظهره ، فادار ظهره للنار ، وصدره لمجرى الريح ، ولبث هنيهة دون حراك ، ودون تفكير .. وما هي دقائق تمر على هدوئه حتى قصف رعد مخيف في كل افق ، وعاد دوي الرعد الهائل انهياراً ، زلزل الكهف من جهاته الاربع ، فاستولى الرعب على الناسك الضعيف ، فانتصب واقفاً كالمجنون ، ورفع يديه الى العلاء مستغيثاً : الهي ! الم تقل لي يوماً ، من يغفر الاساءة لا يسيء ؟ فارحمني يا الله ، ولا تجعل قبري في انقاض هذا الكهف . وإلا ما معنى التوبة ، ولمن اعددتها اذا لم تكن لمثلي ؟ وما معنى المغفرة اذا لم تكن جزاءً عن التوبة ؟ فانا تائب يا الهي فارحمني ولا تمسك عني المغفرة ..

ولكن ما معنى هذا الابتهال وقد ضاع صوت الناسك في الهدير المخيف ، فهل سقط الجبل ؟

ومرت عاصفة من الغبار في الحجرة فحملت النار من موقدها. ونثرتها رماداً وجمراً وفحماً . واتصلت الشرارات بفراش الناسك فالتهب القش ، ولما اندلعت السنة اللهيب ، هرب الناسك تائهاً في اعماق الكهف ، ظاناً ان خطيئته تطارده .

كان يركض خائفاً ، وخياله يمر على الجدران كبيراً ، وقد انعكست اشعة اللهيب الحمراء على كل زاوية من زوايا الكهف .

كان اللهيب من الداخل ، والانهيار من الخارج ، والناسك حائر في خوفه . مرعوب في هربه ، حتى خارت منه القوى فسقط إعياءً يلهث كالطريدة التي ادركتها الكلاب . وظلت حاله على هذه الحال ، حتى افتر الفجر عن جوانب الهدوء . لما تبلج الصباح ،

كانت العاصفة انتهت ، وعندئذ ظهر جلياً ان قسماً من الكهف انفتح سقفه ، وتدحرج من فتحته صخر كبير فاستقر داخلاً كقطعة من الجبل ..

ووقف الناسك ضائعاً مشدوهاً ، خائفاً حزيناً ، وقد رأى ثلث مأواه اصبح خراباً وركاماً . انها السيول الطاغية جرفت السفح ، وزلزلت اركان بناء الدهور . انها الخطيئة قادت السيول ، وفجرت الصواعق لتنذره بالويل . اذا لم يرعو عن تيهه في صحراء افكاره الدنيوية ..

وخرج مطلاً على الوادي ، فرآه جامحاً بما تجمع فيه من سيول الجبال التي تحيط به ، وكانت مياه الوادي كالدماء ، وجذوع الاشجار تتخبط بين امواجها المزمجرة .

ووقف امام هذا المشهد ، والرعب يشد بعينيه وفمه لانذهالا . والبرد يصفع جسده صفعاً فيلون وجهه ويديه بالازرق المموه بصفرة الموت .

أهي ثورة العناصر امغضب الله؟ خرج السؤال من فم الناسك كالحشرجة . فنبت اذناه عن صوته ، وظن ان احداً سواه يتكلم فصاح : ويلاه ! ان الخطيئة تجعل الانسان غريباً عن نفسه . وسمع صوته غريباً ايضاً ، فراح يبلع ريقه الجاف لعل حلقه يلين ، وقد احس شوكاً يرافق الصوت عند الخروج .

وعاد يعيد السؤال الاول : أهي ثورة العناصر ، ام غضب الله ؟ ثم ارتجف مستدركاً : تعالى اسم الله ، انه لا يغضب . فالغضب من صفات البشر لانهم يخافون ، ويكذبون ، ويطمعون .

الغضب نتيجة الضعف، وكل ظالم ضعيف. والبشر كلهم ظالم!..
ان الله لا يغضب، لانه جعل لكل شيء نظاماً.

ولكن؟ لماذا رأينا داود الشاعر! داود المرنم، يتحدث كثيراً عن الغضب؟

أكان داود جاهلاً؟ ام أن ثقل المعصية اراه وجه ربه متجهماً منتقماً؟

ومضى ذلك النهار، والناسك حائر لا يدري ما يصنع، ولا يقر امراً فيه الخلاص من حيرته. ولما جاء الليل، كانت السماء صافية الصفحة، ونجومها تلمع كأنها اغتسلت بطوفان الليل الماضي.

ورفع عينيه يحدق الى النجوم ويتساءل: ألهيب مضطرم هي، ام ثغرات تنساب منها انوار السماء؟ أعيون تحدج الخطأة، ام مصابيح تنير طرق الابرار؟ ولما أغلق عليه الجواب، رفع ذراعيه الى العلى وصاح: ربّ! لتكن نجومك لهيباً يطهر ادران نفسي، ومصابيح تنير طريق توبتي. لانك رؤوف لا تغضب، ورحوم لا تهلك التائبين.

ثم دخل الى كهفه، فاضرم النار، وجعل من زنده مخدة لرأسه ونام حتى الصباح..

أمام التمثال

من يفرق الايام يوماً عن يوم ؟ انها متشابهة لكأنها يوم واحد. او هكذا يراها الناسك في نظره ، وشعوره ، وتفكيره . ولو بعض زيارات يقوم بها طلاب العجائب لهذا القديس ، لرأى الايام كلها يوماً واحداً . ومتى تشابهت الايام ، كانت السنون متشابهة ايضاً . ومع ذلك فالناسك لم يتذمر ، ولم يفكر في حياة ارفع . فالحياة في عقيدته هي الحياة ، ان طويت في القصور ، او طويت في الاكواخ . ان عبرت في الشارع ، او سجنت في الصوامع ، فكل يتذوق طعم اللقمة التي في فمه ، وما دام الموت نهاية المطاف ، فليكن اقوى من الاهواء التي يشعب طرقها الجسد !.

ان الخبز موفور لديه ، وان البقول والثمار تماشي الفصول في جوار منسكه ، وماذا يطلب المتقشفون ، وهم في منعزل ايامهم ؟

ان رفائيل الراهب، الناسك ، التائب ، سعيد في روحه ، ولو هذه الافكار القلقة التي تعاوده في اوقات صلاته ، لبلغ من سعادته منزلة تحسده عليها الملائكة .

وفكر يوماً في القضاء على هذه الافكار . فصنع سبحة من حجارة الوادي لتلوي عنقه بثقلها عندما يصلي . لقد جعل حبات سبحته من الشكل الكروي الاملس ، فثقب احجارها حجراً حجراً ، وجعل اسبابها خيوطاً من الشعر ، يشدها عقداً كالزرد .

ولما انتهت هذه السبحة الغريبة ، وضعها قـلادة في عنقه ، وركع يصلي :

لقد أحس ثقل الحجارة يزيد عن احتمال عنقه ، ورأى ذلك العنق يلتوي الى صدره ، ومع ذلك فان هذا الالتواء لم يخفف من جنوح افكاره ، فماذا يصنع ؟ وفكر في العمل ! في نهك الجسد . في اجهاد القوى ! في قتل الوقت . فراح ينقب الارض . ويغرس الكرمة . ويسد الفجوات التي فتحها الزلزال في كهفه ، ويبني الفواصل بين الحجرة والحجرة ، حتى وصل الى هذا الصخر الضخم الجاثم بهوله يملأ حيّزاً كبيراً من الحجرة الكبيرة .

وعادت افكاره الى النحت وقد تذكر الصخور في محترف الفنان الايطالي ، فماذا يمنع ان يجعل من هذا الصخر تمثالاً للعذراء؟

وعملت المطارق الكبرى تهيء الصخر للرسم . ورأى ان يباشر عمله بدون مثال من الطين كما كان يشتغل معلمه غالباً . وامتدت الازاميل تكوّن اعضاء الجسد ، فكانت التراتيل الروحية ترافق ضربات المطرقة . وكانت ضربات المطرقة تماشي ايقاع التراتيل ، فاذا بالموسيقى تخرج من الصوت والقرقعة ..

لم يدرِ الناسك كم مر من الشهور على اهتمامه بهذا التمثال . وكل ما يدري ان انشاده كان يخفت احياناً حتى ينتهي ، ثم تسير المطرقة على هواها لان فكره يسترجع موقف الايطالي يوم كان ينحت تمثال حواء قبل الخطيئة نسخاً عن جسد نجلاء زوجته ..

وكانت تتراءى له نجلاء بجسدها المنساق مع كمال الجمال ، فينسى أنه عاكف على إخراج تمثال العذراء ، وينسى انه يشتغل

ويصلي ، ثم يرتل لينسى ذكراها . وينسى انه يكوّن جسداً مقدساً مجللا بالوشاح الطويل ، متلفعاً بغلالة بيضاء . فاذا بالمطرقة تعبث بهذه الثنايا المغضنة برفيراً وارجواناً ، فتزيح هذا الكساء الجميل ليبدو جسد عارٍ ، تكاد عضلاته تختلج ، وتكاد دماؤه تتفصد.

ووقف الناسك مشدوهاً ! ماذا يصنع ؟ فهل تجسدت خطيئته وكل ذي جسد مصيره الموت ؟ هل حان لشيطانه أن ينتحر ؟ أم هي الشهوة تصرخ داعية العفاف الى وليمة الجحيم ؟.

ان الجسد ينادي الجسد ، وبين حنجرة المعصية واذن العاثر ، حاجز من غبار الصخر ، فهل يستطيع هذا الغشاء المنحل من تماسك الاجيال ، ان يحمي رجل الكهوف من اشباح القصور ؟.

وعاد الناسك يكمل عمله ، فكان يزيل النواتيء عن مواضع الجمال ، ويلطف الحواشي في معالم الفتنة ، جاهداً عقله وفنه ليجعل من الصخر روحاً لامرأة . ولما استكمل إحساسه بما رأى وصنع ، وقف ساخراً بهذا الجسد ، وراح يكلمه :

إيه ثعبان فرعون !

ايتها الضالة المضلة !

ايتها الافعى التي تنفث السم في الخناجر لتضع فيها انشاد الخطيئة .

ان نشيداً لهاته السم ، لوباء يعذب الاحياء باللذة ، ويطيل الحياة بالالم ، ويوزع الامل للبكاء . .

ايه ثعبان فرعون ! من علمك قيادة القلوب ؟ ومن وضع في ثغرك شصاً لاصطياد المتكبرين ؟ ومن اطبق كفك على

صولجان العالم ؟

تكلمي ! إنني افهم لغة الصمت . ولو كنت إلهاً لابيت ان اضع فيك روحاً !

تكلمي ! ما بالك تسخرين بي بدون قهقهة ؟

ليتك تظلين هكذا ، ساكنة كالمذلة ، باردة كالعدم ، منتصبة كالتجربة .

ظلي هكذا حتى انقضاء الدهر . فعبثاً تحاولين إغرائي .

ان حرارة الحياة لن تدنو منك ، لان طريق الفراغ لم تمر في احشائك، وستظلين هكذا دون حياة ، لان نفسي لا تعبد صنماً، ولانني لست إلهاً لأوقد فيك الشوق المحرق ، والهوى المذيب..

تكلمي ! وإلا فلستِ وحي وحدتي .

تكلمي ! ان في سكوتك ضجة تملأ حياتي حيرة وتيهاً .

تكلمي ! والا ، متى كان الرجل متكلماً والمرأة مصغية اليه ؟ أوهبتني الثرثرة لتصمتي ؟

اذن ظلي ساكنة لئلا العنك ، واطردك باسم ربي ..

ماذا أرى ؟ انها افترارة بعيدة تكاد تشرق بين شفتيك ، أواهم انا ؟ أيكون الفن إلهاً ينطق الحجارة ؟

أنا لم اجبلك من تراب ، وإنما قددتك من صخر ليكون جسدك وقلبك متساويين ..

تكلمي ! لقد كنتِ صخرة عتية قذف بك الزلزال الى هنا . فاين ذلك الهدير الذي كنت تحدثينه في طريقك إليّ ؟.

ولما انتهى الناسك من هذه النجوى المحمومة بالهذيان ، وقف

ينظر بعين الواقع ، وقد انجلى غشاء الخيال عن عينيه ، فرأى امامه تمثال نجلاء . نجلاء التي كانت حجر عثرة في سبيل طوبيا . نجلاء العاقر التي كانت تنشد ولداً في هيكل فن زوجها . نجلاء التي لم تهضم عبقرية المستشرق فلجأت الى تلميذه تحتمي بلطفه ووداعته ..

واحس مثل الهدوء يستولي على اضطرابه ، فقال : لقد افرغتُ ماضي في هذا الصخر ، فانتصرت العفة على جموح الجسد ..

وقهقه الناسك ، والهبت ثورة نفسه هدوءه . فتقاربت خطوط جبهته ، وتكمشت اساريره ، فابتعد قليلاً عن التمثال ، وامسك بالمطرقة الكبرى ، وصاح كالمجنون :

ملعونة أنت يا نجلاء ! لقد هربت منك فصنعتك !..

قال هذا واهوى على التمثال بمطرقته تحطيماً ، فاذا اعضاء التمثال تنهار عضواً عضواً ، وهو مندفع اندفاعاً اهوج حتى حول جهود الشهور ركاماً من حجارة ..

ومسح الناسك عرقه بكم قفطانه، ثم افرغ صدره تنهيداً طويلاً واسند جسده الى الحائط لاهثاً مكدوداً ..

ثم اجفل الناسك وقد سمع طلق رصاص خارج الكهف ، فوثب مستفهماً والحيرة تشد بعينيه ليكون كله بصراً . ولما صار خارجاً ، رأى صياداً يلتقط احدى حمامتيه ، وقد مزق جسدها برصاصه .

وصاح الناسك : ماذا جنت هذه الحمامة الاليفة يا هذا ؟

فقال الصياد : لقد ظننتها غراباً ، ألم ترَها سوداء كالغراب ؟ ومع ذلك فقد ابقيت على اختها البيضاء فيجب ان تشكرني .

فقال الناسك : الشكر لله وحده يا هذا ، فاية معجزة فعلتَ لتنال شكري ؟

الصياد : لقد اقتنصتُ الخطيئة التي نهكت جسدك ، لتظل الفضيلة وحدها تجوهر نفسك .

الناسك : ومن انت لتكون سيد النفس والجسد ؟ إن القتلة لا يمكنهم ان يصلحوا ، وانت القاتل الساعة ، فمن تكون ؟

الصياد : قد اكون الرحمة التي استمدها داود من إلهه لتكون إوثاً للخطأة ، فمن يدري ؟ فعد الى حقيقتك يا ناسك الله ، واحرص على نهاية ايامك ، ان في نفسك كنزاً من البرارة ، فحذار ان تدفن هذا الكنز في لجة الفكر الحائر ..

ولما شاء الناسك ان يتكلم ، رأى الصياد يتوارى في الغابة ، ورأى الحمامة السوداء الممزقة ، تحترق في يده ، وتستحيل دخاناً يغشي الطريق التي سلكها الصياد . وتجدد اجفال الناسك، أيكون امام رؤيا ؟.

هدوء !

انتهى الصراع !. واستقر الاضطراب !. فالناسك الهزيل الجسد ، الضعيف الارادة ، اصبح شديـــداً في هزاله ، منيعاً في ضعفه .

وشعر بالبراءة تنير قلبه ونفسه ، بل شعر بانه جديد في عزلته ، وإلا ما هذا الفراغ في تفكيره الجديد ؟ وما هـذه الخشية الراعبة تستولي عليه اذا ما زاره الناس وحدثوه ؟

اما السبحة الثقيلة ، فقد علقها فوق مهده ، اذ ليس بحاجـة اليها بعد ان استقرت منازعه كلها في تمثال محطم . واما كرمته ، وبقوله ، فقد صارت اكثر جنياً ، لانه حصر اهتمامه بها ، وصار لا يترك المعول ، حتى يحين وقت الصلاة .

ان الوقت صار قصيراً لديه ، فكيف تغير مرور الزمن ؟ ولما شاء ان يعرف السبب ، رأى ان ساعات صراعه قـد سلخت من ايامه ، ولم يبقَ سوى العمل والصلاة .

وهمس الناسك في نفسه: ما اثمن الايام التي تتجسد عملاً مفيداً. وما اكبر جريمة من يحول أيامه للعبث والخطيئة .

وتذكر حمامتيه ، متأسفاً على السوداء منهما . امـا البيضاء ، فقد لازمته بعد رفيقتها ولكن بدون هديل .

ونظر الى هذه الحمامة يوماً . فرأهـا كئيبة حتى الانكماش .

ورأى لمعان ريشها ، يكاد يكون جافاً كالتراب ، فماذا دهاها ؟.

أيكون الفراق أغرق زهوها في هذه الكآبة ؟ ام هي الالفة الزوجية انقطعت اسبابها بين الطائرين ؟ أتكون الوحدة القاسية عكست ظل الموت على وداعة هذا الطائر الجميل ، ام هو العثور على الحقيقة رسم الرزانة في سمات الحياة بعد الفراق؟

ومشى الناسك رجوعاً في موكب افكاره . فاذا به في اليوم الذي دخلت هاتان الحمامتان كهفه تجتمعان به من صفع الزمهرير . وتذكر كيف استدرجهما اليه ، بان فرك رغيفاً يابساً بين كفيه ، ونثره على التراب وتوارى . ولما عاد ، وجد الفتات امسى في جوفي الطائرين ، فكانت الالفة .

وتساءل حائراً : ما بالهما لم يبنيا عشاً ؟ أيكونان غير زوجين؟ ام انهما متبتلان شأن سكان هذه الكهوف ؟ وتذكر كلمة الصياد في رؤياه : « لقد اقتنصتُ الخطيئة التي نهكت جسدك ، لتظل الفضيلة وحدها تجوهر نفسك »، فهل تكون تلك السوداء، خطيئته التي لازمت صلواته واعماله وافكاره ؟ ام هي رؤيا تراءت له من ثقل الوسواس ؟

وراح يستجلي مواقف السوداء من الحمامتين . انها كانت اكثر الفة من البيضاء . كانت تحط على كتفه وتأكل من يده ، كانت تعبث بلحيته البيضاء نقداً بمنقارها . كانت تنام قرب فراشه وتهدل مبكرة لتوقظه . بل كانت تلازمه كأنها جزء من نفسه .

وتراءت له كأنها لم تمت ، انها سوداء بالغة الحلكة . ولمعان ريشها يتألق كالنجوم . انها مطوقة بالوان الشمس المتكسرة على

الرذاذ . إنها اسمى من الحمام فما اجملها !.

وهدأت نفس الناسك بعد هـذه التصورات ، واطمأن الى خلاص هـذه النفس ، فزالت افكاره القلقة بزوال السوداء من حمامتيه ، واذا ما طرأ عليه فكر عابر ، فيمر كاللهاث على الزجاج ، ولا يلبث ان يضمحل ..

وصاح الناسك بغبطة وثقة وايمان : كل شيء باطـل إلا الله . ومن شاء ان يبلغ الله ، فليتجرد من الجسد ..

الجسد نفق النفس ،وما اكثر من يضلون في انفاقهم ويضللون.

هذه هي الافكار التي كانت تمر في هدوء رفائيل .

فالنظام استتب في كهفه ، والهـدوء اشرق في نفسه ، حتى تراءت له حياة البشر كطرقهم ، فحيثما اندفعت اقـدامهم كانت لهم الطريق . ولكن هناك فرقاً بين ان يسلك البشر عـلى الترهات ، او ان تقودهم خطاهم الى الجـادات الفساح . ورفائيل كان يسير بين المعبرين. اما وقد وجد طريقه الارحب والاوسع ، فقد ارتاح الى ما بقي له من الحياة .

وارتجت في نفسه كلمة ما بقي . فهل تكون الحيـاة معدودة على البشر ؟ لا ! ليس هناك من عد او حساب . ان عمر الانسان كخيط الحرير في فم الدودة . فقد ينقطع هـذا الخيط في بداية انسلاله ، الى الشرنقة ، وقد يستمر حتى نصفها ، وقد ينتهي كراً باجمعه ليكون كفناً للدودة .. وليس من سبب لتحولات الخيط ، الا الملائمة التي ترافق الزمان والمكان ، في حياة الدودة ونموها ..

وراقه هذا التشبيه . فاغتبط في اعماقه كأنه عثر عـلى سر

الوجود . ولما تألقت هذه الفكرة في نفسه ، تنهد وقال : مسكين الانسان اذا كان هذا شأنه . انه يقيم الدنيا ويقعدها لينسج كفنه. ولكن هيهات ان يوفق بانسلال خيط امـانيه . والاغرب ، ان ثلثي الناس يموتون دون اكفان ، لان خيوطهم تنقطع قبل بلوغها تكوين الشرنقة ..

وتساءل : مـا الفرق بين من يقضي وشرنقته في نفسه ، ومن يخرج مجنحاً من عمـله ؟. فـكان الجواب : جمال التحول وبلوغ الطيران ..

امرأة في المنسك !

عُرف الناسك بانه لا يستقبل الزائرين . فكثيراً ما كان يهرب منهم ويختفي في اعماق الكهف . اما النساء ، فكان محظراً عليهن مرآه . ولما سئل مرة عن هربه من الزائرين ، قال : لقد اعتدت ان اقول «للدنيا» لا ، فلا حاجة الى تغيير عادتي .

وجاءته يوماً امرأة . وقبل ان يزجرها او يهرب منها ، رآها تجثو لديه ضارعة : أشفق عليّ يا قديس الله ! أنا امرأة لوت الخطيئة عنقها ، فهرب منها الموت ، لئلا تستند اليه .

فلا تهرب مني انت ! ارفع يدك فوق رأسي ، فتخرج مني شياطين الماضي .

فاشاح الناسك بوجهه عنها ، وتكلم مُلبساً صوته رهبة الحذر والتبكيت : لم تقعي على منجدك ! ان الذي كان يقتل الشياطين بسم الافاعي مات بسلاحه . فقولي لشياطينك ان سم النساء افتك من سم الافاعي ، فتهرب منك الشياطين !. تواري من امامي ! اغربي ! لقد هدمت السنون مستودع الخطايا في نفسي ، فلا مكان لك في عزلتي . أتكونين الحمامة السوداء التي قتلها الصياد ، وقد عدتِ اليّ بجسد امرأة ؟

فاجابت وهي تحبو اليه زحفاً على ركبتيها : أنا مؤمنة يا

أبتِ . وانت ادرى بالايمان المحفوف بالخطايا . أليست الخطايا مقياس الايمان ؟

فالمؤمنون وحدهم يشعرون بثقل المعاصي . أمــا كنت مثلي يوماً ؟.

لقد اخبرني ابناء جوارك ، انك صنعت سبحة من حجارة الوادي فما هي حاجتك الى هذه السبحة لولا الايمان ؟

ان الخطيئة واحدة في النفوس كلها يا ابتِ .والمؤمنون واحد ايضاً . فحيث يكون الايمان خصباً مخضلا ، هناك تنبت بذور الخطيئة . ولعمري ليس هناك مقياس للتقوى كالشعور بالخطيئة . وهذه هي قاعدة معرفة النفس المعدة للسماء ..

فارتجف الناسك وقال: أجئت تكرزين باسم الخطيئة ؟ أجئت تقولين ان الخطيئة تجتذب الايمان ؟

قالت : جئت لاقول ، ان الادران لا تبدو على الاثواب الوسخة .

قال : تواري قبل ان العنك باسم ربي !

قالت: اللعنة لا تخرج من الفم الذي نعَّمت الصلاة حواشيه . والا متى كان العطر يتحول قذارة في قارورته ؟.

قال : يبدو لي انك الدنيا ، وقد تجسدتِ لاني اكرهك !

قالت : لسنا مخيرين في ما نحب وما نكره .

قال : ولسنا مجبرين على قبول ما نرفض . فاغربي ! تواري ! لتبتلعك الارض !.

كانت المرأة لم تزل جاثية ، ولمــا زجرها بمثل هذه الغضبة

العاصفة ،نهضت من جثوتها باجفال ، فالتفت ساقاها، ساقاً بساق ، فسقطت على الارض تتمرغ عجزاً واعياء ، دون ان تطلب نجدة الناسك الهارب الى الكهف ..

في الغد ، جاء الناسك زائر، واخبره ، ان امرأة قتيلا وجدت في الغابة المجاورة قنوبين . وقد اهتمت السلطة بان بثت الجنود في القرى لتقبض على القاتل .

فقال الناسك : لقد هربتُ من القتلى والقاتلين ، فلا تحملوا اليّ اخبار الشر .

فقال المخبر : أنت قديس يا ابتِ ، ولا شك في انك تعرف القاتل اذا ما نظرت بصفاء نفسك .

فقال الناسك : قد أكون انا القاتل ، وقد تكون انت ، فمن يدري ؟ إن الشر لهاث الخير . فحيث يتعب الخير من البحث عن الفضائل الضائعة ، فهناك يكثف اللهاث ويصير ضباباً اسود .

فعلى المصلحين ان يتركوا الصالحين في دنياهم . عليهم ان يتركوا الفضائل طليقة في متاهاتها . فالفضائل ككل شيء يكافحه الناس ، فلا بد من انقراض الفضيلة اذا ثابر البشر على اللحاق وراءها .. اقول هذا وقد تراءت لي المرأة القتيل فضيلة منتحرة ، لانها لم تترك طليقة ..

فقال المخبر : ولكنها بالغة الجراح ، فكأنها سقطت من اعلى مرتفع .

الناسك : ألم اقل لك انها منتحرة ؟ وما معنى الانتحار اذا لم يكن سقوطاً من اعلى الى ادنى ؟ لقد كانت هذه المرأة خاطئة ،

وقد ندمت على خطاياها ، ولما لم تجد من يبارك فيها الهداية ، ندمت على ندامتها فانتحرت .

فقال المخبر : اذن ، فهي هالكة لا محالة ..

الناسك : لا يهلك النادمون مرتين . فكفاها هلاكاً ، انها هلكت في حياتها ..

من هي ؟.

بعد اسبوع ، اقبل جندي يرجو مقابلة الناسك . فاستقبله رفائيل مستفهماً بدون كلام ، فقال الجندي : لقد عثرنا على امرأة مائتة في جوارك يا ابتِ ، ولما تحرينا امرها ، عرفنا اسمها وهويتها.

الناسك : واي شأن لي بالحادث ؟.

الجندي : لك في طيات ثوبها رسالة مختومة الظرف فاليكها..

اخـذ الناسك الرسالة ، فاحس قشعريرة تمشي في اوصاله ، ولكنه لم يتكلم . ولما ذهب الجندي ، جلس الناسك في ظل معرشاته وقرأ على الظرف : «الى الناسك القديس الراهب رفائيل. الذي كان طوبيا الحلبي .. »

وفض الرسالة بهدوء وخشوع ، كأنه يفتح دفتي كتاب مقدس ، وقرأ التوقيع : مرام .

وتساءل : مرام عروسة طوبيا الحلبي؟ ابنة ظافر بك درويش؟ العائثة في نعيم حياتها ؟ فمن دلها على طوبيا وقد انسحق تنكراً عن دهره وحياته ؟ من قال لها ان هذا الشبح الاسود الهزيل كان يوماً ملاك احلامها ؟

وتاهت نظراته في الرسالة، فاحس غشاوة في بصره تريه الكلمات مطموسة . بل تريه الكلمات متراقصة كأنها تحاول الوثوب اليه دون ان يقرأها .

وبعد ان فرك عينيه بكفه مراراً ، استنارت عيناه ، وقرأ :
ابت القديس .
ان خمساً وعشرين سنة لم تستطع ان تنسيني ذلك العرس الكبير ، الذي كان طوبيا الحلبي سيدَ الموكب فيه . وكيف أنسى انا التي أعلنت مذلتي بين الوف الناس ؟
نعم ، كنت حبلى ، وكنت زانية ، وكنت مخادعة . ولكني لم اكن كاذبة وقد رأيت جسدي ملتفاً بوشاح الطهر . وما كدت اصحو من اغمائي ، وأرى اساريرِ والدي تتحفز للوثوب ، حتى صحت به بجرأة وعنف يائسين : اقتلني ! مزق جسدي ! اطرح اشلائي للكلاب ! ولكن ثق بأن طوبيا بريء من دنسي !.
وهدر الوالد الجريح في عنفوانه ، هدر حامي الاعراض من التعرض ، وقال : من يكون الثعلب المدنس رهبة العرين ؟
فقلت : دانيال ، ذلك الذي اطلقت له الحرية في دارك يا زعيم ! وجيء بدنيال ! وكان يرتجف كالغصن الوحيد في شجرة اجتاحتها العاصفة وكان لارتجافه صوت الخشب المتقلقل في كوخ مهجور ..
وصاح به الزعيم ! ماذا فعلت ؟ فتعلثم الثعلب ، وتساقطت الكلمات من فمه ، كالتراب المنهار من سقف بدا فيه التصدع ! ولما نظرت اليه ، وجدته قبيحاً كالقرد . فوقفت متهادية ، وصفعته بيد متشنجة ، وسقطت على الارض إعياءً .
وكأن صفعتي بثت فيه الجرأة ، وصقلت فيه الكلام ، فقال : فعلت كما يجب أن يفعل . كل جائع تراءت له ثمرة مباحة

للقاطفين . وانت يا زعيم الجنوب ، لم تعرف ان تحافظ على ثمرتك الوحيدة فقطفها الجائع ..

وكان المشهد المروّع . وكانت قبضة ظافر بك درويش الحديدية تمتد الى خناق دانيال ، وتعتصر حياته ، فتخرج هذه الحياة من بروز عينيه ، رعباً وغموضاً .

وسقط الجائع يتلمظ ثمرة الاثم . ولما مددت عنقي لقبضة والدي المهتاج ، تجاهلني وتوارى . وبعد عشر دقائق ، دوى الرصاص في غرفة الزعيم القاتل . ولما تراكض الناس ، كان الدم ينزف من صدغه الايسر ، وعيناه غائمتان في غيبوبة الموت ..

ان الجماهير التي احتفلت بالعرس ، هي نفسها الجماهير التي احتفلت بالدفن . اما انا ، فقد سجنت نفسي في غرفة مظلمة ، هرباً من نظرات الشامتين ، وقساة القلوب ..

وبدت المأساة يا ابتِ . فابناء الجنوب تنكروا لي . والسلطة احاطتني بالاستنكار ، وبين العنفين الاجتماعي والقانوني ، ذابت الثروة التي رفعت الزعيم ، ووسعت نطاق الزعامة ..

في هذا الوقت ، اصبحتُ أماً لطفل فقير . ولكن ما معنى الغنى والفقر تجاه بسمة طفل عــذبة ؟ لقد اسميتُ ولدي طوبيا ليكون بريئاً . ونزحت عن منطقتي لاطرق ابواب المحسنين . وكنت دائماً افكر في طوبيا الحلبي . وافكر في عثرتي التي افقدتني الفردوس في قربه ..

لقد بحثت كثيراً عن طوبيا . فقيل لي صار راهباً . فرحت اطوف حول الاديرة لاراه ولكني لم أره . ومضى الزمــن

واصبحت مرام في كهولة خائرة . فخسرت جمالها ، كما خسرت مركزها وجوهرها ، ولكنها ربحت شاباً اسمه طوبيا .

وتركت طوبيا الشاب لابحث عن طوبيا الشيخ ، فعرفت انه هو القديس الذي نوّر مغاور قنوبين بقداسته ؛ فجئت اليه ،لانفض خطاياي بين يديه ، ولما وجدته يخشى على جراح نفسه من سم الافاعي ، اخفيت عنه نفسي لئـــلا يحسبني افعى ، وفكرت في الانتحار ...

قد تستعيذ بالله من كلمة الانتحـار . وقد أتراءى لك هالكة خاسرة الحياتين . ولكن ليس كل انتحار هلاكاً يا قديس الله ، وقد عجزت نفسي عن مواصلة طريق الندامة ..

فوداعاً يا قديس الله ! وداعاً ايها الجسد المتجوهر روحاً ، على ان تصلي لاجل مرام

●

سقطت الرسالة من يد الناسك ، وقد تراخت اصابعه عنهـا ، وشعر بان جسده يتراخى كأنه ينحل . فنهض جاهداً نفسه لئـلا ينهار . واخذ معولاً وراح ينكش بقوله .

كان المعول في يدي الناسك يرتفع مرتجفاً . ويهبط كابيـاً ، وهيهات ان يحدث في الارض جرحاً . ان في زندي رفائيل ضعفاً لم يشعر به قبل ، فماذا دهاه ؟ ووقف لاهثـاً . وقف يجفف عرق الاجهاد عن وجهه ، ويستعيد المشاهد التي صورتها الرسالة ،فيذعر .

مسكين دانيال ، لقد ظن ان هرب طوبيا من الجنوب يخلي له الجو . لقد ضحى بثوبه الرهباني في سبيل امياله الدنسة ،ولكنه

لم يسلم . لقد خرجت حياته من بروز عينيه وعبساً فموتاً . مـا اصدقه تعبيراً . انه تعبير الاشفاق على القاتـل والمقتول معـاً . ولكن من يعرف القاتل ويفرقه عن المقتول ؟

قال هذا ورمى بالمعول ، وراح يبحث عن الرسالة حيث رماها من يده . ولما التقطها ، عركها بين اصابعه بهدوء ، كأنه يـتردد بين ان يعيد قراءتها ، أو يمزقها . ولما تلاشت الرسالة عركـاً ، مزقها وطرح اجزاءها في الهواء .

وتطايرت هذه الاجزاء كالفراشات البيض ، تتهـادى فوق الارض لتسقط حيث تنتهي تهادياً ، والناسك فاتحـاً فاه بوجوم وذهول ورعب . .

لِمَ لم يحتفظ بالرسالة ؟ وماذا يقول للسلطة اذا ما سألته عـن محتوياتها ؟ أيقول انها انتحرت ؟ وكيف يثبت قوله ؟ ان الصدق مـا كان يوماً من مستندات السلطة لاقرار الحكم . ان بهلوان التحقيق يرقص على مئة حبل قبل ان تستقر قدماه عـلى الارض . ولا سيما في التحري عن الجرائم . فهل يأتي البهلوان الى الوادي المقدس بدون حبال للرقص ؟ .

وانطلقت عيناه تبحث عن الاجزاء . فتراءت له قطعة عـالقة باذيال عوسجة . فجذبها بشوق ولهفة . وقرأ ما اصابها من كلمات ، فاذا هناك : اصبحت اماً لطفل فقير . .

وفكر في مرام أماً . فكر فيها تذيب حنانهـا بذل الفقر ، وتخفي ذلها بغبطة الامومـة ! وتراءت له مرام صبية لعوباً ، بريئة الحركات ، مدللة في دار ظافر بك درويش . وتراءت له يتيمة تجر

وراءها المعصية كأنها أتان ربطت الى عجلة. وتراءت له تلتقط دماء نفسها من عينيها في ساعات الندامة وتبكي . فقال : لا ! ليست هالكة !. ان من يغتسل بدموعه ، اكثر طهراً ممن يغتسل بالعطر . فارحمها يا الله ..

وارتاحت نفس الناسك الى هذه النهاية . وهكذا طمست انطباعات ماضيه في نفسه ، كما طمست رؤاه . وهكذا امسى خلياً ناصع الضمير ، هادىء التفكير ، كثير التأمل ..

ومضت ايام لم يجد جديداً في حياته ، ليضيف هذا الجديد الى مذكراته . ولولا هذا التحول الجديد الذي يشعر به في نفسه ، لظن أنه جديد في الوجود .. فقد انقطع عن ماضيه . ولها عن حاضره . وزهد بمستقبله . ولم يبقَ لديه سوى هذا التحول الذي يراه جديداً .

لقد صار يشعر بشهية للأكل ، وبنشاط في السير . وبسعادة في التأمل . وبغبطة في الصلاة . وهكذا فقد اتحد بوحدته اتحاداً كاملاً حتى الامتزاج بالارض والافق وما بينهما من اثير .

انه يحس نفسه هينمة في كل غصن ، وصدى في كل فجوة ، ونوراً على كل دوحة ، وصمتاً في كل جماد . حتى صار يتمنى لو يستطيع ترويض الوحوش لتألف منسكه ، واستدراج الطيور لتحط على كتفيه ..

فالرجل بلغ الصفاء حتى صار شفافاً . وعبثاً حرك هذه الحياة الجديدة بحثاً وذكرى . فلم يجد في بحيرتها سوى الضياء ينعكس على صفحتها . وينفذ الى اعماقها. ان النهر الجارف المدار قد استقر

في نهايته ، فماذا يعنيه من الطريق؟ اذن فليطبق الكتاب . وليؤمن بان الكمال ليس انعم من هذه الحياة المنحلة من قيود الفكر الهاربة من سجن العالم .

اللهم امسح بيمينك لوح ماضيه . وان شئت فاسترد النسمة التي خرجت من فيك ، فقد عادت نقية كما نفختها .

اللهم اقبل توبته ، واحسب آلام ايامه مطهراً لنفسه ، فقد كان جسده محرقة ندامته ، حتى لم يبقَ حول نفسه رماد .

اللهم اغفر لنجلاء ، واصفح عن مرام ، فالابدية مصدر الارواح ومرجعها ، وانت ابو الارواح وامها ، منذ الازل ، والى الابد ، وليس من نهاية لمن لا بداية له .

انتهت هذه الذكريات ، عام ١٩١٤ في العاشر من نيسان ، بقلم الفقير الى مغفرة الله ، الاب طوبيا الحلبي ..

رجوع !

في الثلاثين من ايلول عام ١٩٣٩ ، كنت في طريقي الى قنوبين ، احمل الكتاب الذي اخذته من الناسك القديس ، وقد عاهدته على ارجاعه بعد شهر .

كانت رحلتي شاقة ، لاني اردتها مشياً . لقد اوصلتني السيارة الى قرية ايطو ، ومن هنالك استدللت على الطريق المؤدي الى قزحيا ، وقد شئت ان ازور القبر الذي دفنت فيه نجلاء .

كنت وحيداً من أيطو الى قزحيا . وكان الوقت فجراً ، والصبح يفتر عن غشاء الاودية السحيقة ، فاري الاشجار كالاشباح ، واحس لهذه الاشباح ارواحاً تتهادى ، كأنها ترحب بكل زائر دير «كنز الحياة»

الطريق يعلو ثم يستقيم . ثم ينحدر ليعلو . وافكاري منصرفة الى حياة الرهبان المرهقة ، مرافقة الصراع الرهيب الذي قطع مراحله الاب رفائيل ، بقوة وثبات ، وايمان وصلابة . وقد بدا لي ان كل راهب هو رفائيل ، فاكبرت الجهاد في كل راهب ، وغبطت ذوي الثبات .

اطللت على الدير والشمس تذهب القمم وافانين الاشجار ، فظننت نفسي ضائعاً عن المزار المقدس ، وقد بدا امامي صرح

شامخ في ذلك المنفرج الخاشع ، مزخرف بالاطناف والافاريز ، مموّه النوافذ والشرفات بالالوان الزاهية .

وقبل ان ادخل بوابة الدير الكبرى ، التقيت راهباً متين الهيكل ، عامر البنية ، عريض الكتفين . يقود بيسراه كبشاً ، ويحمل في يمناه خنجراً عريض الشفرة سنين الحد . فالقيت عليه السلام ، فرد بفتور وعيناه الى الكبش المستسلم ، كأنه يخترق بنورهما هذا الصوف الملبد ، ليصل الى اللحم والشحم ، والشهي مما احتوى عليه حشاه من قلب وطحال ، وكليتين مغلفتين بالدهن

وكاد الراهب يجتازني ، كأنني لست غريباً قادماً ليزور هذه المقادس . واستوقفته برجاء : ابتِ ؟ أيمكنني مقابلة رئيس الدير ؟ فاجاب وقد اولاني ظهره : الرئيس مشغول في حجرته ، فانتظر خروجه .

قلت : واين انتظر ، أليس من مكان لجلوس الغرباء ؟

فقال دون ان يقف : كل مكان معد لجلوس الغرباء ، فتفضل . قال هذا واشار بيده الى صخر قريب من البوابة .

وقفت حائراً امسح عرقي وارقب ما اشرف عليه من اعماق. وقبل ان اخرج من حيرتي ، اقبل راهب ثانٍ وبيده كتاب يتلو فيه صلاة الصباح . ولما رآني ، اطبق كتابه ، ورسم الصليب على صدره ، وتقدم مني يرحب بي ، وصدق لهجته، ينوّر وجهه الجميل: وكرر الترحاب : اهلاً وسهلاً ، ما بالك متردداً لا تدخل ، ان الدير بيت كل زائر . فتفضل .

قال هذا واشار بيده ، ولكن ليس الى الصخر ، بل الى المدخل لادخل قبله .

دخلت ، فاذا بي امام نافورة مياه ، تحيط بها احواض الزهر من كل جهة ، وقد صفت الكراسي بجانب الاحواض ، امـــام النافورة المتدفقة بعذب المياه ..

وكأن الراهب لحظ عليّ بعض الاستغراب فقال : الحيـاة للجميع يا ابني ، وليس كثيراً على الراهب ان يرفـه عن نفسه بزينة الحقول ..

لم اجب ، وانما تاهت نظراتي في ارتفاع البناء، فرحت احسب طوابقه سانداً رأسي من وراء ، بكفي ..

وفيما كنت ارقب دقة البناء ، وسمو الارتفاع ، همس الراهب في اذني قائلاً : جاء الرئيس . والتفت فاذا بي امام راهب وقور ، وخط الشيب لحيته ، وشرعت السنون تغضن وجهه ، ولولا هـذه العلامات التي تجلل الكهولة ، لظننته شاباً في مستهل غضارته ..

رحب بي الرئيس باهتمام، ومد لي يده مصافحاً بلهفة، ثم تكلم: اراك تدقق كثيراً في هندسة الدير ، واراك تحدق كثيراً الى كل ما حولك ، فارجو ان تكون معجباً لا ناقداً ، وقد طالما رددنا على النقد بمبررات الحال !.

فقلت : وما دام للحال مبررات فلا حاجة الى البحث ، على اني التمس امراً هاماً ،فهل أنال هذا الامر ؟

فاجاب الرئيس : ان شئت ان تطاع فسل ما يستطاع .

قلت : أتستطيعون ارشادي الى قبر نجلاء ؟ نجلاء تلك التي ماتت في هذا الدير يوم كان الناسك رفائيل راهباً شاباً ..

ضغط الرئيس جبهته بكفه ، وتكمشت اصابعه على صدغيه ، كأنه اراد ان يعتصر رأسه ليتذكر ، ثم قال : إنك تحدثني عن نصف قرن تقريباً ، يومئذ كنت غلاماً في ازقة قريتي . ولكن تاريخ الدير والرواة من الرهبان الشيوخ ، يحفظون هذه القصة ويروونها في كل مناسبة . ولعل الاخ جبرائيل، ملم بهذه الحوادث لانه كان معاصراً العهد ..

قال هذا وكلم الراهب الذي استقبلني : اين الاخ جبرائيل ؟ ناده ! ..

فقلت : الاخ جبرائيل ذاك الذي قاد الناسك الى قنوبين ؟ فانبسطت اسارير الرئيس استغراباً، وقال : انه هو ، وكيف عرفت ذلك ؟ .

ثم جلس الرئيس ودعاني للجلوس امام نافورة المياه ، الموزعة رشاشها على الازهار رذاذاً شفافاً . ثم مد يده يعبث بزهرة « دوار الشمس » وقال : اتعرف خصائص هذه الزهرة ؟

قلت : وهل لها من خصائص غير انها تتبع وجه الشمس ؟

قال : إني اراها عابدة تصلي ، امام معبودها . ألا تحب الصلاة ؟

قلت : الصلاة تنهيدة الروح يا ابتِ ، بيد ان المصلين كثيرون ، ولكن ليس كلهم يصلي .

قال : ان في كلامك عمقاً ، أكلام الساعة هذا ، ام نتيجة تفكير سابق ؟

قلت : هذا كلام مأثور عن ناسك قنوبين الذي نحن بصدده ، وقد جئت اليوم لازور قبر المرأة التي جوهرت نفسه ، وغربلت ايامه ، ففصلت حنطته عن زؤانه .

قال : واي شأن لك بالقبر ؟

قلت : لآخذ حفنة تراب من ترابه ، واهديها الى الناسك .

قال : ومتى عرفت الناسك ؟ .

قلت : عرفته منذ اربعين يوماً ، وقد اعطاني مذكراته لاطالعها ، واني مرجعها الساعة .

قال : وما عساها تحمل هذه المذكرات ؟ هل غير تأملات متهجد ، تعرضها الوحدة في افكار كل حبيس ؟. فهذا شأن من يترك دنيا الناس ، ويتخذ العزلة دنياه .

قلت : قد تكون هكذا يا ابتِ ، ولكن مجاهل الحياة لا يبلغها إلا الذين تحترق يقظتهم في ظلام آلامهم ، فتتوهج طرقهم . وناسك قنوبين من اولئك الذين يسيرون على وهج اليقظة المحترقة . ناسك قنوبين إناء شفاف لمن يود مرأى اعمال الابرار .

وصل الاخ جبرائيل مستنداً الى عصاه ، وقد بلغت منه الشيخوخة مبلغاً بعيد المزال ، فاندفع رأسه الى امامه بدافع ظهره المقوس . إما لحيته الشائبة المسترسلة بعيدة عن صدره ، فتكاد تماشي عصاه ، وقد حاذتها التصاقاً .

وتكلم هذا الشيخ وهو يحاول تهدئة رجفان جسده : من

يريدني ؟ اني عجوز ليس للارادة الآمرة يد في تسيير ما بقي لي من الايام . ولو اني ارغب في اتباع الاوامر ، لكنت الآن راهباً ..

فانتهره الرئيس بخشونة المهيمن : كفى ثوثوة ! انك امام زائر كريم يود ان يتحدث اليك فاجلس ، وتكلم كشيخ انضجته السنون .

جلس الاخ ملتفاً على نفسه ، وحدق إلي بعينين مظللتين ، بكثافة حاجبيه ، ثم قال : أنت الزائر الكريم ؟ فماذا تريد ؟

قلت : ماذا تعرف عن امرأة ماتت في هذا الدير ، ثم دفنت في غابته ؟

فضحك العجوز وقال : إنك تكلمني بالالغاز ياسيدي ، فماذا تعرف انت عن نساء كثيرات متن في كل مكان ، ودفنّ في الارض ؟ فاذا كنت من رجال التحري ، فابحث عن سواي وتحدث اليه لاني شيخ هرم كما ترى ..

قلت : عذراً ، لقد اسأت استفهاماً ، ألا تذكر نجلاء ؟ عد خمسين عاماً الى الوراء . نجلاء المرأة التي جيء بها في موكب من الفرسان ، لتشفى في كنف هذا المزار المقدس من جنونها . ولما شفيت ، ماتت . ثم الا تذكر الراهب رفائيل ؟ ذلك الراهب الذي رافقته الى قنوبين ، وحملت له زاده ومعدات نسكه ؟ تذكر يا حضرة الاخ ، تذكر ! ..

صفن الشيخ هنيهة ، ثم اجفل صائحاً : بلى ! بلى ! تذكرت . نجلاء هاتيك المرأة التي شغلت رأس الراهب رفائيل . تذكرتها .

كانت هزيلة مكفهرة . وكانت ذكية لسنة موزونة التعبير . إني ما زلت اعرف قبرها . انه تحت العفصة الكبرى في الغابة ولكن قبرها خال من العظام ، لان شقيقها نقل رفاتها بعد مرور عام على موتها .

مسكينة نجلاء ، لقد كانت سريعة الميعان ككل امرأة تحترق بلهيب عواطفها ، لذلك فانها جنت وماتت في سبيل غرامها . وما اكثر الضحايا في النساء يا سيدي . انهن اكثر من الفراشات المحترقات حول المصابيح . والحقيقة يا سيدي ، ان وفائيل كان مصباحاً متألقاً بالعفة والفضيلة . ولو لم يقتل الحبيس العجوز في الكهف ليحل محله ، لكان باراً وقديساً .

فاجبته : ما كان قاتلاً يا حضرة الاخ . أنسيت السل ؟ أنسيت انه مرض الذين لا يعرفون قيمة لنظام الحياة ؟ .

وقبل ان يجيب الاخ ، وصل قزحيا ، خادم الناسك ، وهو يلهث تعباً واجهاداً . ويتكلم متلجلجاً مرعوباً ، قال : يا ابانا . ان القديس في نزاع الموت ، وهو يطلب كاهناً للاعتراف . فالسرعة السرعة ..

لم يبد على الرئيس اي اهتمام ، وانما سأل قزحيا : أكان مريضاً يا قزحيا ؟ فاجاب قزحيا : لم ادر يا ابانا لم ادر . لقد جئته في هذا الصباح ثاني في كل اسبوع ، فوجدته نائماً وصدره يعلو وينخفض ، وعيناه ضائعتان تحدقان الى كل شيء ولا تستقران على شيء . ولما رآني ، رفع رأسه قليلاً وقال : البركة ترافق خطواتك يا قزحيا ، فانت ما أتيت الساعة إلا بالهام الله ، فادع لي راهباً من احد

الاديرة ، فقد صارت نهاية حياتي في بداية موتي ..

لم امسح عرقي يا ابانا ، بل صعدت فوراً الى دير ماري البشاع ، واخبرت الرئيس ، فسخر بي قائلاً : خير لـــك ان تذهب الى قزحيا يا قزحيا ، لان ديرنا لا مكان فيه للمجانين ..

وما كاد قزحيا ينهي حديثه ، حتى تحمس الرئيس ، ونهض قائلاً لي : أنا رفيقك الى قنوبين ، فهيا بنا . ثم دعا قيّم الدير ، وطلب منه بغلين قويين ، فركبنا ، ومشى قزحيا المضطرب في ركابنا ، وقد انسانا النبأ المفاجيء ، قبر نجلاء . فلم ازره ، ولم احمل عن جنباته حفنة تراب .

ما أحقر التراب !

ها نحن في قنوبين ! في هيكل الازمنة ! في الثلم البدئي الذي بذرت فيه بذور الايمان ، فانبت الفضائل .

منذ اربعين يوماً ، كنت هنا ، وكان الناسك القديس ذا نشاط وقوة فاين هو الآن ؟

ودخلنا الكهف ، ومشيت امام الرئيس اشق طريق الظلام . ولما اطللنا على الناسك، كانت رغوة بيضاء تخفق بين شفتيه،فوثبت اليه وثوباً ، ومسحت هذه الرغوة بمنديلي ، وجرعته الماء شيئاً فشيئاً .

انفتحت عيناه باتساع ،وظهرت فيهما مسافات الصراع العنيف، ولكنه لم يتكلم .

كانت الحمامة البيضاء رابضة على وتد في الحائط ، وريشها منتفش كأنها خائفة هالعة . ولما ارتفعت يد رئيس قزحيا فوق رأس الناسك تبارك التراب الحاضن الروح، لتخرج الروح بسلام، اجفلت الحمامة وكادت تطير ، فصاح قزحيا : حله يا ابانا حله ..

وتحرك رأس القديس مستنهماً، ثم ارتفع عن وسادته بارتجاف واهتزت شفتاه ، فاصغيت . فاذا به يهمس : « انتهت المعركة ! فاضف الى كتابك ، ان الخطيئة اثقل من الجبل. انتهت المعركة ،

ولكن الروح بلغت ظفرها ، فما احقر التراب ! »

قال هذا ، واغمض عينيه ، ثم عادت الرغوة تضطرب بين شفتيه ، وبعد هنيهة صمت وصلاة ، اهتز الجسد الخائر الهزيل ، في المهد الحقير ، فانتفضت الحمامة عن وتدها ، وصفقت بجناحيها باجفال وخرجت من كوة في اعلى الكهف .

وشهق قزحيا باكياً . اما أنا ، فقد طويت المنديل ، محتفظاً برغوة الموت المقدسة ، وخرجت ، تاركاً الرئيس يكمل صلاته .

— تمت —

كتب للمؤلف مطبوعة

اشباح وارواح	مواضيع
انا مخطوبة	قصة
يقظة الدم	مسرحية
الساعة الثالثة	»
مسبحة الراهب	قصة

●

المهيأ للطبع

●

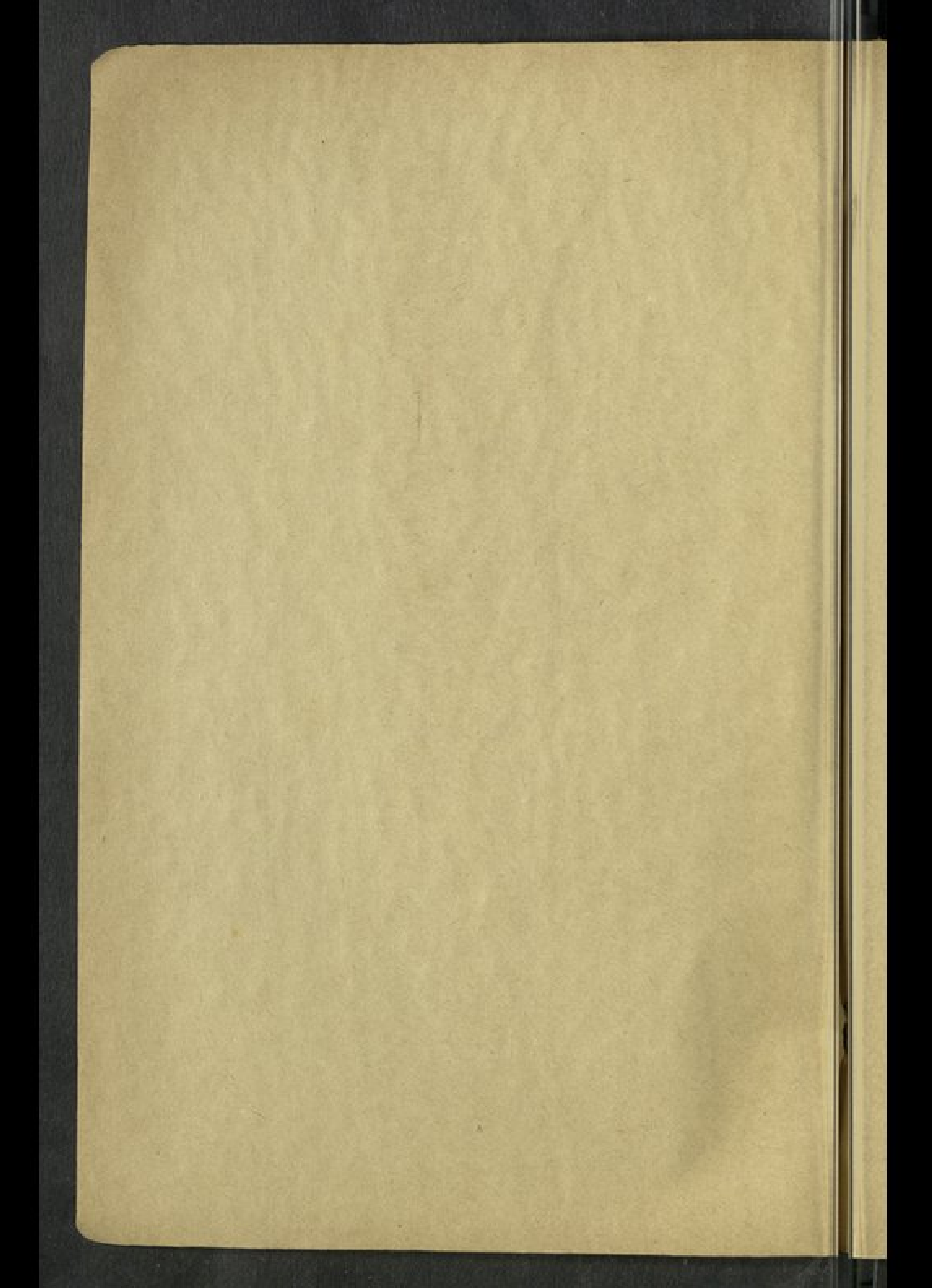
الزاهد	قصة
يسوع الغلام	»
هذا الغريب	»
انا زوجك	»
ليرة ذهب	»
عاشقة نفسها	»
الادب في السياسة	
صور من الشارع	
انا جوعان	مسرحية
افكاري	مواضيع

تصحيح بعض الاغلاط المطبعية الهامة

غلط	صواب	صفحة	سطر
شبانا وتشوقهم	وشباناً تشوقهم	٢٨	٧
الموبوء	موبوء	٢٩	١٩
ضرير	خرير	٣٢	٠٤
جيلاً	جبلا	٤٢	٠٨
فصيلتك	من فصيلتك	٤٣	١٦
باسمداد	باكمداد	٤٤	٠٩
بسوى	لسوى	٥٢	١٠
شفاف	شغاف	٥٣	٠٥
جوكانواه	جوكانداه	٥٧	١٦
وانا	وانما	٥٨	٠١
بالتباشير	بالطباشير	٥٨	٠٢
يعرف	تعرف	٦٠	١٨
تربية	تربيته	٦٢	١١
الخالق	خالق	٦٤	٠٨
ولم يبدِ	ولم يبقَ	٦٤	١٩
بساعات	لساعات	٦٦	٠٣
فالفخذان	فالفخذين	٦٨	٢١

غلط	صواب	صفحة	سطر
النقش	النفس	٦٩	٠٤
واخذ يدها وقبلها	وقبلها	٧١	٠٣
خجلًا ان	خجلًا اذ	٧٣	١١
مقيداً	مفيداً	٧٤	١٠
واحداً	واحد	٧٦	١٣
دعاءك	دعائك	٧٧	١٥
نعرف اكثر	نعرفه عنه	٨٩	٢١
وددق	ووقف	٩٠	١٦
كأنه	كأنها	٩٤	١٦
كائناً واحداً	كائن واحد	١٠٦	١٥
اليها	اليها	١١١	١٤
الوطئة	الوطأة	١١١	١٦
الذي	الذين	١٥٤	٠٤
برابط	برباط	١٥٤	٠٧
فنهض على	فنهض عن	١٥٥	٠٢
كأنه	كأن	١٦١	٠٨
التنائين	الفائين	١٦٤	٠٣
مقيد	مفيد	٢٠٤	١٧
التحاقي	التصافي	٢٠٥	١٧
الاقباء	الاقبية	٢٠٦	٠١

غلط	صواب	صفحة	سطر
تمجد	بمجد	٢٠٨	٠٤
شفاف	شغاف	٢١٤	١٤
المنفعة	المنفجة	٢١٧	٠٤
هفاف	هفهاف	٢٢١	١٣
بالجمال	للجمال	٢٢٤	٠٥
يهوى	يهوس	٢٢٨	١٥
اعتدال	اعتدالاً	٢٢٨	١٥
رجله	رجاله	٢٢٩	٠٨
اذنه	في اذنه	٢٣٦	٠٧
الجنوب	الجنون	٢٤٠	١٢
الخطيئة	الخطيئة الاولى	٢٤٣	١٧
انما في	ان في	٢٥١	٢١
هذا نهاية	هذه نهاية	٢٥٢	٠٢
كتيباً	كئيباً	٢٥٥	١١



مطابع سميا - بيروت

شارع عبد الوهاب الانكليزي

